من آثار علماء الجزائر

مقالات ودراسات

للشيخ عبد الرحمن الجيلالي

رحمه اللّه

نشرت في المجلات الجزائرية:

الشهاب، الأصالة، الثقافة

جمعها:

مسعود الغسيري

أولا: من مقالاته في مجلة الشهاب

1- **تعليق حول عدِّ ألفاظ اللغة العربية**، المجلد الخامس، الجزء السادس، صفر 1348 هـ، جوليت 1929م، ص: 19-21 (3 صفحات)

2- **إيضاح حول لفظتي (قبعة وCHAPEAUX)**، المجلد الخامس، الجزء الحادي عشر، رجب 1348 هـ، ديصامبر 1929م، ص: 18-21 (4 صفحات)

3- **الكشف عن لفظة (هاته)**، المجلد السادس، الجزء الرابع، ذو الحجة 1348 هـ، ماي 1930م، ص: 236-240 (5 صفحات)

4- **ترجمة العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز (1)**، المجلد السادس، الجزء الحادي عشر، رجب 1349 هـ، ديسامبر 1930م، ص: 660-666 (7 صفحات)

5- **ترجمة العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز (2)**، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، شعبان 1349 هـ، جانفي 1931م، ص: 724-730 (7 صفحات)

6- **ترجمة العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز (3)**، المجلد السابع، الجزء الأول، رمضان 1349 هـ، فيفري 1931م، ص: 12-19 (8 صفحات)

7- **بحث لغوي: هل القاف المعقدة عربية؟ (EL GUEF)**، المجلد السابع، الجزء السابع، ربيع الأول 1350 هـ، جوليت 1931م، ص: 446-451 (6 صفحات)

8- **الامتحان المدرسي**، المجلد السابع، الجزء العاشر، جمادى الثانية 1350 هـ، أكتوبر 1931م، ص: 606-611 (5 صفحات)

9- **كتاب الجزائر تجاه النقد**، المجلد الثامن، الجزء الخامس، محرم 1351 هـ، ماي 1932م، ص: 260-272 (13 صفحة)

10- **أخطار الخمر(1)**، المجلد التاسع، الجزء السابع، صفر 1352 هـ، جوان 1933م، ص: 272-279 (8 صفحات)

11- **أخطار الخمر(2)**، المجلد التاسع، الجزء الثامن، ربيع الأول 1352 هـ، جوليت 1933م، ص: 316-320 (5 صفحات)

المباحثة والمناظرة

تعليق حول عد الفاظ اللغـة العربيـة

كتاب مفتوح لحضرة محرر «الهلال»

للاستاذ الفاضل صاحب الامضاء

بينما كنت اجول في رياض مجلة «الهلال» الغراء . (الصادرة في اول مايو ١٩٢٩، واجني ما لذ وطاب من الثمرات التي لا تنتجها الغبراء . اذ لاح لبصري عنوان فوقع مني اسني موقع فرجعت البصر فيه فاذ هو «معجم اللغة العربية» فاخذت في قراءته بالتؤدة والاطمأنان وخصوصا لما وجدته سؤالا عن عدد متكلمي العربية والفاظها . فانتعشت الروح حيث كانت ملائمة لطبيعتي العربية فبادرت لاستفادة ما في الجواب عن حصر الالفاظ العربية فاذا هي ٨٠

فأخذني العجب والاستغراب وقلت كيف ذلك مع ما نحن فيه من الزمن . عصر الاشتقاقات . عصر الاختراعات . عصر الاكتشافات . عصر الاستطلاعات . عصر التمدن والارتقاء .

ولمـه يعد الخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى منـذ ١١٧٧ ابنية كلام العرب ١٢٣٠٥٤١٢ كلمة ؟

ولم نقلها عنه السيوطي في كتابه «المزهر ١ ص ٤٥» وسلمها ؟ وكيف يسكت عنها الى يومنا هذا ؟

وممن علمنا ، بحث في ذلك اخيرا العلامة «جرجي زيدان» في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٢٢ ط ١٩١٢» فانه اعطى المقام حقه من البحث الصحيح والاستدلال الراجح مع اقراره لما حكوه .

ودونك ما قاله بعد ما قدم التعريف بالخليل وكتابه «العين» . اخذ يبين

بعض محتويات هذا الكتاب فقال :

«ومن ابحاث كتاب العين احصاء الفاظ اللغة في ايامه فقد نقل عنه السيوطي انه احصى فيه عدد ابنية كلام العرب المستعمل والمهمل فبلغ ١٢٣٠٥٤١٢ كلمة ولعله اراد ما يمكن تكوينه بتركيب احرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ولم يذكر عدد الكلام المستعمل منها على ان ابا بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب «العين» وجه نظره الى هذه المسألة ودرسها فكانت نتيجة درسه ان عدد الالفاظ العربية ٦،٦٩٩،٤٠٠ لفظا يستعمل منها الا ٥٦٢٠ لفظا والباقي وهو ٦٦٥٣٧٨٠ لفظا مهمل وقد قسمها من حيث عدد الفاظها على هذه الصورة :

عدد الالفاظ		المستعمل منها	المهمل
٧٥٠	الثنائي	٤٨٩	٢٦١
١٩٦٥٠	الثلاثي	٤٢٦٩	١٥٣٨١
٣٠٣٤٠٠	الرباعي	٨٢٠	٣٠٢٥٨٠
٦٣٧٥٦٠٠	الخماسي	٤٢	٦٣٧٥٥٥٨
٦٦٩٩٤٠٠		٥٦٢٠	٦٦٩٣٧٨٠

ومن المتعارف ان القوم في عصر الخليل كانوا اهل بادية وبساطة بيوتهم الشعر والاديم واثاثهم القدر والرحى وفراشهم البلاس (١) والبارى (٢) ولباسهم الرداء والكساء وآنيتهم الجفناء والقعب (٣)

فاذا اختبرنا هؤلاء ومن بعدهم عصرا عصرا . مع الالتفات قليلا لتطور اللغة فيها الى الآن لوجدنا بونا شاسعا وخطوة نائية بين هذا وذاك والتاريخ يشهد بذلك

وعلى كل فمن المسلم ان هذا العصر فاق الاول من حيث ما حدث فيه من

---

(١) معظم الطريق (٢) الحصير المنسوج (٣) القدح الضخم الجافي

الصنائع والفنون و و ....

وعليه فاللغة كذلك تقدمت بتقدمه

وايضا ان من مزايا اللغة العربية العاملة لنموها التى قل ان توجد فى غيرها من اللغات ان اكثر الفاظها مأخوذة بالاشتقاق اللفظي أو المعنوي فلو لم يكن لها غير هذا لكفاها توسعا و نموا نعم وبذلك وصلت الى ما هى عليه الآن وزيادة ان شاء الله تكون بها قابلة لأن تصير لسان العالم بدون ان يعوقها عائق . فياعجبا ! ! ! أفي ايام الخليل والزبيدي هى اوسع منها الآن ؟ كلا اللهم الا ان يقال المراد بذلك اعني « ٨٠٠٠٠ » هو المستعمل منها الآن او هو عدد المواد دون ما اشتق منها او تقليدا لما حكاه صاحب الجاسوس «ص ١٠٦» عن بعض من قال ان معجم «لسان العرب» يشتمل على ذلك فنسلم هذا مع الارتياح والاستبشار .

والخلاصة نرجو من فضيلة «المحرر» ان يفيدنا بما اعتمده لكي يظهر لنا وجه الصواب وله على كلا الحالين مزيد الشكر .

الجزائر ٢٣-١٢-١٣٤٧ الجيلالي عبد الرحمان

الاستاذ بمدرسة الشبيبة الاسلامية

قالوا تحب العرب ؟ قلت : احبهم
حبا يكلفني دمي وشبابي
مهما لقيت من الاذى في حبهم
أصبر اليه ، واتجد ملء اهابي

مصطفى الغلاييني

كتبها تحت صورته

المباحثة والمناظرة

ايضاح حول لفظتي (قبعة ـ و CHAPEAUX)

للسيد عبد الرحمن الجيلالي
الأستاذ بمدرسة الشبيبة الاسلامية

وقفت للاطلاع على مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق الصادرة في شهر ماي علم ١٩٢٨ م وكان من جملة ما اشتملت عليه المجلة من الابحاث الرائقة والفوائد الفائقة — بحث للعلامة الاستاذ المغربي احد اعضاء المجمع واركانه في لفظتي (قبعة — و CHAPEAUX) وحاول هذا الاستاذ في رد الاولى الى اصل عربي فصيح واشتقاق الثانية منها كما سنذكره ولشدة اعتنائنا ولهيامنا بالبحث الاول احببنا ان لا نهمله حتى نستوفي حقه لنا ولمحبي العربية اجمعين

والظاهر فيما سطر بالمجلة ان الشيخ لم يقصر في البحث والتنقيب وبذل كلية وسعه لكن !!

وهانحن ندرج للقارىء الكريم بعض مايهم ويعتمد عليه من نكت واستدلالات هذا الرجل العظيم ثم نتبعه بما سيظهر لنا وله وللمطلع جليا — هذا مع احترامنا لمقام الاستاذ وتوقيره قال اعزه الله

(القبعة بتشديد الباء فسرها علماء اللغة العربية بانها خرقة تخاط على شكل القلنوسة الطويلة يلبسها الصبيان) وقال (قد دل ذلك على عروبتها ولا سيما ان وزنها على وزن الكلمات العربية كسكرة وقبرة — ومما يدل على عروبتها ايضا مناسبة معناها لمعنى مادة (قبع) التي اشتقت منها اذ يقال قبع الرجل اذا ادخل راسه في ثوبه — والقبيعة قطعة من فضة يحلى بها مقبض السيف بحيث يدخل راس المقبض اى طرفه الاعلى في تلك القطعة فهي له كالقبعة التي يدخل فيها راس لابسها وفي [التاج]

ان صاحب القبيع هو لأب الشريف عمر بن احمد الاهدل : لقب به لانه كان يلبس القبيع (مصغرا) مثل القلنوسة يتخذ من خوص النخل . فلم تبق شبهة في أن مادة (قبع) تلتئم جدا مع معنى (القبعة) فالقبعة اذن عربية لا شائبة للعجمة فيها) وقال

(ومن المتباعد جدا ان تكون (قبعة) العربية مأخوذة من الكلمة اللاتينية لما ذكرنا من اصالتها في العروبة) اه كلام الشيخ فقد اتضح لنا وفهمنا من كلامه انه موقن ومعتقد بان اللفظة عربية لامحالة — فاليسمح لي لكي اتقدم له منتقدا لهذه الفكرة انتقادا ادبيا حرا

ولا يخفي بجنابه ان اهل العلم والادب من القدماء والمحدثين قد اوجبوا في المباحث العلمية والتاريخية النقد . وقلما نجد الان اثرا علميا اوغيره الا كان النقد رائده

وبعد فنقول . ان دعواكم القبعة هي خرقة تخاط على شكل القلنوسة الطويلة وعزيتم هذا التفسير لعلماء اللغة العربية لم نعلم ولم نر احدا فسرها بذلك غيركم وقد راجعنا اوثق المصادر اللغويه فلم نصادفه قط . والذي نعلمه ونتحققه عن علماء اللغه العربية في هذه اللفظة هو ان (القبعة) خرقة تخاط على شكل البرنس (١) يلبسها الصبيان

راجع لسان العرب ج ١٠ ص ١٣٠ ط بولاق ١٣٠١
والقاموس المحيط ج ٣ ص ٦٣ ط بولاق ١٣٠١
ومحيط المحيط ج ٢ ص ٢٠٨ط بيروت ١٨٧٠
واقرب الموارد ج ٢ ص ٩٦٠ط بيروت ١٨٨٩
والمنجد ص ٤٣١ط بيروت ١٩٠٨
والمعتمد ص ٦٤١ط بيروت ١٩٢٧

والكل من هذا الرهط مجمع على ان معنى القبعة ما ذكرناه وان خالف الواقع

(١) هو رداء معروف ومستعمل عند اهل الجزائر وتونس والمغرب

كما سنبينه وان معنى مادة قبع اي ادخل رأسه في قميصه للانسان وفي جلده للحيوان — وقد صرحتم بهذا في مقالكم — اذن فاين القميص من القلنوسة ؟

واين القلنوسة من البرنس ؟

وهذا كله ليس بغرض لنا وانما جئنا به عرضا لما نسبتموه لعلماء اللغة العربية فقط . ولكن مرادنا تحقيق احدى الامرين اهي عربية ؟ ام عجمية ؟ وكذلك مما يؤاخذ عليكم هو جعلكم من جملة البراهين على عربيتها التحامها بقبع — وكم كثير من الالفاظ العربية الملتحمة بغيرها من اللغات الاجنبية ومن ذلك لفظة (شريف) عندنا فانها تلتحم كثيرا مع (شريف) بكسر الشين في اللغة الانكليزية (١) ايصح ان ندعي عجمتها بحجة الالتحام ؟

ومما يؤخذ من فحوى كلام الاستاذ في ما يلي انه ألم بعجمة اللفظة وان لا غرابة في ان تكون كذلك لكنه وياللاسف لم يسمح بذلك ودونك كلامه (نعم انها (اي القبعة) تشبه في حروفها ومعناها بعض الكلمات اللاتينية لكن هذا من قبيل توارد اللغات وتشابه الفاظها) ولو وقف الشيخ عند هذا الموقف لكان احسن

والرأي الذى اراه واعتقده واسكن اليه ، ان اللفظة ليست عربية البته وانها دخيلة من لغة اجنبية عجمية — الا وهي العبرانية — ولي في صحة قولي هذا حجج نيرة ودلائل ناطقة .

الاولى جرت بيني وبين استاذي المنعم محمد ابن ابي شنب مباحثة في اللغة العربية وتاريخها والفصيح منها والدخيل فيها واسهبنا في البحث الى ان صار الاستاذ يعدد الالفاظ الدخيلة من اكثر اللغات حتى ذكر العبرانية وقال : ان لنا من الفاظها لكثير

(١) ومعناه مدير ادارة . وله النيابة عن الملك في كل الايالة

ومنها (القبعة) التي هي بالافرنجية CHAPEAUX

الثانية : قد ذكرها العالم (فوقليالمى فيزيري اى) في معجمه للغة العبرانية ج٣ ص٦٥٧ط ليبسيك ١٨٥٣ ونبه على اخذ العرب لها من العبرية وفي كتاب (فانتيورا ص٢٧ط باريس ١٩٢٨م ومثله العالم دمارشان اين ري) في معجمه العبراني الفرانسوى ص١٠٠ط باريس ١٩٢٣م

ومع هذا كله فقد سألت مرارا بعض احبار اليهود عنها فاجبت بما قلت .

وعلى كل حال فلا يمكننا انكار عجميتها اذا كنا مقرين بوجود الدخيل في لغتنا من الفارسية والسريانية والقبطية والنبطية واليونانية والحبشية والهندية والرومية والسنسكريتية ...... الخ ... الخ ....

ومما لا يخفي على حضرة الاستاذ المغربي ان تكون اللغة العربية المحضة او العدنانية الحجازية او الفصحى الاسماعيلية لغة الكتاب المنزل من القرن الخامس قبل المسيح الى وقتنا هذا

والعبرية ظهرت في القرن الخامس عشر قبل المسيح واستمرت الى يومنا هذا (١) اذن لا غرابة في اخذ العربية من العبرية حين سبقتها بعشر قرون .

ولنا في الشعر العربي ايضا دليل على اخذ العربية من العبرية وذلك ان اداة الاستفهام عندهم الهاء المفتوحة وجاء استعمالها في شعر قبيصة بن جابر احد الشعراء بديوان الحماسة ج١ ص٢٥٤ط مصر ١٣٣٤

بني هيضم هو جد ثماني * بطيئا بالخاتلة (٢) احتيالي

اي أو جد ثماني وقال غيره

وأتي صواحبها فقلن هذا الذى * منح المودة غيرنا وجفانا

وان الهاء في هذا للاستفهام يقصد منها (أ) ذا الذى وليس بعجيب ان تكون لفظتنا من هذا القبيل

الجزائر ٢٥-٥-١٣٤٨ عبد الرحمان الجيلالي

الاستاذ بمدرسة الشبيبة الاسلامية

---

(١) راجع كتاب اللغات السامية تأليف نولدكه ط ليبزيج ١٨٨٧ والشهاب الرصيف تأليف محمد لطفي جمعه ص ١٠٧ط مصر ١٩٢٦

(٢) ويروى (بالمحاولة)

الفرع يجعله احرى بالجواز من اصله . فيسقط السؤال . ولو لم تكن هذه العلة المذكورة لما كان فرق بين العزل واستعمال الدواء للامتناع من الحمل . اللهم الا ان يكون من جهة ان الدواء قد يؤدى الى ضرر بدني او إلى منع الحمل بتاتا وحينئذ يكون منع استعمال الدواء لسبب آخر غير اصل استعماله وهذا ليس هو الواقع في السؤال الذى كان عليه الجواب

الكشف عن لفظة (هاته)

للاستاذ الفاضل صاحب الامضاء

كان في يوم ٢٦ رمضان الفارط ما بين الظهرين ختم صحيح الامام البخارى دراية بالجامع الاعظم ، وقد كنت انا المباشر لذلك

وكان من جملة ما تعرضنا له هنالك في الدرس الكلام على لفظة (هاته) من الوجه اللغوى وقلنا عن استقراء ، انها لم توجد في كلام العرب ولم ينطق بها اعرابى قح ، واننا في غني عن مثلها حيث كان في اللغة ما يجعلنا معرضين عنها ، واعنى لفظة (هذه اوذه وتا وتى) ، وليست (هاته) بافصح من هذه

ونحن عاملون بقول عبد اللطيف البغدادى في شرح الخطب النباتيه ، ان اللغوى شأنه ان ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه ، مع اقرارى لما حكاه جمهور النحاة فيما يتعلق باسم الاشارة الخاص بالمؤنث ، وكان مستندى في الكلام على (هاته) ما سطره يراع فقيد اللغة والادب العلامة ابراهيم اليازجي في رسالته الموسومة بلغة الجرائد ط مصر ١٣١٩ص ٣٠

اذ يقول « ومن تهافتهم (يعني الكتاب) في النقل ما نولع به اكثرهم من استعمال لفظة (هاته) في مكان هذه ذهاباً الى انها افصح منها . وما هي بالفصحى ولا الفصيحة .

وهذه معلقات العرب بل قصائدها التسع والاربعون وهذه شعراؤهم من مثل عنترة والنابغة وحاتم وعروة بن الورد والفرزدق وجرير وغيرهم وهذه خطاب الامام علي والمنقول عن وفود العرب كلهم بل هذا القرآن نفسه هل يجدون فى ذلك كله لفظة (هاته) فلو كانت بهذه المنزلة التي يتوهمونها لم تفت اولئك كلهم على مكانهم من اللغة وتحققهم من فصيحها

ولقد قلبنا كثيرا من صحف الكتاب في كل عصر من اعصار الاسلام فلم نجد هذه اللفظة في شيء من كتب المتقدمين ، ولا نذكر اننا رأيناها قبل شيوعها بين كتابنا

الا في كلام بعض متأخري التونسيين بل لعلها لم ترد الا في كتاب خير الدين باشا المسمى باقوم المسالك فانها شائعة في الكتاب كله لا يكاد يستعمل غيرها وهو من غريب الذوق في اختيار الألفاظ » اه كلام البازجي

واذا لم تر الهلال فسلم * لأناس رأوه بالابصار

اما يكفينا هذا الاستقراء الغريب ، وهذا التتبع العجيب ، من مثل هذا العالم الكبير الذى ابتدأ بحثه من العصر الجاهلي الى سنة ١٩٠٦ مسحية وهي سنة وفاته ،

وان مثل هذا الرجل بل سائر اسرة عياله وآله لجدير بأن يقتدى بهم ، ويحتج بقولهم فانك اذا جئت تبحث عن ابيه ، تجده امام اللغة واستاذ الآداب ومن ذا الذي يجهل فضل (ناصيف اليازجي) في اللغة . او تبحث عن شقيقته فتجدها اريبة اديبة من الطبقة الاولى ، وديوانها المطبوع يشهد بذلك

ويكفي في بيان منزلة هذا الرجل العلمية تلك الكلمة التي شهد بها العلامة جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية فقال (وكان في عصره حجة اللغة وامام الانشاء) (١) وبعد هذا كله اصبح البعض يعتقد ما قلناه ويسبنا الى الجهل كما فعل ذلك المعضى — أ الاكل بجريدة — النجاح الزاهرة عدد ٨٨٢ وقد جاء في احتجاجه انها مذكورة في القرآن الحكيم وقال (واذا طلبتي حضرتك في اظهارها فلا اجيبها الا بقوله تعالى ان انكحك احدى ابنتي هاتين ومفرد هاتين هاته) ونحن نقول له الان قد أظهرت لكل ذي عينين انك وراء غاية العرفان !! ومنتهى الحجة والبرهان !!!

فبربك قل لي هل صححت منقولك حتى استدللت بالاية ؟؟ وهلا تفهمت المفرد والتثنية بين هاتين وهاته ؟؟

ومتى ادركت حقيقتهما حتى صرت تحتج بهاتين لاثبات هاته ؟؟

او ما تعلم انه لا يثنى من الفاظ المؤنث الا تا . فمن اين لك ان هذه التثنية لهاته ؟ او ما رأيت ما قاله العلامة ابن هشام في شرحه على معفه الشذور ج ١ بهامش ص ٩٧ ط مصر ١٣٠٣ (ان هاتين تثنية هاتا)

وقال صاحب الحاشية محمد عبادة ص ١٩٢ من الجزء نفسه (والذى ثنى من اشارة المؤنث انما هو هاتا) فاين قولك — ومفرد هاتين هاته) او لعل هاذين العالمين مخطئان ورأيك مصيب والحكم في هذا للقراء الكرام . والدليل ايضا على ان هاتين مثنى هاتا لامثنى هاته بقاء التاء المثناة الفوقية مفتوحة والياء المثناة التحتية ساكنة سكونا حيا ،

وبعد هذا قل لي كيف اصدرت ذلك الحكم المبرم الذى لا يستطيع متبصر

---

(١) وتجد ترجمته مطولة في تراجم مشاهير الشرق لزيدان ج ٢ ص ١١٩ ط ٢ وفي تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٦٦ ط ١٩١٤ لكنها مختصرة

ان يطلقه على كل مثنى من غير توقف ولا تروحيث قلت (ومما لا شك فيه ان لكل مثنى مفردا)

فهيابنا وافدنا ببيان بعض مفردات هذه الالفاظ المثنيات

الاصدغان (١) . لبيك (٢) . سعديك (٣) . حنانيك (٤) . دواليك (٥) هذاذيك (٦) . ازدريه (٧) . اسدريه . مذرويه (٨) .

فقد ترك لنا علماء اللغة رحمهم الله تعالى هذه الالفاظ ولم يبينوا عن مفرداتها اذ لعلنا نجد فيك رجلا عالما فلا يحرمنا من الفائدة .

الجزائر ١٧—١٠—١٣٤٨ عبد الرحمان الجيلالي

الاستاذ بمدرسة الشبيبة الاسلامية



(١) عرقان تحت الصدغين
(٢) يقال لب الرجل بالمكان اذا اقام
[٣] انا على طاعتك
[٤] تحنن علي
[٥] من المداولة
(٦) الهذ القطع ومعناه قطعا بعد قطع
(٧) كلمة تقال لمن كان فارغا . جاء يضرب ازدريه وكذلك اسدريه
(٨) تقال للرجل اذا تهدد وليس وراء ذلك شيء جاء يضرب مذرويه

مسائل ومقالات

كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق

ترجمة العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز

بقلم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الاستاذ بمدرسة الشبيبة الاسلامية بالجزائر

١

من مزايا القرءان الكريم والذكر الحكيم ان كان الداعي الاكبر الى تدوين وضبط احوال الرواة والحفاظ وتراجمهم وقد توسع اهل العلم فى هذه الجزئية وقسموها الى اقسام وهى ما يعبر عنها في اصطلاحهم بـ « الطبقات » فتفرع عن هذا التقسيم طبقات الحفاظ واللغويين والفقهاء والمحدثين والنحاة والادباء الخ ..... وبهذا انضبطت اخبار الاوائل وسهل استقصاؤها على الباحثين .

هذا وقد شئنا ان نأتي على ترجمة احد عظمائنا الافذاذ . ونبغائنا الشواذ . الا وهو العلامة الجليل « الشيخ المكي بن عزوز » الذي كان منذ ثلاث واربعين سنة نجما يتالق فى سماء العلم والادب بهذا القطر الجزائرى رافعا لواءه بين الاوية مفتخرا به وحق له الفخر .

ونحن مبعوثون على هذا العمل بباعثين قويين . الاول . علمنا بان الرجل جزائرى الاصل جميل الذكر والاثر فى اوساطنا وله من مسلمي الجزائر انصار عدة واخوان كثيرون .

الثاني . موقفنا موقف التعجب ممن يهملون ذكر اسلافهم الصالحين ورجالهم العاملين ويلتفتون للأجانب فيشاركونهم فى ذكرياتهم واحتفالاتهم الساذجة الباردة . فبهذا كان مترجمنا يستحق مزيد الاهتمام والعناية فاستخرجنا حياته وجمعناها مستعينين فيها بمعلومات شفاهية استقيناها من محبي الاستاذ وبعض من تلاميذه ، وبتحقيقات تاريخية تفضل بها علينا نجله الكريم الأديب السيد مصطفى عوضهم الله خيرا

ولم نعلم فيما سبق أن ثم من ترجم لهذا النابغة الجليل الى حد الان . وهذه الترجمة ملخصة من الترجمة التى صدرنا بها كتابا شرحنا به ارجوزته « الجوهر المرتب فى العمل بالربع المجيب » وسيمثل للطبع قريبا بحول الله وان فيها لذكرى ومثلا من الذين خلوا من قبلنا وموعظة للمتقين .

نشأته ونسبه

هو العلامة الجليل السند الثبت الحجة ابو عبد الله محمد المكي بن الشيخ مصطفى بن قطب دائرة الصلاح والاصلاح الشيخ محمد بن عزوز الشريف الحسنى الادريسي (١) ووالدته ابنة العالم الجليل العارف بالله « سيدي الشيخ » بن ابى القاسم الابراهيمي الديسى (٢)

---

(١) توفي سنة ١٢٣٢ وترجمة حياته في « تعريف الخلف برجال السلف » ج٢ص٤٧٥

(٢) توفي عشية يوم الثلاثاء ٢ صفر سنة ١٣١١ وترجمته في « تعريف الخلف برجال السلف» ج٢ص١٧٨

ولد رحمه الله بنفطة من ارض الجريد من عمالة تونس في ١٥ رمضان سنة ١٢٧٠هـ ونشأ فى حجر والديه لحفظ القرءان بزاوية ابيه الكائنة بنفطة على شيخه السيد اللخمى بن الصحبي ابن الصغير وهو لم يتجاوز للاحدى عشرة سنة

طلبه العلم

اعتنى صاحب الترجمة بحفظ المتون واجتهد في مزاولة مبادي العلوم ، وكان من شيوخه القدماء فيها الشيخ قاسم الخيراني . ومما قرأه عليه . شرح الشيخ خالد الازهري على الاجرومية وشرح ميارة على ابن عاشر في الفقه .

وقرأ الرحبية والدرة البيضاء في علم الفرائض ومبادي علم الفلك على شيخه محمد بن عبد الرحمان التارزي بن عزوز وهو ابن عمه مع كتب اخرى ابتدائية وقرأ ايضا على الشيخ النورى بن ابى القاسم الزبدى النفطي الفية ابن مالك بشروحها ومختصر خليل بشروحه مع جملة كتب اخرى .

وحضر درس شيخ الشيوخ الاستاذ المدنى بن عزوز فى شرح الترمذى .

ارتحاله في طلب العلم

وبعد ما تشبع وروى القدر الكافى من العلم الموجود ببلده اشرأبت نفسه الى الاستزادة فارتحل الى تونس عام ١٢٩٢ فلقى

هناك علماء اجلاء فلازم منهم العلامة سيدى عمر بن الشيخ المفتي المالكي بالحاضرة وقرأ عليه المحلي على جمع الجوامع فى الاصول والموطا ومختصر السعد وغيرها كما لازم شيخ المشائخ بها الاستاذ محمد النجار المفتى المالكي والشيخ سالم بوحاجب الباش مفتي. وقرأ مقالات الحريري على الشيخ النجار والمغنى على الشيخ سالم • واخذ القراءات السبع رواية ودراية عن شيخه العالم سيدي محمد البشير التواتى

علمه ومعارفه

تفنن رحمة الله عليه فى المعقول والمنقول والفروع والاصول بالاخذ عن هؤلاء الاعلام المحققين، حتى رزق الفتح من رب العالمين • فاصبح من اطواد الامة ومصابيح الدين الناسخة لدياجي المشكلات المدلهمة جمع الله فيه ماتفرق فى غيره من الفنون • وبرع على الاخص في فن التفسير والحديث والاصول وعلم الكلام والقراءات والرياضيات •

وعند ذلك اذن له الاساتذة فى التدريس، فتصدى لذلك ونثر الدر النفيس، ببراعة وافصاح، واقتدار على حسن الايضاح، مع سعة اخلاق تنشط الطالبين، وتنشيء فيهم الرغبة فى البحث المثمر للتحصيل المبين. محلى ببراعة يراع في انشاء القريض والترسلات، على تباين المقاصد واختلاف المقامات، فتخرج عليه جم غفير من سائر الاقطار الاسلامية فى العلوم العقلية والنقلية بتونس

والجزائر . وطرابلس الغرب • وبن غازي . والاستانة • واشتهرت تلامذته فى الحواضر والبوادي حتى صار علماء المدن التي دخلها كالجزائر وقسنطينة ونجباؤها وكبراؤها تلاميذ له • وبعضهم يقنع بالانتساب اليه ولو بالاجازة •

وامتدحه كثير من ادباء العصر بقصائد لو جمعت لكانت من الدواوين المعتبرة •

واجازه نحو الخمسين من اشياخه والمعاصرين له بتونس والجزائر والحرمين الشريفين ومصر وغيرها كالمغربين فاجتمعت عنده فى جميع الكتب والفنون المتداولة والغريبة اجازات سامية واسانيد عالية قل ان توجد عند غيره . ويكفينا فى ذلك ما حلاه به شيخ الاسلام ببلد الله الحرام السيد احمد دحلان (١) اذ يقول فى اجازته التي راسله بها بخطه وختمه •

« قد اشتهر فى الاقطار بلا شك ولا مين ، لا سيما فى الحرمين الشريفين ، بالعلم والعمل ، نخبة العلماء الاعيان • وخلاصة الاعلام من ذوى العرفان ، سراج افريقية ، بل بدر تلك الاصقاع الغربية الاستاذ الكامل الجامع لما تفرق من الفضائل والفواضل ، مولاي السيد الشريف محمد المكي المفتي المالكي بايالة تونس .... الخ ما كتب

(١) هو من خيرة علماء مكة المكرمة نشأ بها وتولى افتاءها وله تآليف عدة منها ما هو مطبوع ، توفى سنة ١٣٠٤

توليتـه المناصب

وفي سنة ١٢٩٧ (وعمره عامئذ سبع وعشرون سنة) ولي بلا طلب منه خطة الفتيا ببلد سكناه (نفطة) التي كان استقر بها والده حينما ارتحل من (الزيبان) وبها ضريحه .

ثم في عام ١٣٠٥ ولوه القضاء بها بالالزام مع الالحاح فوقف لنصر المحقين وقهر المبطلين واقامة الحدود الشرعية بقدر الامكان ثم في عام ١٣٠٦ استعفى من القضاء والقوم متأسفون . وفي سنة ١٣٠٧ خرج قاصدا بلد الجزائر . فلحق بالشيخ الامام المعمر المحدث سيدي علي بن الحفاف مفتي المالكية بعاصمة الجزائر فاخذ عنه مع خاله استاذنا الشيخ ابو القاسم الحفناوي بن الشيخ مفتي مالكية الجزائر الان صحيح الامام البخاري ورواه عنه بالسند العالي المشهور.

وفي سنة ١٣٠٩ ارتحل هو وآله من نفطة فسكن تونس واشتغل بالقاء الدروس بجامعها الاعظم فابتهجت به صدور المحبين لنشر العلوم والمعارف . ومن الكتب التي اقرأها بالكلية الزيتونية

شرح الدردير على خليل . البخاري باحد شروحه ، الاربعين النواوية ، الجامع الصغير . واقرأ الهمزية بجامع « الهوا » ومقامات الحريري بجامع « المر » واشتهر في غالب الاقطار بالعلم الواسع ، والفضل الجامع ، حتى انه تأتيه الاسئلة والاستفتاءات بكثرة من الامصار القريبة والبعيدة فيجيب عنها بما يشفي ويكفي .

هجرته الى الشرق

وفي سنة ١٣١٦ ارتحل الى طرابلس الغرب فمكث فيها شهرين انتفع في اثنائها اهلها به وبعلومه . ثم امتطى متن الباخرة الى بن غازي فمكث فيها نحو شهرين ثم توجه الى جزيرة «كريد» (١) ونزل ضيفا مكرما على قاضيها الشيخ البغدادى ثم ثنى عزمه الى «ازمير» فمكث فيها شهرين ثم توجه الى الاستانة فلقيه في مرساها نخبة من الافاضل الاعيان كمحي الدين باشا بن الامير عبد القادر والشيخ محمد ظافر والشيخ عبد الرحمان الجزولى والشريف عبد الاله باشا وغيرهم . فنزل ضيفا معظما مبجلا مكرما يتداولون ضيافته الواحد بعد الواحد بكل حفاوة واكرام

(١) كانت هذه الجزيرة تسمى عند قدماء اليونان «ايدا» لان اعلى جبل فيها كان معروفا بهذا الاسم ولما كان طولها يضاهى عرضها سبع مرات اوثمانية سميت بما معناه «الطول السعيد» ثم سميت بما معناه «ذات الهواء» لكون هوائها جيدا وجافا للغاية ثم اطلق عليها اسم جديد معناه «المعظمة» لكونها اعظم جزائر بحر الروم . وفي آخر الامر سماها الاغارقة «كريت» تشريفا لها لكون زوجة احد ملوكها كانت تسمى كذلك

وقد وردت هذه الاسماء في تاريخ يوناني قديم الفه عن هذه الجزيرة احد الفلاسفة والمؤرخين واسماه «باكوقاطون» :

وقد قال حسين بك كامي في تاريخ كريد الذى الفه باللغة التركية ان العرب حرفوا كلمة كريت الى «اقريطش» والعثمانيون الى كريد لسهولة النطق بها . وقد فتح هذه الجزيرة المسلمون سنة ٢١٠هـ (السفر الى المؤتمر ص ٢٢-٢٤ ط بولاق ١٣١١)

رسائل ومقالات

كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق

ترجمة العلامة الاستاذ الشيخ المكي بن عزوز

بقلم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الاستاذ بمدرسة الشبيبة الاسلامية بالجزائر

٢

نشرة العلم بالشرق

اقترح عليه الجماعة هناك نشر دروسه فتصدى لنشر العلوم بعزم ثابت . واقرأ شرح ابن حجر على البخاري . والمحلى على جمع الجوامع . وصحيح مسلم . ومقامات الحريري . والالفية • والجغرافية • والفلك • وشرح المعلقات • والسيرة النبوية • ورسالة القيرواني فى الفقه • وبلوغ المرام • وشرح الاظهار • والكافيجي فى النحو • وغيرهم من علوم البلاغة واللسان

وفى حدود سنة ١٣٢٤ أسست الدولة العثمانية الحميدية كلية عظيمة بالاستانة اطلق عليها اسم « دار الخير » فمين مجلس معارفها صاحب الترجمة مدرسا خصيصا للحديث الشريف بها ثم بعد عام او عامين ابدل اسم دار الخير « بدار الفنون » وبقي الاستاذ مستمرا على دروسه بها فضلا عما كان مشتغلا به من القاء دروس اخرى خارج الكلية •

وفى عام ١٣٣١ توفى احد اساتذة الجامعة الكبار وهو العلامة

الشيخ اسماعيل حقي (حفيد صاحب التفسير) وكان استاذ التفسير بها فقلدت وزارة المعارف هذا المنصب لمترجمنا مع ابقائه فى منصبه الاول

وفى عام ١٣٣١ أسست الحكومة هناك مدرسة دينية اطلقت عليها «مدرسة الواعظين» فعينت الشيخ مدرسا فيها ايضا. وكان رحمة الله عليه يلقي دروسه فى كلتا المدرستين باللسانين العربي والتركي مع اقتدار عظيم على ذلك.

مرضه ووفاته

واستمر الشيخ فى دروسه على طريقته الحسنة الى ان اصابه في سنة ١٣٣٣ مرض اعيا الاطباء علاجه؛ وكان الله شاء ان يكون موت الشيخ عظيما فرماه بالفالج مثل ما رمى قبله ابن دريد والجاحظ وابن عبد ربه واليازجي ولازمه مدة اربعة اشهر من شوال الى صفر فوافاه الاجل المحتوم عند غروب الشمس من يوم الخميس ثاني صفر من سنة ١٣٣٤ ودفن من الغد بمقبرة يحيي افندى (١) الكائنة بحومة «أورته‌كوي» (٢) وصلى عليه الشيخ عبد الرحمان التقادي وحضر جنازته اكابر رجال الدولة بصفة رسمية وعظماء الامة والعلم. وكان فقده عظيما فى قلوب سائر الناس وخصوصا اصحاب العقول السليمة والارواح النقية فقاموا لتابينه ورثائه بنظم القصائد الطوال، وذكر محاسنه بالغدو والآصال وقد بلغنا من هذه قصيدة الاستاذ المؤيد بالتوفيق الشيخ الطيب العقبي فانها من ابلغ

(١) هو اخو السلطان سليمان القانوني من مشاهير الصالحين بالاستانة

(٢) هي محلة عظيمة يسكنها ابناء السلاطين والامراء شرقي ربض « بشكطاش »

الرثـاء (١)

أخلاقه وعاداتـه

كان من عادات الرجل المحافظة على لباسه القومى حتى فى وجوده بالبلاد التركية فكان يستورد من بعض اصدقائه بالجزائر كل ما يتعلق باثاث البيت واللباس وكان سمح الكف بلا توقف على فضول او غنى بل كان يصل رحمة الله عليه فى بعض الاحيان الى حد الخصاصة وهو مترفع عن الناس بهمته الشماء موثر على نفسه •

ويعلم هذا كل من ضاف الاستاذ او عاشره •

وكان رحمه الله سريع التاثر اذا ما رأى ما ينافى نواميس الحياة والدين او ما يمس شرف العاملين عليهما من غير تعصب ولا مراء •

ولم يعهد انه تـكلم مع احد بكلام ساقط او شاتمه

وكانت مجالسه حية بروح البحوث العلميـة والادبية . وكان مهاب الطلعة مع طلاقـة الوجه والعفة والاباء والتواضع والشهامة

محاسنه جلت عن الحصر وازدهى

باوصافه نظم القصائـد والنثر

تئاليفه وآثاره

ولصاحب الترجمة مؤلفات نفيسة فى مختلف الفنون فى التوحيد والحديث والتفسير والفقه والاصول والتجويد والقراءات والتصوف

(١) راجعها في كتاب « شعراء الجزائر » ج ١ ص ١٣٨ ولولا ضيق المقام لا درجناها

والهيأة والتوقيت والادب والتاريخ بين كتب كبار ورسائل صغار تجاوزت الستين . ولنذكر نبذة مما علمناه منها .

فن اشهرها المطبوع

١ رسالة فى اصول الحديث طبعت بالاستانة

٢ العقيدة الاسلامية طبعت بالاستانة وقررت وزارة المعارف تدرسها في سائر المكاتب السلطانية

٣ هيئه الناسك في ان القبض فى الصلاة هو مذهب الامام مالك طبعت سنه ١٣٢٧

٤ الاجوبة المكية عن الاسئلة الحجازية طبعت بمصر

٥ الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب طبع بتونس ١٢٩٨

٦ التقرار المهذب في حل تراجم الجوهر المرتب طبع تونس ١٣٠٢

٧ السيف الربانى فى عنق المعترض على الغوث الجيلانى طبع بتونس

٨ الدراية فيما ليس برأس آية طبع بتونس واما غير المطبوع فاكثر ، ودونك بعضها

٩ حاشية على صغرى السنوسى

١٠ انارة الحوالك في ان الرفع فى الصلاة مذهب الامام مالك

١١ وبل الغمامة في افراد الاقامة

١٢ كتاب النصيحة فى الصلاة المفروضة الصحيحة . وهو كتاب يشتمل على كيفية الصلاة حسبما وردت في السنة حتى يكون المطلع

عليه ممتثلا لحديث « صلوا كما رأيتموني أصلي » وعليه بـني المؤلف تـآليفه هذا

١٣ جائـلة الاوطان في ان تحريك الاصبع ملعبة للشيطان
١٤ رسالة تنبيه الحي في ان العمل بالحديث ليس من الاجتهاد في شيء
١٥ رسالة في تفنيد نسبـة الفـتاوى الحديثيـة لابن حجر
١٦ مصرع الاوابد في بيان خطا الرجال الثلاث المهدي والكافي وعابد (١)
١٧ رائد النجعة في جواب من تعجب من قولنا السدل بدعة
١٨ النفحات الرحمانية في مناقب رجال الخلوتية
١٩ طريق الجنة في تعليم النسوان السنة وهو كتاب تعرض فيه لما يختص بالنساء في انواع العبادات
٢٠ طي المسافة الى دار الامن من المخافـة
٢١ الرحلة الجزائرية .
٢٢ مسامرة الضيف في المفاخرة بين الشتاء والصيف
٢٣ شرح حديث كميل بن زيـاد في الرد على الطبيعيين
٢٤ التخت في جواب من سأل عن البخت
٢٥ ثبوت كرامات الاولياء رد به على الشيخ رشيد رضا

(١) الاول مفتي فاس الشيخ المهدي الوزاني والثاني من العلماء المشهورين بالمشرق والثالث مفتي مكة المشرفة

٢٦ وجوب طاعة الرسول فى الرد على انشيـخ رشيـد ايضا

٢٧ نصيحة الاخوان فى الجواب عن اسالة الداغستان

٢٨ انتهاز الفرصة في مخاطبة عالم قفصة (١)

٢٩ النصيحة الجدية في المذاكرة الجنيدية

٣٠ مغانم السعادة فى فضل العلم على العبادة « رجز »

٣١ برق المباهم في ترجمة الشيخ محمد بن ابي القاسم

٣٢ الاربعين المكية : اقتصر فيها على اربعين حديثا من صحيح البخاري فقط اولها حديث آية المنافـق ثلاث الخ ٠٠٠٠٠ وآخرها. من كان حالفا فليحلف بالله او ليصمت (٢)

٣٣ الاحتواء فى جواب من سأل عن الاستواء وهى رسالة اجاب بها الشيخ اسماعيل الصفايحي قاضي حاضرة تونس حينما استشكل مسالة الاستواء في العقيدة الاسلامية

٣٤ كتاب فى الحديث رتبه على حروف المعجم في اسلوب الجامـع الصغير فى الاحاديث الصحيحة المرويـة فى البخاري ومسلم ويرمز في آخر كل حديث بحرف الخاء او الميم او القاف . فالخاء للبخاري والميم لمسلم والقاف لما اتفقا عليه وهو فى نحو خمس كراريس من القطم الكبير

---

(١) هو الشيخ الحسين ابن المفتي

(٢) فيه من البديع حسن الانتهاء وهو ما آذن بانتهاء الكلام حتي لا يبق للنفس تشوف الى ما وراءه

٣٥ تاريخ الملوك العادلين « لم يكمل »

هذا مبلغ ما وصل اليه علمنا من تآليفه رحمه الله مع تيقننا بان الباقي اضعاف هذا بكثير ، و ياليت لنا من ينقذها من بين مخالب الارضة وعبثات ايدي الزمان !!

ادبه

كان لصاحب الترجمة ديوان حافل من الشعر الرقيق جمع فيه الغالب من فنون الشعر ونكته . ومن سوء الحظ لم نظفر بقطعة منه بل ولا ببيت واحد رغم كثرته وانتشاره بين الادباء واشتهاره .

وكذلك له عدة مقالات ادرجت بجرائد ومجلات وقته الشرقية والغربية فلو جمعت لكانت هي وحدها سفرا جامعا للادب والاخلاق والتاريخ والفلسفة وستعرف بعضها في الفصل التالي المعقود للكلام في انشائه رحمه الله



رسائل ومقالات

كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق

ترجمة العلامة الاستاذ الشيخ المكي بن عزوز

بقلم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الاستاذ بمدرسة الشبيبة الاسلامية بالجزائر

٣

انـشاؤه

اما انشاؤه فانشاء عالم اديب مفكر لا يرتكب الكلفة والتعقيد ولا يلقى بنفسه فى محبس السجع والتجنيس بل ياخذ الموضوع فيشرحه تشريحا ليس هو بالمخل ولا الممل حتي يخيل للسوقي ان فى استطاعته الاتيان بمثله، وهذا هو بعينه الحد الذى حد به ابن المقفع الفصاحة عند ما سئل عنها اذ قال ما معناه « هي ان ياتي المتكلم او الكاتب بكلام فيحسب الجاهل انه يحسن مثله » وها أنا أقدم لك ايها القاريء الكريم نبذة من انشاء الشيخ تستكشف بها دخائل روح الشيخ ومخبآت صدره وبنات فكره وهي الصورة الشمسية المبينة لكنه ما انطبعت عليه انفاسه واذواقه . وهي قطعة من رسالة كاتب بها مدير مجلة « الكويت » الغراء الشيخ عبد العزيز الرشيد

وادرجت بالمجلة في الجزء العاشر من المجلد الاول . قال بعد الدباجة :

« دخل علي من السرور ما الله به عليم فى التعرف بكم وظفري

بصاحب مثلكم وذلك ان قلبي موجع من غربة العلم والدين واهله وقلة انصاره .

وايضاح هذا انى لست اعني بالدين الدين الذي قنع به اكثر طلبة العصر والمتسببين الى العلم فى الشرق والغرب من كل مذهب من مذاهب اهل السنة .

سارت مشرقة وسرت مغربا ❀ شتان بين مشرق ومغرب

ولكني اعنى بالعلم والدين علم السنة . وما الدين الا اتباعها وايثارها على عصارات الا راء وهجومة المتفيهقة . وما التوحيد الا توحيد السلف الصالح واما غيره فاشبه بالضلالات وزلقات الهفوات .... اننا نجد فقيها تقيا محبا للسنة ومبغضا للبدعة متعففا من تناول الحرام واقفا موقف النصح والارشاد للخلق حسن النية لكنه جاهل بعبادات النبي صلى الله عليه وسلم وما كان عليه في شئونه كلها

وقد يكون عارفا بها او ببعضها ويترك المتابعة النبوية عمدا لانها خالفت قول فقهائه . ولو تخبره باصلاح عبادة او تحرير حكم شرعي بنص نبوي ينفر منك نفرته من العدو ورآك مخادعا لك (كذا) ولربما اتخذك عدوا مبينا بعد المحبة والصحبة ويحكم بضلالك (كذا) كل ذلك لغلوه في التقليد ولا يخفى ان اولئك لا يقال لهم علماء الا مجازا لا خلاف في ذلك كما قاله ابن عبد البر وغيره وتجد آخر متفننا بعدة علوم وربما يكون مطلعا على

دواوين الحديث نبيها له همة تنبو به عن التقليد يبالغ في تتبع الادلة فينقلب عن الدين وغيرته في اعتقاد تأثير الطبيعة حتى ينكر معجزات الانبياء وينكر كونها خارقة للمادة ونحو ذاك من القول بنفي حشر الاجساد في الاخرة ونفي تناسل البشر من آدم وحواء . الخ . واياها اعني في عدة مباحث من « العقيدة الاسلامية » التي رأيتموها بجدة . وبعض هؤلاء ايضا لهم حسن نية في تمديهم الحدود فهذان الفريقان اللذان هما على طرفي نقيض احدهما مفرط والاخر مفرط كلاهما يعدهما المغفلون من علماء الدين ولكل منهما اتباع وانصار « انعق بما شئت تجد اتباعا »

والقسم الثالث . وهم الاوسطون الذين تفقهوا بفقه الائمة رضوان الله عليهم واعتنوا بالحديث الشريف مع تفنن في الاصول والعلوم العربية ودققوا مسائلهم الدينية فما كان من الفقه سالما من مصادمة سنة بقوا عليه وما صادمها نبذوه وعذروا قائله بعدم بلوغ الخبر له هذا فيما يتعلق بالعلم العملي . واما الاعتقادي فهو معذور في الابتداء في كتب المتكلمين ثم يترقى بطريقة السلف ولا تؤخذ حقيقتهما الا من كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وصاحبه الذي هو نسخة صحيحة لا تحريف فيها الشمس ابن القيم فيعتقد ما هناك بادلة متينة وايمان راسخ فيصبح من الفرقة الناجية التي عرفها النبي صلى الله عليه وسلم بانهم على ما كان عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم واصحابه وهذا القسم الثالث الذي هو على الصراط المستقيم المدعو

بالهداية اليه في الفاتحة بكل ركعة قليل في الوجود مع الاسف قال الله تعالى « وقليل من عبادي الشكور » فاذا انظر شرقا وغربا فارى كما قيل

ما اكثر الناس لا بل ما اقلهم ❀ الله يعلم اني لم اقل فندا
اني لا فتح عيني حين انتحها ❀ على كثير ولكن لا ارى احدا

وربما اجد في مليون من الخلق واحدا فانا اشد فرحا من ولادة ولد ذكر لابن الستين الفاقد البنين ولهذا سررت بكم بعد ما تتبعت كتابكم الذي اهديتموه لي لاني طالما انخدعت للمدعين بطريقة السلف اعتقادا وتحري السنة تفقها فاجد من اثارهم عند امعان النظر انهم ليسوا الذين اريد ولذلك وقفت النظر في كتابكم وانا معذور اذ لم يسبق بيننا تعارف ولا مذاكرة فوجدتكم والحمد لله من الضالة التي انشدها وايده كتابكم الخصوصي الذي ارسلتموه لي فجزى الله علامة العراق خيرا السيد شكري حيث دلكم على اجراء وسيلة التعارف بيننا وكذلك صديقنا الكامل السني السيد محمد نصيف في اطلاعكم على رسالتنا التوحيدية وهذا كله يظهر مصداق الحديث الشريف الارواح جنود مجندة الخ .. بقي سؤال هنا يقول قائل حيث ان الفريقين المشار اليهما في قسمي الافراط والتفريط يرون انهم على صواب ولم يتعمدوا الضلالة فلم لا يعذرون وانما الاعمال بالنيات فنقول ذلك لا يدفع عنهم المسؤلية ولا قبيح الضلالة كما صرح به قوله تعالى « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا

الشياطين اولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون » فحسبنا انهم على هدى لا يفيدهم شيئا . قال ابن جرير الطبري في تفسيره ومثله آية قل هل ننبئكم بالاخسرين الى قوله وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا . وبما كتبناه فى هذه المقالة تعرفون سبب مسرتي بتعرفي بكم وذلك واضح .

ومنها بعد كلام طويل وسطور كثيرة .

احبابنا غروكم بالعاجز فكما انه لا يقبل قدح العدو فى عدوه فكذلك لا يقبل اطراء الحب لحبيبه والذي نفسي بيده انى لخال مما تظن و يظنون بلا علم ولا عمل ولا صلاح ولا خلاص ووالله ما هو من هضم الا فاضل انفسهم تواضعا بل الانسان على نفسه بصيرة واحمق الناس من ترك يقين نفسه لظن الناس . وانا احكي لكم مقدار بضاعتي تحقيقا كانكم تروني رأي العين والله على ما نقول وكيل .

اما الاصل والسبب فلا نتعرض له كما قيل

ان الفتى من يقول ها انا ذا

ليس الفتى من يقول كان ابي

فانا قد ربيت فى معهد العلم من صغرى وقد وسع الله علينا من رزقه ما سهل به القراءة زمان التعلم والاقراء على شيوخ عديدة على اختلاف مشاربهم وتفاوت درجاتهم تفننا واخلاقا وارتحلت الى بلدان عديدة فجمعت بعض ما كان متفرقا من العلوم والحمد لله

ولكن لهو الشباب حال بيني وبين الاستكمال فى العلم والتهذيب. وايضا لا نعرف فى بلادنا المغربية الا التقليد الاعمى فقد كنا نعد الفتوى بحديث البخارى و مسلم ضلالا وكما شدد علينا شيوخنا في ذلك شددنا على تلامذنا هناك فالتاجر كما اشترى يبيع ويزيد المكسب فمن ذلك انى عند سفري الى المشرق استعار مني ابن اختي الخضر بن الحسين (١) التي لقيتموه في المدينة نيل الاوطار للشوكاني (٢) فما تركته حتى اقسم لي بالله انه لا يتبعه فيما يقول ومن ذلك انى وجدت فى عام ١٣٠٠ كتاب الروضة الندية للسيد صديق حسن خان يباع عند كتبي في مكسرة اسمه الشيخ الاخضر السنوسي العقبي فنهرته وزجرته وقلت له حرام عليك تبيع الروضة الندية فصار يعتذر بمسكنته كانه فعل خيانة . اما تصانيف ابن تيمية وابن القيم فو الله ما نظرت فيها سطرا لنفرة قلوبنا منها ومن جهل شيئا عاداه . لكن فى العاجز رائحة استمداد وشوق للدليل فلما ارتحلت الى المشرق سنة ١٣١٦ واطلعت على كتب اهل هذا الشأن باستغراق الوقت لا واشي ولا رقيب وامعنت النظر بدون تعصب فتح الله على القلب بقبول الحقيقة وعرفت سوء الغشاوة التي كانت على بصرى وتدرجت فى هذا الامر حتى صارت كتب الشوكانى

---

(١) صاحب مجلة الهداية الاسلامية بمصر

(٢) توفي سنة ١٢٥٠ وهذا الكتاب شرح لكتاب « منتقى الأخبار » لابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد طبع هذا الشرح بمصر في ثمانية مجلدات سنة ١٢٩٧

وصديق خان وشروح بلوغ المرام وما والاها اراها من أعز ما يطالع . اما كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم فمن لم يشبع ولم يروبها فهو لا يعرف العلم

ويلحق بها كتب السفاريني . وجلاء العينين للسيد نعمان وآثار ابراهيم الوزير ونحوهم ومنذ عرفت الحقائق استرذلت الحكم بلا دليل والحمد لله . « وانا لنرجو فوق ذاك مظهرا »

ومن اللطائف ان في الشهر الاول والثاني من انفتاح البصيرة التي الي في مبشرة منامية قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم »

والحاصل فما ذكرلكم من تلك المناقب لم البس منها ثوبا قط . وانما انا محب لا هلها وذاب عنهم وناصر لهم ولعله يشملني حديث (المرء مع من احب) فمن وصفني بما زاد على ذلك فقد استسمن ذا ورم • ونفخ في غير ضرم • انتهى

ان هذا الكتاب لآية ظاهرة في استجلاء حقيقة هذا الاستاذ الجليل الفكرية والقلمية • وبها نتحقق مصداق كلمة الاستاذ عبد الحميد بن باديس : « ان الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء اذا واتتها الظروف »

فرحمك الله يا ابن عزوز حيث احييت ذكر الجزائر في اقصى المشرق واظهرت للمنصفين العقلاء ان فيها قوما لو قيسوا بكثيرين

لر بوا عنهم وماهم عنها بغافلين •

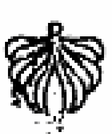
وفى الختام ان هذا الرجل احيى هذا القطر بعلمه فن الواجب على القطر ان يحي ذكره ويخلده بعد موته •

تـــدارك

قد فاتنا وتقدس من لا يفوته شيء ان نذكر في جملة مآخذ الترجمة تلك الفاتحة التي افتتح بها كتاب « السيف الرباني » وهي صورة تمثل لنا جزءا من حياة الشيخ المكي ايام وجوده بتونس. فقط واشيع بان محررها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ الحسين بن المفتي

واني اشكر كاتبها شكرا مبرورا

الجزائر ٢٧—٥—١٣٤٩ عبد الرحمان الجيلالي



بحث لغوي

هل القاف المعقدة عربية ؟

ELGUEF

للسيد صاحب الامضاء الاستاذ بمدرسة الشبيبة بالعاصمة

ذلك ما نتساءل عنه اليوم ، وذلك ما نحن بتحليله الآن كانا يعلم ان الشأن في اخذ اللغات مطلقا التقليد ولا تؤخذ لغة ما الا باذعان لقوانينها والتسليم لتعاليمها التي وضعت عليها ، ومحال بان يستطيع انسان الآن ان يخترع كان يزيد او ينقص في لغة حية او ميتة حرفا جديدا غير متعارف ولا منطوق به عند اهل تلك اللغة ، بل ما يكون الا مقلدا فيه حاكيا لما يسمعه من غيره .

اللهم الا ان يكون على سبيل احياء ما اندثر وغبر من بعض التعابير او ما تنوسي من المخارج كان يقول ان الحرف الفلاني كانت تنطق به الامة الفلانية من المخرج الفلاني فقط وحسبه ذلك ومما يحسن سوقه في هذا المقام ـ ما يروى عن ابي العلاء المعرى ، من انه كان سائرا مع لفيف من اصدقائه الادباء فتلقاهم ولد صغير لم يناهز الحلم ولم يزل يحاول التعلم بالمكتب فسال الناس عن هذه الجماعة والشيخ الاعمى ؟ فقيل له هذا ابو العلاء احمد بن عبد الله المعرى وحوله اصدقاؤه ، فاستوقفهم سائلا وقال مخاطبا للمعرى البت القائل

واني وان كنت الاخير زمانه ✿ لآت بما لم تستطعه الاوائل

فقال نعم !

فقال ذلك التلميذ الصغير ، ان لنا في العربية ثمانية وعشرين حرفا فات لنا بتاسع !

فبهت الذي افتخر

وعلى مثل هذه الحادثة مهما كانت درجتها من الصحة نؤسس قولنا ، انه غير ممكن لاي شخص كان ان يزيد او ينقص حرفا ما لاي لغة ما

وعليه فقد حان لنا ان نقول كلمتنا عن هذا الحرف — القاف المعقدة — وقد لا يتلقاها البعض بالقبول لكن عند ما يتدبرونها ويدرسونها يعلمون صدقها ويقدرون قدرها .

ان كثيرا من سادة المتأدبين ينكرون على اناس اغلبهم من سكان البادية ، النطق بحرف « القاف » وينعتونها بالبربرية بدعوى انها ليست في عداد احرف الهجاء ولا هي من العربية في شيء ، والحق انه خلاف ما يظنون ولا ما يتوهمون بل هو حرف صحيح النسبة للعربية صحيح المخرج لا شائبة للعجمة ولا لغيرها فيه بل ولا هو من العيوب المجتنبة في العربية كعنعنة تميم وكسكسة ربيعة وكشكشة هوازن وتلتلة بهراء وطمطمانية حمير ،

انما جاءنا التواتر عن العرب وخلفهم به الى اليوم وكفاك بلغة مضر الذين نزل بلسانهم التنزيل واجمع العرب وغيرهم على تقديم لغتهم على سائر قبائل عرب الجزيرة واليمن .

وقد تكلم بهذا وصرح به فيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون (٨٠٨هـ) في مقدمته المشهورة فقال « وهو - يعني به القاف المعقود - موجود للجيل اجمع - يعني به جيل العرب - حيث كانوا من غرب او شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الامم والاجيال ومختصا بهم لا يشاركهم فيها غيرهم حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها ، وعندهم انه يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبة والحضري بالنطق بهذه القاف ، ويظهر بذلك انها لغة مضر بعينها فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن ......الخ . وهم لهذا العهد اكثر الامم في المعمور واغلبهم وهم من اعقاب مضر، وسائر الجيل منهم في النطق بهذا القاف اسوة

وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك انها لغة مضر الاولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وادعى ذلك فقهاء اهل البيت وزعموا ان من قرأ في ام القرآن « اهدنا الصراط المستقيم » بغير القاف التي لهذا الجيل — القاف المعقدة — فقد لحن وافسد صلاته . الى ان قال واهل هذا الجيل رايتهم لم يستحدثوها الا انهم ابعد من مخالطة الاعاجم من اهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم انه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق اهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها

انها الخاصية التي يتميز بها العربي من المعجمين والحضرى (١)

اما مخرج هذا الحرف فهو من مخرج الكاف والجيم كما ذكره البلوى في سياق الكلام على القاف (٢) وزاد عليه صاحب اللسان ج ١١ ص ٢٨٣ بقوله « ومخرج الجيم والقاف والكاف بين عكدة اللسان وبين اللهات في أقصى الفم » والعكدة وسط اللسان اذا فبلا شك انهما يقصدان هذه القاف المعقدة لا قافنا « الحضرية » فهي محال ان تكون من مخرج الجيم او الكاف .

ومما يؤيد هذا ويزيده بيانا ووضوحا ما وقفنا عليه في الجزء الثاني ص ٦٧٥ من كتاب الفتوحات المكية لابن العربي « ٦٣٨ هـ » وهو قوله « واما القاف التي هي غير معقودة فما هي قاف خالصة ولهذا ينكرها اهل اللسان »

ولرب معترض يورد علينا مشكلة القرآن الحكيم ويقول لماذا لم يقرأ لنا الرواة والمقرؤون بهذه القاف ، فلا نستطيع ان نجيبه باكثر مما اتى به ابن العربي نفسه في الجزء والصفحة فقال « فاما شيوخنا في القراءة فانهم لا يعقدون القاف ويزعمون انهم هكذا اخذوها عن شيوخهم وشيوخهم عن شيوخهم في الاداء الى ان وصلوا الى العرب اهل ذلك اللسان وهم الصحابة الى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٥١٢

(٢) راجع كتاب الف با لابي الحجاج يوسف بن محمد البلوى احد علماء اللغة في اسبانيا توفي سنة ٥٧٩ ؟ وكتابه هذا مطبوع بمصر ١٢٨٧ والموضع الذي نحيل القارى عليه منه هو ج ٢ ص ٤٠١ .

كل ذلك اداء . واما العرب الذين لقيناهم ممن بقي على لسانه ما تغير كبنى فهم فاني رأيتهم يعقدون القاف وهكذا جميع العرب فما ادري من اين دخل على اصحابنا ببلاد المغرب ترك عقدها في القرآن » وكذلك نحن نقول فما ندري من اين دخل على شيوخنا ذلك

ولنا ادلة اخرى اذا اردنا العدل نعضد بها حجتنا ورأينا . منها ان ندخل بابا واسعا فى لغتنا العزيزة الا وهو باب القلب والابدال فنجد فيه متنفسا للاجالة والنظر ونقول انه قد ينطق بالقاف قافا والعكس ويسمى ذلك ابدا لا كما هو شائع في بابه وخصوصا لما كان كلاهما من الحروف المجهورة بل نجدهم يبدلون حتى بين المهموس والمجهور كابدالهم مثلا التاء وهي مهموسة بالطاء المجهورة فيقال ـ الاقتار والاقطار ـ وبين الجيم والكاف فيقال ـ مرير تج وير تك ـ وهذا كثير وباب واسع حتى قال فيه ابو الحسن بن الضائع [٦٨٠هـ) « قلما تجد حرفا الا وقد جاء فيه البدل ولو نادرا »

ولا جناح علينا ايضا اذا حملناه على باب آخر اي على ما ورد بوجهين فانا مندوحة اخرى فيه . ومنه قولهم الحرقلة ـ ضرب من المشي ـ والحركلة ، وعربى قح ، وكح ، قال شاعرهم

ولا اكول لكدر الكوم كد نضجت ✽ ولا اكول لباب الدار مكفول

بابدال القاف كافا .

فان صادف رأيي هذا قلوبا واعية وآذانا صاغية فسوف ينسحب

اللوم عن جماعة البادية الذين لهم الفضل علينا في استبقائهم لاستعمال هذا الحرف المهجور عندنا ويقع اذ ذاك اللوم علينا معشر الحضر ونستدل بها ايضا على وجود بقايا الجنس العربي الشريف بجهاتنا الشمالية حسبما كانوا يميزون به العربي من الهجين في عصر ابن خلدون .

ولست الزم غيري بقبول رأيي هذا ولا ادعي كل الاصابة فيه وانما اتطلب الحقيقة ارشدنا الله اليها

عبد الرحمان الجيلالي



الكتابة والكتاب

لكي تحسن الكتابة يجب عليك ان تحسن التفكير ثم التعبير فالاراء . وبعبارة اخرى يجب ان يشترك الفكر والروح والذوق فيما نكتب

ما اجتمع العقل السليم والوجدان الطاهر والمنطق الصحيح في رجل الا كتب وابدع . اما اذا اساء وازعج فلا بد ان تكون العلة اما في رأسه او في قلبه او عليه .

« السمير »

رسائل ومقالات

الامتحان المـدرسي

للاستاذ صاحب الامضاء

ايها القاريء

اني احدثك حديثا قد تتعجب منه في بادئ الامر . وقد تحمله على محامل كثيرة هي غير ما قصدت ، وقد تكون معجبا به ، ولكن هذا — ان كان — لا يكون الا بعد انتهاء الحديث .

اما الحديث فانه ايها المطالع العارف بقدر ما يترجى الناس ويتشوقون لايام الامتحان ، ويهتمون له ويترقبون نتيجته . فانا غير مكترث به ولا ملتفت اليه ، بل ولا جاعل له ادنى أهمية . واقول صراحة انه لا يعجبني

لكن لا على اطلاقه . ونعني به تلك الكيفية المستعملة المتعارفة بين جميع المدارس ، والا فانا محال بان اهجو الامتحان من اصله ولا بد ان لهذا القول سببا وداعيا عظيما . لكن ربما اكون مجازفا في اطلاقي لهذه الجمل والعبارات الغليظة عند قوم وربما اكون معذورا ومقبول الرأي فيه بعد ما ساشرح الموضوع واستوفيه عند آخرين .

ايها القاريء . ان الوجه الذي جعلني اقول هذه الكلمات عن الامتحان المدرسي . هو اني اراه غير دال دلالة صادقة على ما هي

عليه حالة الطالب او التلميذ . ولا كاشف عن حقيقة معلوماته .

ولا معرب عن تقاعسه أواجتهاده أصلا .

ودونكم التفصيل .

لا يخفى عليك ايها الاديب ان التلميذ الصغير بهذه المدارس مهما كانت نزعته ومهما رقت افكاره فانه لا يعتبر اوقات التعلم الا اوقات تعب وعناء ، ومضض وشقاء ، فهو ان كان بصدد الدرس لا يكون الا متكلفا له مترقبا لساعة الراحة واللعب مشغول البال والفكر وخصوصا وقتما يكون المعلم آخذا في تحليل الدرس وشرحه ، وتارة يحضر فكره ويستجمع قواه . ففي هذه اللحظة يكون التلميذ واعيا لما يسمعه من معلمه وتارة يكون التلميذ ممن تستهويهم كثرة الالعاب حتى تملك عليهم سائر حواسهم فيقضون السنة المدرسية كلها فيما تشتهيه أنفسهم حتى ما اذا قرب وقت الامتحان رجعوا الى الاجتهاد والحرص . وقد يكون فيهم الموسر فيعمد الى استاذ خاص فيحشو فكره بما عنده من المعلومات حشوا . فاذا جاء يوم الامتحان قد يساعده الحظ ويختبر على سبيل الصدفة فيما وعاه في تلك الايام الاخيرة فيجيب عنها في غاية الاجادة ويستحضر الموضوع من سائر اطرافه فيحرز على الشهادة المدرسية بصفة ممتازة على زملائه . وهو في الحقيقة اذا جئنا نبحث عنه نجده صفرا خاليا . وانما خدمه حظه وبخته لا علمه واجتهاده وعما قليل تصبح تلك

المعلومات الحديثة راحلة ويبقي سيدي المجاز عضوا اشل لا يستطيع ان يفيد او يستفيد

وقد يكون الطالب مجدا مجتهدا في دروسه عاملا باوامر استاذه ومهما يجيء وقت الامتحان فيسال عن مسائل قد لا يجيب عنها لامر ما فيرسب ويسقط في الامتحان مع انه متقن لكثيرات من غيرها محسن للجواب فيها دارس لحقائقها ودقائقها . أضف الى ذلك هول الموقف وهيبته وخصوصا على من لم يتعهده فانه يكون عليه اضيق من عقدة التسعين . وفيهم كذلك من يكونون عارفين متهيئين حاضرين للجواب والسؤال ، ومهما ازف وحان وقت الامتحان والاختبار خانتهم ذاكرتهم وعدمهم الحفظ فيسقطون ايضا كان لم يتعلموا شيئا ولم يحضروا درسا

وهذا امر يقر به كل من مارس التعليم وخدمه ولا يستطيع ان يكابر فيه احد فمن هذه الحيثيات ايها القاريء الكريم كنت غير مستحسن للامتحان في معرفة مقدرة الطلبة والتلاميذ وفي كنه حقائقهم العلمية ، وهو عندي بهذه الكيفية لا يغني من الحق شيئا ، فساعة يعطي شهادته لغير المستحق وتارة يبخل بها على المستحق ويغبنه ، ولا ننكر اصابته في بعض الاحيان ،

اذا فيجب علينا معشر المعلمين ان نلغي هذا الامتحان المتداول ونركب طرقا اخرى وهي عندي اجدى منه واجدر وموصلة للمقصود بغاية الدقة والسهولة ،

ولا نكون في ذلك قد اتينا ببدعة مستحدثة لم يسبقنا اليها أحد ، فان المدارس في المانيا قد الغت نظام هذه الامتحانات كما اخبرت بذلك مجلة الهلال في الجزء التاسع من هذه السنة . ما عدا بعض الكليات الكبرى ككلية الحقوق والطب وعليه فان الطريق الاقوم التي اراها مجدية جيدة واحق بالدلالة الواضحة على مقدرة التلميذ وعلمه . هو ان نجعل اختبارا كتابيا وشفاهيا لكل درس تقدم لسائر طبقات الابناء المتعلمين في كل اسبوعين ويعطى لكل تلميذ رقم او عدد بحسب مجهوداته في تلك الدروس وهكذا الى أو اخر السنة فيتعهدهم الاساتذة بامتحان على سبيل التذكير اذ التعويل على الارقام . ويعين باتفاق لجنة الامتحان رقم درجة الفوز ويأخذ الطلبة بعد ذلك شهاداتهم . وهكذا ينبغي ان يعمل ايضا لمن ينتقلون من فصل الى فصل ومن طبقة الى طبقة . فبذلك يكون الاساتذة على ثقة من الطالب وفي راحة من امرهم واطمئنان :

بقي علينا شيئان آخران لابد من النظر فيهما وهما في الواقع مشكلة يجب على كل مفكر حلها والاعتناء بامرهما وعدم التهاون بها . وذلك لانها اساس كل مصلحة وقاعدة كل نتيجة ونجاح

أولا . تعيين الغرض من التعلم وتحديد المقصد منه

ثانيا . حصر اعوام الدراسة

وذلك لان الطالب لا يخلو من احد امور ثلاثة اما ان

يكون غرضه خدمة المساجد او خدمة القضاء الاسلامى او الكسب
بانواع التجارة وغيرها .

فانه يجب تقسيم اساليب الدراسة بحسبها . فالمسجدي ينبغي
ان يعتني به في حفظ القرآن مثلا حفظا جيدا وتعطي له دروس فى
قسم العبادات من الفقه والتوحيد وشيء من النحو والتصريف بقدر ما يستطيع
فهم مسائله الفقهية . والقضاءي بحسبه والكاسب بحسبه وقد دار
الحديث بيني وبين الاستاذ عبد الحميد بن باديس فى هذا الموضوع
حينما زرته في مصيفه بضواحي العاصمة في الشهر الماضى فوجدته
مؤيدا ومؤازرا لى على هذا الرأي بل هو احرص الناس على تنجيزه
وهذا امر لا مناص منه ، والا فلا تظهر النتيجة في الجميع .
فمحال بان يستطيع طالب الدخول للمدارس الحكومية كالثعالبية مثلا
ان يصبر حتى يحفظ القرءان ويرسمه او حتى يستوفى احكام
العبادات باصولها وفروعها فان صبر فاته الوقت مع اشتغاله يومئذ
بالمكاتب الفرنسية ودروسها والاخر آن مثله .

واخيرا ادع جميع ارباب هذه المدارس الحرة واصحاب الرياسة
عليها ان يقاسمونا فى حمل عبء هذا الحمل الثقيل ويشاركونا فى التفكير
فيه والى اخواني السادة المعلمين انهى فكرتي هذه ولهم اعمال
رأيهم وتحكيم فكرتهم فانهم لا شك مهتمون مثلى بمهنة التعليم
ومكبرون لامرها ومعظمون لشانها وهم محل النظر في مثل هذه
المهمات التي هى في الحقيقة تعم جميع ابناء الوطن من جهة وتخصهم

من جهات شتى فاعيروها يامعشر الاساتذة وقتا من الزمن وجزءا من العمر والله في عون العبد المومن ما دام العبد في عون اخيه .

عبد الرحمن الجيلالي

موقف الناخبين

تجاه فوضى الانتخابات

لكاتب كبير

ان المعارك الانتخابية التي تدور رحاها في كل امة بين آونة واخرى وليدة الديموقراطية الحديثة ، ولذلك نرى فرقا استطلاعية من مهرة الكتاب يشحذون اقلامهم ، وجيوشا من الخطباء المشهورين يرسمون خطة الهجوم والدفاع ، ورديفا من ذوى الثراء يفتحون خزائنهم للبذل . فالاولون لا يفتاون ينفثون باقلامهم ما يريدون نفثه في افئدة الجمهور ، والاخرون لا يبرحون يكهربون عقول الناس بسحر بيانهم وذلاقة السنتهم ، والاخيرون لا يالون جهدا في الاستيلاء على الكل بفئات من الاوراق المالية ذوات الالف .

وهذا بعض تلك العدد العتيدة التي تستخدم عند ما تشب نيران الحرب الانتخابية ويحمى وطيسها ، ومع كل هذا فجميع هذه المناورات التي لا مندوحة عنها لشعب يستمد سلطته ورقيه من المجموع لا تبضي الى حد تتمكن فيه الاحقاد من نفوس الافراد والجماعات

المباحثة والمناظرة

كتاب الجزائر تجاه النقد

للاستاذ صاحب الامضاء

لا معنى للفظ الامة ، ولا لكلمة القومية او الوطنية يدرك عند المفكرين في سائر اقسام الدنيا الخمسة ، ولا يشعرون بروح واحدة من هذه الكلمات ما لم يكن بين ايديهم شيء محسوس مشاهد ملموس ينجلى فيه احد مظاهر هذه الالفاظ ، فيصح حينئذ جعله اساسا للحكم بوجود امة هناك او قومية او وطنية .

ولنأخذ في هذا مثالا منا نحن الامة الجزائرية . قضينا دهرا طويلا فوق هذا الاديم وفي هذا القطر السعيد احياء نرزق ، وكثير من الامم المترقية المجاورة لنا فضلا عن النائية البعيدة عنا ، لا تعلم عن حالتنا الحيوية شيئا يذكر ، وكثير من يجهل وضعيتنا وجغرافيتنا الاقتصادية والطبيعية ايضا ، بل نجد ذلك حتى في ابناء الوطن المفدى ،

ما هو السبب فيهذا ياترى ؟

الاسباب كثيرة ولكن لا استطيع يا اخي ان احل لك رمزا واحدا منها غير شيء واحد لا استطيع كتمانه . واحدثك في أذنك مهمسا به قائلا ، موت الشعور النفساني وفقدان الاحساس الروحي الناشيء في الافراد كلهم

ولا يعقل ان ناسا يجهلون حقيقة انفسهم ويجهلون كل شيء يتعلق بهم . فتقوم امة اخرى بعيدة عنهم في الجنس وبعيدة عنهم في اللغة وفي كل شيء . فتعرفهم ، اللهم الا ان تكون لهذه حاجة بهم وهو من قبيل « يضربني بحجارتي » وهو اشد السلاح وقعا بالقلوب

لم نر فيما بين خلال قرن كامل — مائة سنة — من جاء يحدثنا بتاريخنا الذي هو المرآة الوحيدة التي نبصر فيها حياة ماضينا الغابر ، وترينا كيف يجب ان نسلك في مستقبلنا ويومنا الحاضر ؛ لم نر فيما بين من تنتفخ اوداجهم عند ما يسمعون اطلاق لقب العلامة او الاستاذ عليهم جاءنا يوما بذكرى نتذكر بها ءاباءنا الاولين ، اجدادنا السالفين

اولئك الرجال الذين تملذت لهم قارة اروبا كاملة . اولئك الذين كانوا نبراس العالم الغربي الذي هو يسير عليه الان ، اولئك العرب الفاتحون الذين ملكوا في ربع قرن نصف كرة العالم او كادوا . اولئك الذين بزغ من عندهم التمدن ايام كان الغرب كله في ظلمات بعضها فوق بعض ؛

أمثل هؤلاء القوم يهملون ويتركون سدى ؟! بينما نحن نشاهد في كل وقت وآن وبكل مصر من انهج البلدان حفلات وذكريات واسماء وتآليف منشورة لاحياء ذكر ابطالهم وبقائهم ؛ فكيف نهمل رجالنا وبلادنا فلا نعرف عنهم شيئا ام خلقنا من

غير شيء او بلا شيء ؟ ذلك ما لا يتوقف في سلبه كل انسان ؛ اذا ما قعد بنا الى الان عن العلم ما ذا يعوزنا في التقدم للبحث عن تراث اسلافنا البررة

تعوزنا العزيمة ، يعوزنا الثبات ، تعوزنا المادة التي ينبني عليها العمل ! ولا نذهب في شرح المادة بعيدا ؛ بل نتركها لذهن القاريء ليعمل فيها فكره ، علمنا ضعفنا وعلمنا بعض اسباب خمولنا وقعودنا وعلمنا اسباب جهلنا وتحققنا هذا كله ، وبالرغم عن هذه الظروف المحدقة بنا ، طلع على الامة الجزائرية ما يعرفها بما تجهله ويطلعها على ما تترقبه ؛ بسفر جليل متكفل بكل ما يحتاجه المسلم الجزائري في دور حياته من تاريخ امسه ويومه ؛

هذا السفر الذي اخرجه لنا في ثوبه القشيب الاستاذ النابغة الاخ احمد توفيق المدني كاتب القطرين، فتلقته هذه الامة المسكينة وتحملت نفقة طبعه لتكشف الغطاء والحجب المتكاثفة عن نفسها لنفسها اولا ، ولمن يحب ان يتعرف بها ثانيا ؛ فظفرت ببغيتها والحمد لله واصبحت امة قائمة تعرف رتبة تاريخها بين الامم ولها مجدها التالد الخالد ، بعد ان كانت جاهلة مجهولة في نظر الغير ،

ولشدة غرامنا بكتاب الجزائر هذا وهبنا له وقتا من حياتنا الثمينة وصرفنا كل ما يشغلنا عن مطالعته ومراجعته والوقوف على مخبئاته . فتصفحناه اولا ثم اعدناه ثانيا بتثبت فبدت لنا ملاحظات فيه فاغضينا عنها وقلنا لعلنا نتداركها في وقت غير هذا واذا بجريدة

ـ النور ـ تحمل لنا مقالا عن هذا الكتاب تحت عنوان « نظرة في كتاب الجزائر » عدد ٢٢ يشتمل على سبعة مواد ناقش فيها الكاتب المؤلف وانتقده فيهـا . فاطمانت النفس حينئذ الى الرجوع عن رأيها الاول والى لاتساء بصاحب النظرة هذه واظهار ما بدى لها في الكتاب .

وقبل ان نبدي ملاحظاتنا نقدم مقدمة وجيزة عن فن النـقد وتاريخه لنعلم بعد ان لا رائد بحق لكل حركـة علمية ادبية او اجتماعية مثل — النقد — ولا يتبادر الى ذهنك ايها القاريء الكريم ذلك المعنى السيء الذي كسا به هذا الفن الجميـل واصطبغه به اولئك الذين لا خلاق لهم الا تغيير الحقائق وقلبها

واذا شئت الوقوف عن هذه الحقائـق مجردة فلك ان تسعفني وتصحبني وتعيرني سمعك وبصرك حتى ناتي على آخر هذا الفصل فترجع مزودا طروبا

النقد غريزي ومفطور فى النفوس ، وطبع مركوز فيها ولم تكن له فى العصور المتقدمة قواعد واركان مقررة محدودة ولم يكن فنا مستقلا يدرس وعلما يقرأ ، ولم يكن له التعريف الذي يعرف به الان ، ولا يراد به من المعنى المقصود فى هذا الزمان ، وانما كان لكل امرء ما شاء من القول وشاء له غرضه النفساني وهواه ، ونجد كثيرا من المماحكات اللفظية والمناقشات الفارغة وهي لا تتجاوز فى الغالب ذكر عيوب القافية والسرقات الشعرية وما شاكلها بدعونها

نقدا وليست هي من النقد الصحيح في شيء ؛ ذلك لعدم تنظيم النقد وتبويبه في تلك العصور السالفة ؛ وتراهم يصوبون سهامهم هذه للمعدمين أو سيئي البخت في هذه الحياة واسا ارباب الجاه والسلطان فانهم يعتذرون عليهم بمثل قولهم قد يقع الخاطر على الخاطر .. . ولكل عالم هفوة .. الخ ...

نعم نحن لا ننكر بعض ما جادت به قرائح الا فذاذ من اسلافنا الكتاب في هذا الفن كابي قتيبة والحسن بن الاثير والامدي ، وابن خلدون ، والقاضي ابي الحسن صاحب الوساطة وابن رشيق ، لكن هؤلاء لم يقرروا النقد على بابه ولم يفردوا له التاليف وانما هم الموا ببعض جهاته واجادوا فيها

ولا علينا في العصور والامم الاخرى القديمة مثل اليونان والرمان ، فان النقد كان عندهم موجودا من عصر الفيلسوف ارسطو وهو يعد في اولة واضعي الفن ولا يخفي كيف يكون حال من يبتدأ الشيء ويضع حجره الاساسي ؛ ولا بالعصور المتوسطة فان النقد كاد يضمحل فيها ويتلاشى من الوجود بسبب قلة اعتناء اهله به واهمالهم له ، لولا ان جاء فيهم العلامتان . دانت — وبيترارك فزادوا في تمكن الفن بمؤلفاتهما ما حفظ كيانه لجيل العلماء المقبلين من اهل القرون الحديثة :

وكان قد احب هؤلاء ايضا البقاء على جهالة منه وعدم المبالات به ؛ او ما كان السبب في بعث نفوسهم الى النقل اضطرارهم للبحث

عن علومهم الادبية حيث انها تنوسيت وجهلت ؛

ولقد ابتدأ النقد عندهم يزهو ويفتخر بحلله الموشية منذ نيف وثلاثة قرون الى اوائل القرن التاسع عشر فاستحكم امره ؛ ونبغ فيما بين هذه القرون العلماء الذين تخصصوا فيه منهم العالم كوزان ، وسانت بيف وهذا لم يكتف بنقد ما احتوت عليه السطور وما تضمنته من المعاني فحسب بل تعمق في البحث عن نفسيات الكاتب وعن خفايا اخلاقه وعما انطوت عليه سريرته مما كان لا يظنها تكشف لقرائه ؛

ومن ثم تحول علم النقد الى ما هو عليه الان من كونه الادات الوحيدة والنقطة المركزية التي يدور عليها محور العلم الصحيح . وهو الوسيلة الصادقة المكشف عن الحقيقة المجردة . ولا ينبغي لمن اكتسب هذه الميزة فى علم الانتقاد ان يسخرها في خدمة اغراضه الشخصية كان يبحث في نقده ، عن العثرات والهفوات ويسعى في نشرها بين طبقات الناس وعلى صفحات التاريخ لقصد سيء دون ان يراعي حسنات المنتقد وفضائله مثل صنيع الخفاجي (١٠٦٩) ه في كتابه الذى سماه شرحا لدرة الغواص (للحريري) فكانما بينهما دماء تجري واثار ، وهذا لا يسمى منتقدا وانما هو اقرب للحسود الحقود ؛ وكذلك العكس مثل ما يصنعه اصحاب الشروح والحواشي العلمية في توجيه كلام المصنف وحمله على محامل قد لا تكاد تستقر مع الصواب في شيء وانما هم فى ذلك يلتمسون

معاذر لهم ابتغاء بركتهم ؛ ولا عليهم فيما يعانيه الطالب من الاتعاب الشاقة وما يصرفه من عمره القصير في تحمل اعباءهم الثقيلة ولا يدرون انهم بذلك يسعون فى تجهيم محيا العلم وتنفير المتعلم منه

ومثل هذا بعض الفصول التي تراها فى الصحف السيارة عن المنشورات يسمونها نقدا . وفي الغالب لا يرجع مغزاها ومضمونها الا لمثل قولهم « ان هذا الكتاب نافع مفيد جدا حسن الطبع جيد الورق صقيله ونتمنى له كامل الرواج والانتشار ونحث القراء على اقتنائه » !

هذا هو الغرور او التغرير والتضليل بعينه وانه لعمر الحق للمون يجب تنكبه وتركه جانبا فان المسؤولية عليه امام التاريخ والعلم عظيمة

وان الفضل الكبير في تطبيق فن النقد الصحيح على الاداب العربية ورد سائر العلوم التاريخية والطبيعية اليه فى اوائل هذا القرن على النمط المقرر الحديث . من ابناء العروبة يرجع الى الاستاذ محمد عبده في الجريدة الرسمية وفى رده على هانوتو ، والافغاني في رده على الدهريين ، واحمد فارس الشدياق في جاسوسه . والدكتور يعقوب صروف فى مقتطفه ، وابراهيم اليازجي فى ضيائه .

وقبل ان ينتشر فن النقد ويعلن بين العلوم باستقلاله وانه الفن الجميل الذي يحب الصدق والامانة والاخلاص فى كل الاعمال ، كان الناس يستنكفون ممن ينتقدهم ويعدون ذلك حطا

من كرامتهم واهانة لشرف معلوماتهم او مؤلفاتهم . فكانما يعتقدون العصمة في نفوسهم او الحفظ التام عن الخطا فى جميع اقوالهم وافعالهم وما غلطة واحدة او غلطات من انسان تذهب مجده . اوفى كتاب تذهب فضله .

ولا ريب ان الاستاذ توفيق يعلم مزايا الانتقاد هذه ويتحقق فائدتها العامة ، فيتقبل منا مناقشاتنا معه فى — كتاب الجزائر — احسن قبول ، ولا اظنه يكون من هؤلاء القوم الذين يزكون انفسهم ويرونها وراء او فوق ما اقرته قوانين البحث واساليب العلم والتأليف بل « تعالى عن ذلك علوا كبيرا » :

المادة الاولى (١) ننتقد عليه فيها شدة ايجازه لتاريخ الدول الاسلامية بالجزائر والحكم بها ، ويا ليته توسع هنا قليلا واختصر هنالك لما ان الكتاب كما قال (تاريخ الجزائر الى يومنا هذا)

(٢) لم نر الدولة الحفصية بين مصاف الدول المالكة لهذا القطر وهي من الدول الجزائرية الاسلامية ولا يخفي حضرته انها طالما حكمت البلاد ، واخضعت العباد ، ولقد استقلت هذه الدولة ايام السلطان ابي فارس عبد العزيز وجعلت تحتها بلد قسنطينة وتارة بجاية في عهد الامير ابي العباس وابي اسحق سنة ٦٧٧ وابي زكرياء الحفصي سنة ٦٨٤ . وليراجع في ذلك تاريخ هذه الدولة

في كتاب الفارسية تاليف ابن قنفوذ القسنطيني (١) وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي طبع بتونس ١٢٨٩هـ وكانت عاصمة ملك هذه الدولة ودولاب حركتها تونس . وبما ان هذا القطر دخل مرارا تحت حمايتها وحكمها كان من الواجب ان يفرد لها فصل فيما بين الدول التي تداولت عليه ؛ وانما ذكر المؤلف في صفحة ١٩٧ وصفحة ٢٣٢ لا يكفي في حقها ولا يفي بالمراد

(٣) اطلق المؤلف على بعض الحكومات الاسلامية لقب (الدولة) وبعضها لقب (الادارة) كالاغالبة والفاطميين والموحدين . فما رعى في ذلك . استصغارا منه لهذه الدول التى امتلكت مصر والشام . ام هنالك شيء آخر ؟

(٤) كان عليه ان يشرح اسم عاصمة الوطن الجزائري القديم «ايكسيوم» — بكسر الهمزة وضم الكاف وسكون السين — لشدة مساسه وعلاقته الاكيدة بتاريخ العاصمة ؛ مثل ما شرح بعده الاسم القديم لقسنطينة «سيرتا» . وذلك لانه يفيدنا بمادته اللغوية معرفة الجنس الذي اختط هذا البلد . فنعلم انه اليونان ؛ وبمعناه نستكشف عدد القوم الذين اسسوا البلد وشادوا بنيانه وهم عشرون

---

(١) هو ابو العباس احمد بن الحسن ولد سنة ٧٤١ علامة في العلوم الاسلامية ، تولى قضاء وافتاء قسنطينة وتوفي في ١٩ ربيع الاول سنة ٨٠٩ هـ وكتابه هذا الفه للامير ابي فارس عبد العزيز المريني . ولقد استوفى فيه تاريخ دولة بني حفص من سنة ٤٩١ الى ٨٠٥ ومنه نسخة بدير الاسكوريال — سبانيا — وطبع على الحجر طبعة ناقصة بباريس سنة ١٢٦٣ هـ

نفرا كما يفيده لفظ « ايكوسي » وهم من اصحاب هرقول الليبي ؛ ولما جاء الرومان واستولى على الوطن كله حرفوا هذه اللفظة وسبكوها فى قالب لاتيني فصارت « ايكسيوم » ؛

[٥] ذكر فى الفصل الذي عقده للآثار عاصمة الجزائر الاسلامية الجامع الكبير ووصفه بالعتيق ؛ والذي هو شائع ومعروف بالتواتر عن عامة الاهالي وخاصة العلماء منهم شيخنا الدكتور محمد ابن ابي شنب (فى مقالة له نشرت بالتقويم الجزائري) ان العتيق هو مسجد سيدي رمضان الكائن بالجبل ، وهكذا عن امام المسجد الشيخ ابي يعلى

(٦) يقول فى تاريخ تاسيس الجامع الجديد بالعاصمة انه كان سنة ١٦٦٠م وهو لا يوافق الواقع من التاريخ الهجري الذي هو مزبور ومنقوش بجدار قبلته من عهد البناء سنة ١٠٧٠هـ بل نجده يطابق تماما سنة ١٦٥٩ مسيحية

(٧) يقول المؤلف في صفحة ٢٢ ان الدولة الرستمية دامت ١٣٦ عاما ؛ والذي نراه في معتمد كتب التاريخ والجغرافيا انها لم تتجاوز المائة والثلاثين عاما فقط .

راجع كتاب المسالك والممالك للبكري ص٦٨ وهو عندي من اوثق المصادر التاريخية

(٨) عزى المؤلف تاسيس البليدة لسيدي احمد الكبير باعانة مهاجري الاندلس في سنة ١٥٥٣م بينما نراه يؤرخ وفاة هذا

الرجل بسنة ١٥٥٠ من الصفحة نفسها فما هذا الاضطراب ؟

(٩) تكلم المؤلف عن تاريخ الصحافة العربية بهذا القطر وعدد ما يصدر فيه من الجرائد والمجلات العربية ، اليوم وقبل اليوم ، واغفل مجلة « افريقية » التي كانت تصدر بالعاصمة تحت ادارة مؤسسها المستشرق « بودي لوي » سنة ١٩١٩م ١٣٣٧ھ كما انه غفل عن ذكر بلد جريدة صدى الصحراء — بسكرة —

(١٠) انتقد المؤلف في صفحة ٣٦٥ على اصحاب فن الموسيقى اليوم فى ادخالهم الالة المعروفة « قيتارة » وشرحها بقوله ـ السنيترة ـ وفى الحقيقة ان هذا اللوم لا يرجع الى هؤلاء الناس بل يرجع الى اول من عرف هذه الالة بثلاثة عشر قرنا قبل المسيح . وقد عرفها العرب قديما وتغنوا بها ، وممن اشتهر باجادة التوقيع عليها الجمال البستي خطيب جامع التوبة بدمشق على عهد الملك الاشرف

وليست القيتارة ايضا هى السنيترة ؛ فان الاولى يركب عليها اثني عشر وترا والثانية ثمانية فقط وهما مختلفان وضعا كما انهما يختلفان طبعا في ترتيب الاوتار والاصوات والاستعمال

«١١» علق فى صفحة ٢٥٩ على لفظ « الكركات » بقوله وهذه الكلمة تحريف الحرقات ؛ والحالة انها من لغة دولة مستقلة هى التركية فمن اين جاءها التحريف . ؟ اللهم الا ان يكون الترك اخذوها

عن العربية وحرفوها فسلم (١)

(١٢) ارخ في صفحة ٩٥ وفاة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي سنة ١٣٢٥ والصحيح انه حوالى سنة ١٣٣٨

(١٣) اهمل المؤلف فى قليل من المواضع تعيين التاريخ الهجري من المسيحي ، وقد يحدث بسبب ذلك اضطراب للمطالع فلايدري ايهما ياخذ ؛ ومن ذلك مثلا قوله في تاريخ بلدة « القرارة » صفحة ٢٢٧ انها تاسست فى اواسط القرن الحادي عشر ؟

(١٤) كان عليه ان يبين الاصل في وضع بعض المسميات كاسم « سور الغزلان » مثلا فينبه على معنى الاضافة الحقيق فيه وانه كان من قبل يدعى « أوززا » بضم الهمزة وسكون الراء وفتح الزاي — وهو اسم لاتيني ولما جاء العرب قالوا « سوراوزرا » ثم حرفته العامة الى ما هو عليه الان ،

«١٥» نرى فى صفحة ٢٤٦ تاريخ تاسيس مدينة وهران سنة ٩٠٢ هجري ، والذى نعلمه عن البكرى واضرابه انها تاسست على يد محمد بن عبدون ومحمد ابن ابي عون وجماعة من الاندلسيين سنة ٢٩٠ هجرى ؛ وقد حسبت ان هذا الخطا فى الارقام الحسابية انما هو راجع الى الخطا المطبعي الذى لا يخلو منه كتاب فراجعت صحيفة الخطا والصواب فلم اجده فيها

---

(١) راجع تحقيق معنى الكلمة في معجم « الالفاظ التركية والفارسية المستعملة فى لغة الجزائريين » تأليف ابن ابي شنب صفحة ٧٤ طبع الجزائر ١٩٢٢

«١٦» تمنينا على المؤلف ان لو عقد فصلا فى اول الكتاب او آخره لذكر المصادر والامهات التي استقى منها حتى لا يتوقف مريد التوسع في ذلك على حد ما قيل

ونص الحديث الى اهله ❀ فان الوثيقة فى نصه

وهذا الاسلوب هو الذى جرى عليه العمل عند اغلب المؤلفين والناشرين من عرب وعجم، وهو كما لا يخفي حضرته من آكد الاكيد على المؤلفين وعلى المؤرخين خصوصا ؛

الجزائر ١٠—١٢—١٣٥٠ عبد الرحمن الجيلالي

للحقيقـه

جواب مقبول

كنا نشرنا في جزء شوال الماضي ملاحظة على الاخ الاديب السيد محمد ابن مصطفى المعتمري المحامي بسوسة فاجاب عنها برصيفتنا جريدة «الوزير» الراقية فنقلنا جوابه فيما يلي شاكرين له ادبه ولطفه ومعترفين له بفضله قال :

اما ملاحظة العلامة صاحب مجلة «الشهاب» الغراء التى تصدر بمدينة قسنطينة من ان ما كتبته هو شرح لما قاله ابن العربي فى كتاب العواصم السابق لهذه الفكرة دون ان انسبها اليه الخ .

فاقول مهلا ايها الاخ فاني اقسم بالله ما عرفت هذا الكتاب ولا قرائه ولا سمعت به ولا طرقت مسامعي فكرة ابن العربي المذكور

لعجز، ولا لجهل بين الحقيقة والصواب، بل للتمسك بقوله تعالى
فى الكتاب المبين خذ العفو، وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين.
فياسادتي، ويامسرتي لويتنا ولها عالم بيد الحقيقة والانصاف،
لا بيد العصبية والاعتساف (وما اكثر هذا الثاني بهذا القطر
المسكين) ولا حيلة تنجى من شره الا المرور عليه مر الكرام.
والقول سلاما سلاما والحمد لله في البدء والختام.

عمر بن البسكري مدرسة الاخاء

اخطار الخمر!

(القي الاستاذ صاحب الامضاء هذه المحاضرة منذ اشهر فرأينا نشرها لعموم الحاجة الى ما فيها في كل وقت)

سادتي

قبل ان اباشر الكلام فى الموضوع. وقبل ان انبس ببنت شفة فى المقصود، اقدم لكم كلمة موجزة، وقلت موجزة حيث انه لا يسعني الوقت للاطناب فيها.

وارى هذه الكلمة واجبة علي محتمة كفرض لازم: الا وهي.
الاعتراف المقرون بالاعجاب والاكبار مما قام به اعضاء هذا النادي الحافل من الجهود المتتابعة فى تاسيسه، والاعمال الجليلة التي بذلها جماعته النبلاء فى شد دعائمه واشادة اركانه. ولعمري انه لعمل جليل ومشروع عظيم

واني شخصيا وباسم الجمعية الاسلامية لمقاومة الكحول اثنى على اهالي البليدة عموما وعلى رئيس نادى النهضة هذا واعضائه المحترمين خصوصا . ثناء معجب ومقدر لهذا العمل المبرور حق قدره ؛

واني اتخيل لا . بل اتيقن بانه سيقيض الله رجلا او رجالا فى مستقبل الدهر لتدوين تاريخ هذه الحركة المباركة وسيجدون مادة غزيرة لهذا . وسيخلدها التاريخ على صفحاته الذهبية . وفي طالعها امثال هذا النادي المعمور

واني وراء هذا ارجو من القوم ان يجعلوا دائما شعارهم « الاتحاد » فبالاتحاد نبلغ المراد . وبالاتحاد تسعد البلاد ، وبالاتحاد يفلح العباد .

وكما اتمنى لهذا النادي الكريم حسن مستقبل وزيادة اقبال اخواني ؛ اذا جئنا نبحث عن الكحول ومصائبه اتسع في وجهنا الموضوع وتعددت الحاجة وتكاثرت النواحي فى ذلك ، وعليه فاني اختصر لكم الكلام واحصره فى نقط ثلاث ، ناحية الدين ، ناحية الصحة والعقل ناحية الاجتماع . ومصادرنا فى هذا هي

ا تفسير المنار

ب تفسير الجواهر

ج محاضرة الاستاذ احمد علوش فى الخمر « مجلة الشبان المسلمين رجب ١٣٥١

د تقويم الهلال ١٩٣٢ !

الناحية الدينية : سـادتي . قال دكارط انما الخمرة لص يدخل من فمك ليسترق منك عقلك . هذه جملة بسيطة من كلام عظماء الاربايين الذين تـنبهوا الى خطر الخمر الداهم والشر المستطير فتسارعوا الى تشكيل الجمعيات وتاليف الروابط والمؤلفات وكل ذلك لمقاومة انواع المسكرات الفتاكة . وفعلوا كل ما فعلوا تلبية لاصوات ضمائرهم . وما توحيه اليهم عقولهم ؛ كيف ونحن الذين منحنا هداية لا اعظم منها هداية هداية القرءان الحكيم والعقل السليم . معرضون عن الهداية الاسلامية وهى تنادي منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف للتي هى اقوم . وبالتي هى احسن هلموا اليها هلموا .

اتعلمون ايها القوم كمية الاعضاء العاملين للجمعية المانعة للكحول وكم بلغ عددهم في اوروبا ؟ . بلغوا الى ثمانمائة الف نسمة ! وهذا قبل اعلان واشهار جميتهم . ثم ظهرت الجمعية فالتفوا حولها عاملين . ونجحت في عملها . وقد بلغ عدد مؤازريها والمشتركين فيها فى سنتها الاولى خمسة واربعين مليونا ! وكان كل هذا قبل ان ننتبه نحن اليوم . وقبل ان تكون لنا الكلمة فى معالجة هذا الموضوع . ولا يخفي عليكم ما عملته دولة اميركا في بلادها من تحريم الخمور بسائر انواعها تحريما تاما . حتى ان ولي العهد لبلاد السويد اقسم بان لا يشرب الخمر طول حياته . ومع ذلك هم يرتزقون ويربحون فى الاتجار بها الالوف من الدنانير فى كل عام ولكنهم امام المصلحة العامة لم ينظروا الى هذه الارباح وسموا بكل

جهودهم فى ابطالها واصدار القوانين الصارمة بتحريمها وقد صدرت هذه القوانين كلها بتشريع نواب الامة الذين هم ينطقون بلسان منتخبيهم لا بلسان مجالسيهم . وصار ذلك عندهم امرا اعتياديا مستفيضا (١)

يا لله للمسلمين ! انظروا ايها القوم الى عمل هذه الامة المتمدنة بمدنية واحدة فقط « مدنية الانسانية » كيف سبقت في عملها هذا امم الارض الاخرى وسبقتنا نحن بالاخص امة القرآن الى هذه المزية وهذه الفضيلة التي طالما اكد بها علينا ديننا الحنيف في غير ما اية وحديث

قال الله تعالى « يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس الآية . وروى ابن ماجه عن ابي هريرة يحدث عن النبي (ص) انه قال « مدمن الخمر كعابد وثن » وروى الطبراني عن النبي (ص) قال « الخمر ام الفواحش واكبر الكبائر ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على امه وخالته » وروى اصحاب السنن الخمس الا الترمذي من حديث ابن عمر ان النبي (ص) قال من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها فى الاخرة . وفي رواية وان دخل الجنة وروى ابوداوود وابن ماجه عن ابن عمر . والترمذي

(١) ش : واذا كانت اميركا اليوم قد تراجعت بعض التراجع الى اباحة الكحول فما ذلك الا لقوة الروح المادية المسيطرة على الغرب في جميع مناتيه

وابن ماجه ايضا من حديث الس « لعن رسول الله (ص) فى الخمر عشرة . عاصرها . ومعتصرها . وشاربـها وحاملها والمحمولة اليه . وساقيها . وبائعها . وآكل ثمنها . والمشترى لها . والمشترى له . »
وروى ابو داوود والنساءي وغيرهما من حديث علي كرم الله وجهه ان رسول الله (ص) نهاهم عن (الجعة) والخمة خمر الشعير وهي ما تسمى عند الافرنج « بيرا »

واذا نظرنا الى ضرر الخمر في الدين من حيث روحه ووجهة العبد الى الله تعالى . نجد السكران لا تتاتى منه عبادة من العبادات لا سيما الصلاة التي هي عماد الدين ولذلك قال تعالى : ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة

اما يكفى الانسان العاقل هذا الذي ورد عن الشارع حتى يجتنبهـا ؛

الناحية الصحية : ومع كل هذا فقد اثبتت البحوث القديمة والحديثة مضار الخمر والكحول للصحة والعقل والنفس وهي مضار كثيرة

فمن مضراتها الصحية افساد المعدة والاقهاء وهو فقد شهوة الطعام وتغيير الخلق والخلق ، فالسكارى يسرع اليهم التشوه فتجحظ اعينهم وتعظم بطونهم . بل قال احد اطباء الالمان : ان ابن الاربعين السكير يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين ويكون كالهرم جسما وعقلا .

ومنها مرض الكبد والكلي وداء السل الذي يفتك في البلاد فتكا

ذريعا على عناية اهلها بقوانين الصحة . ولكن لا وقاية من شر السكر الا بتركه ، وقد قيل ان نصف الوفيات « في بلاد انتشار الخمر » تكون بداء السل الناتج من تناول الكحول . واما ضرر العقل به فهو مسلم عند كل الناس . وليس ضرره خاصا بما يكون من فساد التصور والادراك عند السكر فقط ، بل ينتهي الى ضعف القوة العاقلة في الانسان ، وكثيرا ما ينتهي بالجنون

قال العالم الانكليزي « نبتام » ان الخمر اول ما يجعل الانسان في الاقاليم الجنوبية ويصيره كالمجنون « وكيف يسعى في الجنون من عقل » وقد اتفق الاطباء على ان المسكر لا يتحول الى دم كما تتحول سائر الاغذية بعد الهضم ، بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه فتسرع حركة الدم وتختل موازنة الجسم وتتعطل وظائف الاعضاء او تضعف وتخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل . فمن تأثيره في اللسان اضعاف حاسة الذوق وفي الحلق الالتهاب ، وفي المعدة ترشيح العصارة الفاعلة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها وقد يحدث فيها الخمر احتقانا والتهابا . وفي الامعاء التقرح . وفي الكبد ايضا تمديده وتوليد الشحم الذي يضعف عمله ، وكل هذا يتعلق بما يسمونه الجهاز الهضمي

ومن تأثيره في الدم ، انه بممازجته له يعوق دورته وقد يوقفها احيانا فيموت السكير فجأة . ويضعف مرونة الشرايين فتتمدد وتغلظ حتى تنسد احيانا فيفسد الدم ويكون الهلاك . ومن تأثيره

في جهاز التنفس اضعاف مرونة الحنجرة ، وتهييج شعب التنفس ، واهون ضرر يلحق الانسان من ذلك بحة الصوت والسعال ، واعظمها تدرن الرئة اي السل الفاتك بالشبان . والقاطع لجميع لذات الانسان ؛ واما تاثيره في المجموع العصبي فهو الذي يولد الجنون كما قلنا ويهلك النسل . فولد السكير لايكون نجيبا وولد الولد اشد من هذا وهكذا الى ان يبتر نسله ويفشو اذاه في اهله وجميع من معه ؛

وقد كذب من قال ان الكحول تمنع العدوى وتدرا الاذى . نعم كثيرا ما نقرأ على زجاجات الخمور كلمات اغرائية ومحبذة فيها . وكثيرا ما تطالع علينا بعض الصحف السيارة باعلانات مكتوبة بالخط العريض عن الخمور بانها قتالة للمكروبات شافية من الحميات ، واقية من كثير من الامراض ، ولكن الثابت هو ان مدمني شرب الخمر اكثر تعرضا للعدوى بالامراض ، واقل مقاومة لمكروباتها واسرع انهزاما امام مضاعفاتها واخطارها من سواهم

وانا نورد هنا على سبيل المثال تجربتين تثبتان صحة هذه النظرية

التجربة الاولى جيء بعدد من الحيوانات واعطى نصفه مقدار من الكحول ولم يعط للنصف الاخر شيء ، ثم عرض الجميع لمكروب واحد لمدة واحدة . وبعد الكشف عليها وجد ان المصابين او الذين كانت حالتهم خطرة او المتوفين هم الذين كانوا تحت تاثير الكحول

التجربة الثانية : جيء بحوانين اعطى لاولهما مقدار من الكحول ولم يعط الثاني شيئا وحقن الاثنان بمصل « الدفتريا » . فاحدث المصل مناعة ضد الدفتريا عند الثاني ، ولم ينفع الاول بتاتا

قال الاستاذ كيلوج الاميركي في كتاب له يسمى « اليد الطبي » من كان عنده اقل ريب اوظل للشك في ان الخمر سم . فليعتبر بما يكون عند وصولها للمعدة فان الغشاء المخاطي يصير محتقنا ويخرج مقدار من المخاط ليحمى نفسه . وترى

المعدة تنقبض لذلك وقواها الدافعة تسرع في اخراج ما وصل اليها باسرع ما يكون ويشهد لهذا كثير من الناس ياخذون في التهوع وما الى ذلك أليس ذلك مزيلا اشك الشاكين وريب المرتابين في ان الخمر نوع من انواع السموم ؛ وقد شاهدتم ايها السادة عملية الكحول السامة في الارنب التي تجرعت كاس المنون امامكم بهذا النادي يوم محاضرة الاستاذ « دبرو »

وقال الدكتور « مار الاسكوتولاندي » الخمر لا تشفي شيئا . وصرح الدكتور « هيقينبوتام » امام الجمعية الطبية البريطانية بقوله : « لا اعلم مرضا شفي بالخمر قط ! واثبت آخرون من الاطباء بان الخمر لا ينفع الجسم ولا يشفي المرض ، وهذا الذي سمعتموه عن علماء واطباء اوربا المتاخرين هو عين ما جاءنا منذ قرون عديدة في قول ابن مسعود الصحابي الجليل « ان الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم » اخرجه البخاري

وقال الدكتور المتقدم الذكر في ابطال دعوى من ادعى ان الخمر غذاء وانه يحفظ الجسم او يقوي العضلات . ما هذه بقوة ان هي الا اسم آخر من اسماء السموم ؛ فقولنا فلان نشوان طرب معناه مسموم ، وبرهن على ذلك بقوله : ان ادخلنا الخمر او اي سم آخر من العقاقير السامة التي تعد بالمآت في الجسم ، فان ضربات القلب تزداد سرعة واضطرابا وفي هذا اجهاد عظيم لذلك العضو الرئيسي العظيم الشان وتستعد معه ايضا جميع الاعضاء للمقاومة والمدافعة في اخراجه من الجسم ، ولعل هذا هو السبب في شعور شارب الخمر عقب الكاس الاولى بشيء من البسط والمرح والنشاط وانما يعقب ذلك حتما تعب واعياء وفتور قد تنتهي بسقوطه في الطريق قبل وصوله الى المنزل كما نشاهد هذا الحال المحزن مرارا كثيرة .

(الجزائر) عبد الرحمن الجيلالي

المدرس بمدرسة الشبيبة

اخطار الخمر!

بقية المحاضرة المنشورة بالجزء الماضي

قال الدكتور محمد ابراهيم رضوان . اذا اخذ الكبير مقدارا من الكحول فانك لا تلبث حتى تراه وقد احمر وجهه ولمعت عيناه وزاد تنفسه واسرع نبضه ، وقد دخل في دور « التهيج » فاصبح كثير الضحك من غير سبب ثرثارا من غير احتشام او ادب وقد يكون في هذا الدور فصيح العبارة حاضر النكتة يحدثك عن كل شيء . ويأخذ نصيبه بين الحاضرين في التكلم فيما يعلم وفيما لا يعلم وقد يخيل اليه انه اصبح في هذه الساعة فيلسوفا عميق التفكير او عالما كبيرا ، او زعيما خطيرا ، ولكنه لا يستطيع ان يحدثك في موضوع واحد حتى ينتهي منه تماما وهو لا يعبأ في احاديثه كثيرا أو قليلا بمزاج الذين ضمهم مجلسه ويظل هكذا حتى يبدأ توازنه الطبيعي في الضعف شيئا فشيئا ويأخذ ادراكه في الهبوط رويدا رويدا ثم يزداد فقدانه الشعور الى درجة يختلف ما يأتيه الشخص فيها باختلاف طبيعته فبينما هذا يكون ميالا الى المشاجرة والعنف ، وذاك راغبا في الشر والخلاعة ، اذ يكون غيرهما قوي الاحساس سهل الانقياد محبا للسكون مطيعا للامر ، ومتى زاد المقدار المشروب من الكحول عن هذا الحد فان الشارب يفقد حاسة التمييز بين النافع والضار وينسى حتى مبادي الآداب الاولية العامة فلا يستحي من منكر او فاحشة ولا يخجل من قول بذيء او تعبير جارح او لفظ ممجوج قذر ويظل هكذا يتدرج في قلة الحساسة وضعف الشعور حتى يدخل في دور « الانحطاط والضعف فتخف حركاته ويقل كلامه ويصير تمتمة متقطعة العبارة غير موصولة المعني ويبدو في مشيته متثاقل الخطى يتمايل ذات اليمين وذات الشمال حتي يفقد ما بقي من توازنه ويقع على الارض مغشيا عليه وفي حال غيبوبة شبيهة

بغيبوبة التخدير « بالكلوروفورم » فيكون تنفسه بطيئاً غير منتظم ووجهه اصفر اللون باهتاً بعد ان كان محتقناً ، وقد تطول هذه الحالة بضع ساعات وقد تنتهي بالوفاة

ويجدر بالذكر هنا ان المقدار المشروب من الكحول اذا بلغ حداً كافياً لتخدير الشارب وادخاله في دور « الغيبوبة » كان اشد تأثيراً واكبر خطراً من التخدير « بالايستيرا والكلوروفورم » وقد قيل ان الوفاة مؤكدة حتماً متى زادت مدة الغيبوبة على ١٢ ساعة

ولا يغرنكم ايها السادة ، احمرار وجه السكير ، فان احمراره هذا لا عن صحة كاملة ولا عن صفاء في الجسم والدم ، وانما هو ناشيء من انفعال الذات عند مخالطتها الكحول مثل ما يحمر وجه المصفوع عند مماسة يد الصافع له ، او المخنوق في يد مختنقه ذلك لان هذه المادة السامة تاخذ في تمديد الشرايين كما قلنا و انابيب الدم في الوجه . وهذا يؤدي بالطبع الى فقدان حرارة الجسم الداخلية بانتشارها في الفضاء . وبناء على ذلك يكون تعاطي الكحول من عوامل اضاعة حرارة الجسم الضرورية

ولكن السكير يحتج ويقول : انني بمجرد ما اتناول الكحول اشعر بالدفء وزيادة الحرارة في جسمي ، ونحن نقول له يا مغرور ان ذلك الدفء ناشيء بسبب خطير وهو ورود الدم الساخن من دواخل ذاتك الى ظواهرها ، وبتكرار هذا الورود تلتهب اجزاء الجسم ، واذا كان مركز الالتهاب عضواً رئيسياً كالرئتين مثلاً فان السكير يكون عرضة لمرض السل الخبيث ، ولهذا يكثر انتشار هذا الداء العضال بين السكارى ؛ قال الدكتور « سميث الانكليزي » ردا على الاستاذ (لبيق) ان الخمر يخسر صاحبها جزءاً وافراً من الحرارة ؛

وجاء في صحيح مسلم ان طارق بن سويد سأل النبي (ص) عن الخمر فنهاه او

كره ان يصنعها ، فقال طارق : انني اصنعها للدواء ، فقال سيدنا محمد : انه ليس بدواء ولكنه داء اما يكفينا هذا الحديث الشريف الجامع لجميع ما فصلناه ونقلناه ، اذ جميع ذلك كله يرجع الى معنى الحديث ، وانما هذه المكتشفات الطبية الحديثة مظهر تتجلى فيه اقوال النبي المتقدمة عليها باحقاب وقد أثبت الدكتور «كيلوج» كل ما رد به على اشياع الخمر ومحبيه في تأليفه المومى اليه سابقا وابطل فيه قولهم «ان الشرب المعتدل لا يضر» قال : الشرب المعتدل يصير عادة لصاحبه ولا يتخلى الشارب عنه فهو يتجرع السم قل او كثر فويل للشاربين

ثم ذم العلماء الذين يتعاطون الكحول وغيرها من انواع المسكرات فقال : انه من موجبات الاسف المحزن ذلك المنظر الذي تتقطع له القلوب وتنفطر اسى ان يخضع الانسان العالم امام جنود الشهوات والرذائل المخزية الا ساء ما يصنعون ؛ وابطل هذا الدكتور ايضا قول الذين يقولون : ان الخمر عادة انسانية وطبيعة بشرية وكيف نتركها ونحن لا نرى امة الا شربت الخمر ولا جيلا الا عاقرها . ولا قبيلا الا كرع منها وهؤلاء الصينيون واليابانيون والشرقيون والغربيون والمسلمون والنصارى واليهود والمجوس كل منهم يشربها ومن ذا يقاوم الطبيعة او من ذا يقف في طريقها ؛ فرد على هذه المزاعم كلها بقوله : اليس في هذه الامم ضالون وفاسقون وكذابون ومنافقون ومخادعون ولصوص خائنون ؟

فكيف يحتج العاقل بفريق السكارى مدعيا انه طبيع في البشر !! افلا نأسف لشيوعه ونأنف من وقوعه وتكاثره في بنى الانسان ؟ ولعمري انه من موجبات الاسف والحزن لا مما يحتج به للاعتذار او يسار اليه بالتقليد والاتباع !

الناحية الاجتماعية

وللخمر مضرات اجتماعية كثيرة ، فمن مضراتها فى التعامل وقوع النزاع والخصام بين السكارى بعضهم مع بعض وبينهم وبين من يعاشرهم ويعاملهم ولادنى

شيء يوغلون في الشتائم والسباب حتى يكون عداوة وبغضاء

واسوء احوال السكران حاله في بيته في منزله امام اهله واولاده ، بين جيرانه واحبائه فلا يهنأ له عيش ولا تهنأ لاهله الحياة ! تراه اذا ما جاء منزله طرق الباب بشدة مفزعة وعنف حتى اذا ما فتح له بادر الى الشتم وقول الفحش وفي اكثر الاحيان يبادر الى جزاء من يفتح له الباب بالضرب تارة واللكم اخرى واذا ما دخل بيته رفس فراشه بنعليه القذرتين وقاء على مفروشات مسكنه ، بالعار ! واذا ما بدت ادنى اشارة من علامات التاثر في ربة البيت أخذها هذا الشقي اخذ العدو للعدو ويفعل بها ما شاء له سكره وشاءت له اخلاقه النذلة الساقطة . وينتهي دوره بتكسير آثاث المنزل ومحتوياته وركس الخوان وما عليه من طعام اولاده الضعفاء ويبيتون جوعا يتململون على فراش البؤس والشقاء هكذا تكون حالة الخمار ، وهكذا يبقى في تعاسة عيش وشظف الحياة ؛ وهذه العلة اكبر العلل في اسباب التحريم ولذلك ورد بها النص في سورة المائدة : انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ؟

ومنها افشاء السر وهو ضرر تتولد منه مضرات كثيرة ؛ ومنها الخسة والمهانة في اعين الناس ؛ فان السكران يكون في هيأته وكلامه وحركاته مضحكا لغيره وملعبة لكل من يراه من الصبيان ، لانه يكون اقل منهم عقلا وابعد عن التوازن في حركاته واعماله والضبط في افكاره واقواله ؛

وينقلون عن السكارى من النوادر الغريبة ما يكفي في ردع من له شرف وعقل عن الخمر ، ومما ذكر عن المحدثين ان ابن ابي الدنيا مر بسكران وهو يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضي ويقول : الحمد لله الذي جعل الاسلام نورا والماء طهورا .

ومن جرائم السكر انه يغرى بجميع الجرائم ويجريء صاحبه عليها ولذلك سميت في الحديث « ام الخبائث » وهناك مضرات أخرى تتعلق بمال الانسان الذي هو مسؤول عنه من اين جاءه وفيم انفقه ، فان الخمر تستهلك المال الكثير وتفنى الثروة الطائلة في اقرب وقت كما قال عنترة « فاذا شربت فانني مستهلك مالي » او كما قال الاقيشر

افنى تلادى وما جمعت من نشب ☆ قرع القواقيز افواه الاباريق

ولم تكن الخمر مذهبة للثروة فى زمن من الازمنة كزمننا هذا لان انواع الخمر كثرت ومنها ما هو غالى الثمن جدا ولا سيما في هذه الايام الاخيرة ايام الازمة العالمية الشديدة التي اثقلت كواهل العباد

ومنها هتك العرض وسقوط الهمة والشرف الى غير ذلك من الاخطار الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى

فهذا — ايها السادة — شيء قليل من كثير فيما يتبع الخمر وينتجه من المصائب العظيمة . ولهذا اسست الجمعية الاسلامية لمقاومة الكحول وعلى هذا المبدا تعمل جهدها بالدعوة اليه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

عبد الرحمان الجيلالي

المدرس بمدرسة الشبيبة



ثانيا: مقالاته في مجلة الأصالة

1- **الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريا وتاريخيا**، السنة الثانية، العدد: 8، ربيع الثاني، جمادى الأولى 1392 هـ، ماي، جوان 1972م، ص: 113-128 (16 صفحة)

2- **جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي والثقافي**، السنة الثالثة، العدد: 13، صفر، ربيع الأول 1393 هـ، مارس، أفريل 1973م، ص: 199-212 (14 صفحة)

3- **من بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين**، السنة الثالثة، العددان: 14-15، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب 1393 هـ/ ماي جوان، جويلية، أوت 1973م، ص: 155-159 (5 صفحات)

4- **لمحة عن زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية**، السنة الرابعة، العدد: 19، صفر، ربيع الأول 1394 هـ، مارس، أفريل 1974م، ص: 31-37 (7 صفحات)

5- **تحقيق موقع مدينة (برشك)**، السنة الرابعة، العدد: 23، محرم، صفر 1393 هـ/ جانفي، فيفري 1973م، ص: 76-77 (صفحتان)

6- **تلمسان والقدس الشريف**، السنة الرابعة، العدد: 26، رجب، شعبان 1395 هـ/ جويلية، أوت 1975م، ص: 104-110 (7 صفحات)

7- **الخلافة وإمارة المؤمنين أو البيعة ومبدأ الشورى في الإسلام**، السنة الرابعة، العدد: 28، ذو القعدة، ذو الحجة 1395 هـ/ نوفمبر ، ديسمبر 1975م، ص: 94-101 (8 صفحات)

8- **حول مسجد سيدي مروان العتيق بعنابة**، السنة الخامسة، العدد: 34-35، جمادى الثانية، رجب 1396 هـ، يونيو، يوليو 1976م، ص: 184-198 (15 صفحة)

9- **أبو يعقوب يوسف الوارجلاني وكتابه الدليل والبرهان**، السنة السادسة، العدد: 41، محرم 1397 هـ، جانفي 1977، ص: 162-171 (10 صفحات)

10- **شخصيات لامعة من الأوراس**، السنة السابعة، العددان: 60-61، رمضان، شوال 1398 هـ/ أوت، سبتمبر 1978م، ص: 103-114 (12 صفحة)

11- **هؤلاء التوارك الملثمين، السنة الثامنة**، العدد: 72، رمضان 1399 هـ/ أوت 1979م، ص: 18-35

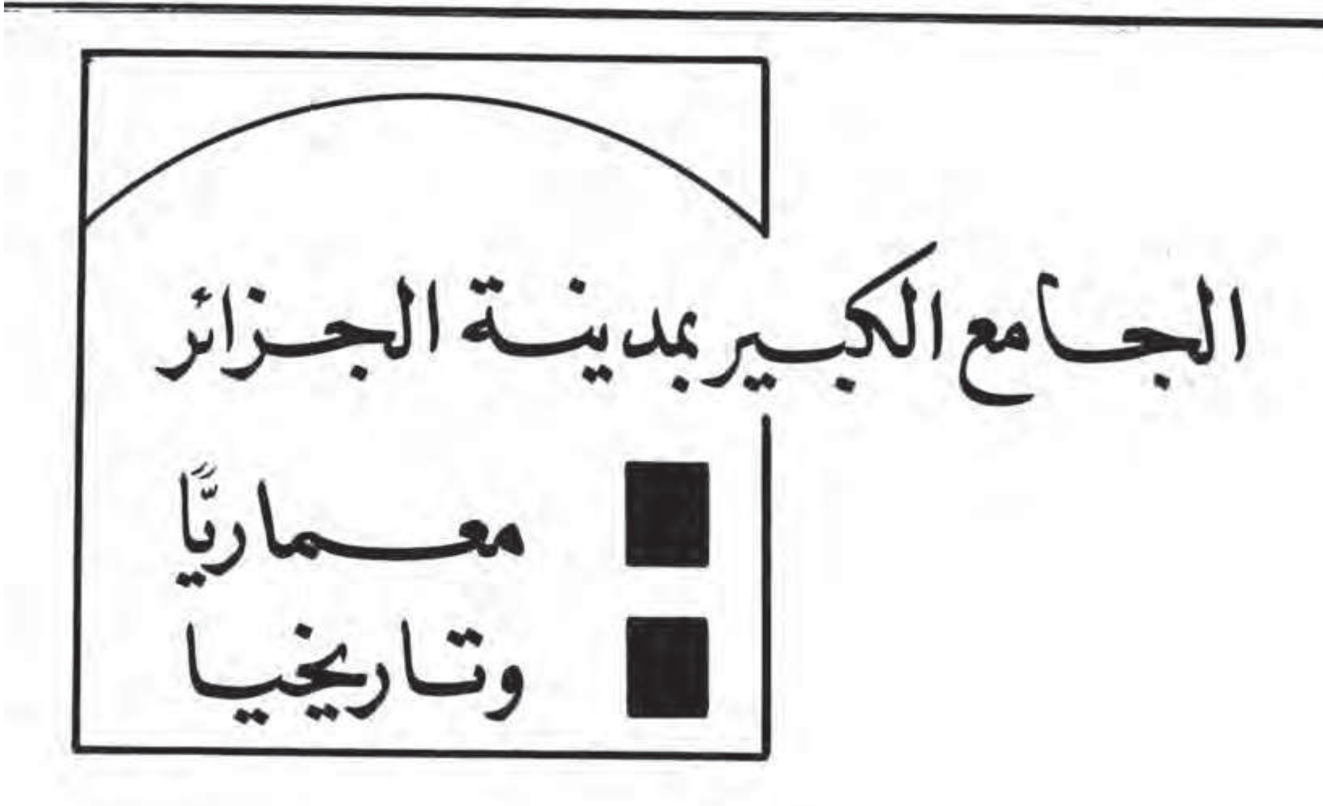
12- **التجديد والمجددون في الإسلام**، السنتان: 8-9، الأعداد: 75-76-77-78، ذو الحجة 1399، محرم، صفر، ربيع الأول 1400 هـ/ نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي، فيفري 1980م، ص: 265-270 (6 صفحات)

13- **حاجة البشرية إلى التشريع السماوي**، السنة التاسعة، الأعداد: 79-80-81-82، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب 1400 هـ/ مارس، أفريل، ماي، جوان، ص: 43-55 (13 صفحة)

14- **نظرة محمد ﷺ إلى المرأة**، السنة التاسعة، العددان: 87-88، ذو الحجة 1400، محرم 1401 هـ/ نوفمبر، ديسمبر 1980م، ص: 61-66 (6 صفحات)

15- **الشهيد عبد الواحد الوانشريسي (955 هـ/ 1549م)**، السنة التاسعة، العددان: 83-84، شعبان، رمضان 1400 هـ/ جويلية، أوت 1980م، ص: 39-45 (7 صفحات)

16- **الهجرة ودار الندوة (تمثيلية)**، السنة الحادية عشر، العدد: 91، محرم 1402 هـ/ نوفمبر 1981م، ص: 113-131 (19 صفحة)



عبد الرحمن الجيلالي

ان من روائع الفن الاسلامى الذى خلفته لنا الاجيال المسلمة السالفة وتركته للاعقاب كنموذج مشرق ناطق بتقدم الحضارة الاسلامية فى سالف عصورها الزاهرة وكدليل ساطع دال على انتشار المدنيـة الاسلامية فى الاقطار والامصار شرقا وغربا هـذه المساجد الجامعة العظيمة متفرقة ومجتمعة على وجه المعمور هنا وهناك كنجوم السما. تلمع انوارها وتشع اضواؤها حتى لا يضل ركب الانسانيـة الزاحف نحو الرقى الروحى والتقدم الحيوى ، فمنها اشرق نور الايمان ، وتجلى العلم بجلاله لطالبه من غير احتكار ولا تضييق ولا تقتير ، وعليها وقد افرغت فى قالب الجمال يظهر رونق الفن وبديع الصنعـة .

ولا غرو فان المسجد هو مهد الاسلام ورابطة الوحدة الاسلامية بين سائر الشعوب ومثوى العلماء ومنطلق الجنود الفاتحين والمركز الاساسى الاصيل الذى اتخذه المسلمون دار ندوتهم وشوراهم يتبادلون فيه الرأى الحل مشاكلهم والنظر فى مصالحهم ، ومنه تخرج على يد رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم خلفاؤه الراشدون وجم غفير من ابطال الاسلام وفطاحل العلماء وكبار الساسة والقادة . وفى رحابه يجتمع سائر المسلمين مرات فى اليوم لتوثيق روابط الالفة والمحبة بينهم يرفرف عليهم علم الحرية والاخاء والمساواة .

ولقد كانت الجزائر ولاسيما منها العاصمة من المراكز الاسلامية التى كتب لها فضل السبق فى ميدان تشييد هذه المراكز الاسلامية والتكنات الحصينة ، فالتاريخ يشهد لنا بانه كان يوجد بهذه العاصمة قبل استيلاء الاجنبى عليها ما يزيد على نيف وعشرين ومائة معهد اسلامى ، اى ما بين مسجد جامع ومصلى للصلوات الخمس وزاوية للدراسة والصلاة ، ومدرسة للتعليم الثانوى او العالى ، وكتاب للصبيان ، وقبة لضريح ، ومنهم من زاد على هذا العدد فبلغ 166 مؤسسة اسلامية وهى عنده على هذا التفصيل :

109 مساجد للصلوات الخمس
13 مسجدا جامعا
32 ضريحا
12 زاوية .

وفى طليعتها هذا المسجد الاعظم ـ الجامع الكبير ـ الذى كان ولايزال قائما ماثلا امامنا كالطود الشامخ يحمل مشعل المجد وآية الخلد كأنه علم فى راسه نار .

هذا الجامع هو أحد المساجد الاثرية الثلاثة التى تنتمى فى تاريخها الى أزهى وأعز عصور الاسلام الذهبية الزاهرة فخورة بانتسابها الى دولة هى من كبريات دول المغرب العربى المسلم وأسعدها ؛ وتلك المساجد الثلاث هى ما بالجزائر وتلمسان وندرومة ، أما تلك الدولة فهى دولة المرابطين الفخمة التى نشأت عندنا فى القرن الخامس الهجرى ـ II م ونشرت أعلامها على معظم هذا الشمال الافريقى وعلى أرض الاندلس أيضا .

امتدت مملكتها من أرض السينيغال جنوبا الى نهر ايبريا ـ أو الايبر ـ شمالا ، ومن البحر الاطلانطى غربا الى اقليم بجاية من أرض الجزائر شرقا . وكانت العاصمة هى ما أسسته يد هذه الدولة بنفسها من تلك المدينة الجميلة مراكش .

اشتهر ملوك هذه الدولة ـ أمراء المسلمين ـ بالاستقامة والعدل والاخذ بيد العلماء ، ولم يجر فى تراب مملكتهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا فى بادية ولا فى حاضرة ، وكانت أيامهم كما حدثتنا مصادر التاريخ أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن فاحبهم الناس .

ولاسيما ذلك أيام عاهلهم الاكبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذائع الصيت فقد أجمع المؤرخون على فضله وشجاعته وتقواه ، حتى أنهم قالوا : لم يكن فى عصره نفاق ولا ظلم وكانت المرأة فى زمنه

تسير وحدها حاملة الذهب فتجول أقطار افريقية والمغرب لا تجد من يعترض سبيلها أو من يمسها بســوء .

ومن اظهر خصائص هذا العاهل الكبير انه ما خاض قط حربا من حروبه ضد خصومه الا وخرج منهــا منتصرا ظاهرا ، حتى انه لم يعرف له فى ذلك نظير فى تاريخ المغرب ، ويكفيك منه انتصاره فى تلك الحرب الضروس التى عرفت بموقعة الزلاقة الشهيرة التى وقعت بأرض الاندلس (479/1086 م) . وناهيك به فضلا وشرفا ان حجة الاسلام الامام أبا حامـد الغزالى رحمه الله لما بلغته أخبار هذا الامير أزمـع على الرحيل من المشرق ليغتنم صحبة هذ العاهل بالمغرب وفعلا شد عزمه وربط رحله وأخذ فى السير من مقره حتى بلغ مدينة الاسكندرية وشـرع فى التجهز استعدادا للانتقال نهائيا الى أرض المغرب ، فلم يرعه الا وخبر نعيه يعم الآفاق وكان ذلك سنة (500 هـ/1107 م) فعدل الامام عن الرحلة .

فالى هذا العاهل الكبير – يوسف بن تاشفين – يرجع الفضل فى تشييد هذه المؤسسة الكبـرى فى الاسلام : الجامع الكبير بالجزائر ، بناه كما يقول الزيانى يوسف بن تاشفين اعوام الستين واربعمائة للهجرة الموافقة لاواسط القرن الحادى عشـــر الميلادى ، اى ان لهذا المسجد منذ انشائـــه الى اليوم ما يناهز الالف سنة ، كما نجد خبره ايضـا فى مؤلفات القرن الخامس الهجرى مثل كتـــاب المسالك الذى صنفه صاحبه – البكرى – سنـة 460 هـ/1068 م فتراه يقول عن مدينة الجزائر : ولها أسواق ومسجد جامع . . .



عبد الرحمن الجيلالى يدرس المزولة الموجودة بأعلى منارة الجامع الاعظم

فالمساجد الثلاث التى أشرنا اليها هى التى نجدها اليوم وحدها حافظت لنا على نموذج فى المعمـــار المرابطى فى تاريخ العمارة الاسلامية بهذه الديار ، فتراها متشابهة فى شكلها وطرازها ولا تختلف عن بعضها الا من حيث السعة والمساحة فقط ، فاكبرها جامع تلمسان ويليه جامع الجزائر ، ثم جامـــع ندرومة ، ورغم التغيير والزيادة التى زادها الموحدون وأحدثوها فى جامع ندرومة فتراه أقرب شبهـــا بجامع الجزائر .

وللجزائر اليوم أن تفتخر على سواها من البلاد الاسلامية ولاسيما المغرب بكونها امتازت عنهـــا بالحفاظ على هذه المجموعة الاثرية الثمينة الفريدة التى وصلتنا على هيأتها الاصلية ، والتى لم يبـق لهذه الدولة فى غير أرض الجزائر أثر معتبر هـام يمكن علماء الآثار من تصحيح دراساتهم المعماريـة

واستكمال معلوماتهم وبحوثهم الاثرية مستوفـــاة، كاملة الا هذه المعالم الثلاثة التى لا توجد الا فى أرض الجـــزائر . اللهم الا اذا استثنينا الجـــزء الشمالى الذى يشمل المحراب من جامع القرويـين بمدينة فاس فانه تم على عهد الامير على بن يوسف ابن تاشفين سنة 531 هـ/1137 م ولكنه أثر ضئيل

ويكفينا فى الاستدلال على رقى فى الانشاء والتعمير بالجزائر فى ذلك العصر الغابر وجود مثل مسجـد الجزائر هذا القائم فى غاية الاحكام والتمكين وقد أشرف على ألف سنة ، وهو لايزال على حاله غضـا طريا كأن يد الصانع لم تفرغ من تشييده الا منـذ الســاعة ! . .

نعم ان المتأمل وعين الناقد البصير اذا رأى بها هذه المساجد تخضع بصفة عامة الى النمط المرابطى قال بأنها ليس عليها من الرشاقة والاناقة حـظ عظيم ؛ فتقول بلى ! ان لذلك سببا وهذا السبـب يعود الى الحالة الاولى التى كان عليها أمراء هــذه الدولة من الميل الى البساطة فى حياتهم العامــة والاعراض عن زخرف الحياة الدنيا وعدم التكلف . ثم انه أيضا لم يكن لهذه الدولة فى أول أمرها اتصال مباشر بفنون الشرق ولا لها اطلاع على الهندسـة المعمــارية فيما قــام به الامويـون بالانـدلس ، أو العباسيون بالمشرق . فاتسمت لذلك آثارها بفـن جديد وطابع خاص يمتاز على غيره بالضخامة والفخامة ثم لما اتصلوا بالاندلس واطلعوا على آثار الحضارة الشرقية التى تركها هنالك الامويون أخــذ فــن المرابطين يتطور متأثرا بمظهر ما عليه جامع قرطبة مثلا ، فكان ما نشاهده اليوم من زخرفة محــراب جامع تلمسان وقبته العجيبة وبعض تيجان أعمدتـه الحاملة لعقوده وأقواسه الفلوقـة .

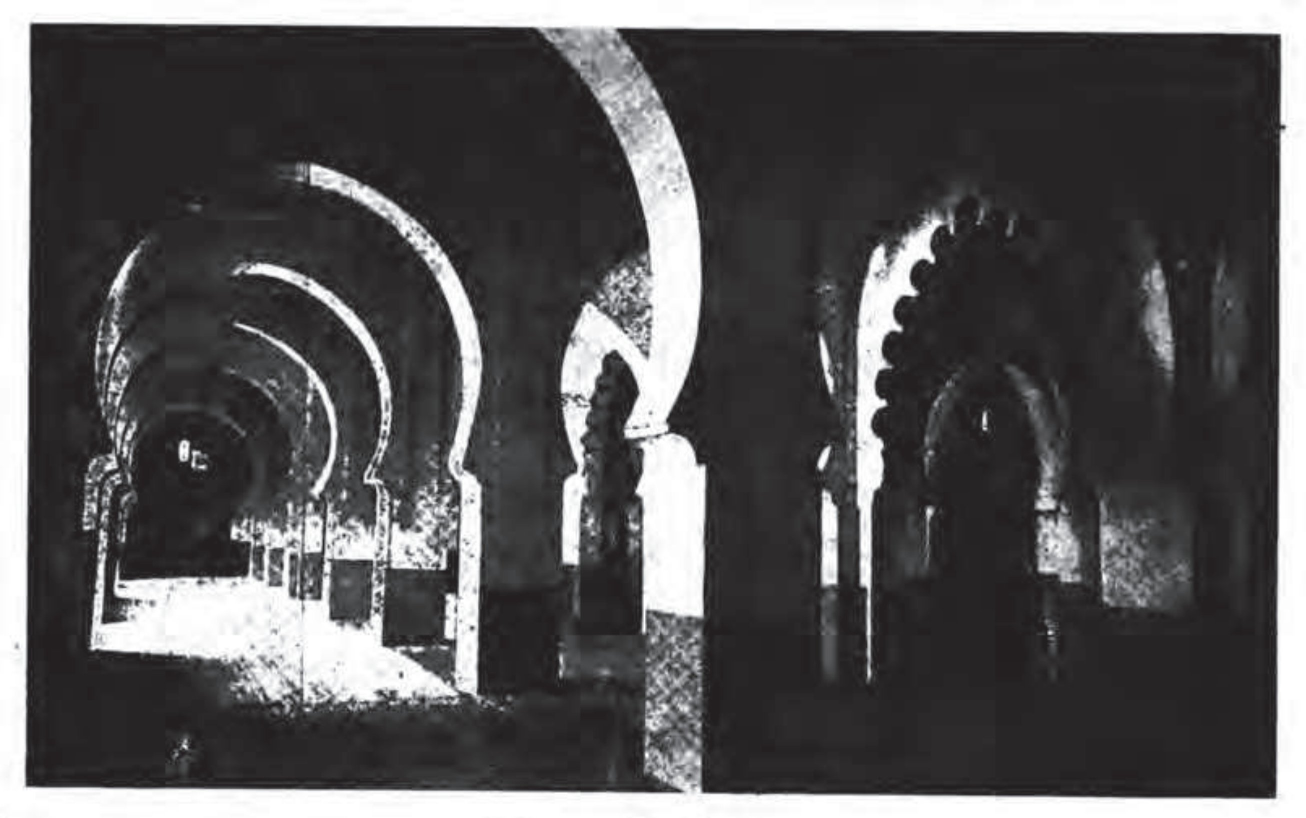
ولقد كان لاستحالة الحصول على أعمدة كبــيرة لتشييد مآثر هذه الدولة بحسب ما يتجلى لنـا من مساجدها اختير لذلك دعائم مبنية بالحجارة قاعدتها مطولة أو مصلبة تعلوها أقواس تشبه حدوة الفرس دون أن تربطها أوتار ، تحمل سقفا مسنمة ، وهذا هو السبب فيما نشاهده من أثر الضخامة التى تقوم عليها عمارة المرابطين فى مساجدهم .

والجامع الكبير هذا هو فى جملته وتفصيله مربع الشكل ، يمتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ومن الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وقبلته بالجنوب الشرقى . وهو قائم على شاطىء متصــل بالبحر ، ولقد أدركت جدتى لأم رحمها الله وقـد عمرت طويلا تقص علينا حياتها فى صباها حينمـا كانت تصحب جدها الشيخ مصطفى القـــاديــرى مفتى المالكية بالجزائر فيذهب بها الى مقصورتـه بالجامع المذكور . قالت بأنها كانت تشرف بنفسها من نافذة هناك واقعة على البحر ، ولدينا صــور أخذت لهذا المسجد سنة 1246 هـ/1830 م تصحـح لنا ذلك .

ويحد هذا المسجد اليوم شمالا النهج المسمى بنهج البحرية ، وجنوبا الشارع المدربز المشـرف على المرسى ، وغربا الطريق المتصل بالغرفـــة التجارية ، وشرقا الطريق الواصل ما بين نهـج البحرية والشارع الموازى لقبلة المسجد ؛ وهـو يشتمل على أحد بلاطا ـ صفا ـ معاكسا للقبلة ، باضافة الخمس رواقات التى تحيط به من غـالب

جهاته ، ما عدا الجهة الشمالية الشرقية ؛ ومساحته تستغرق نحو الالفى ميترا مربعا ، وطوله يزيد قليلا على عرضه ، أو عمقه بثمان ميترات ، فالطول هو عبارة عن 48 ميترا ، أما العرض فهو لا يزيد عن 40 ميترا ، واذا قسنا الناحية الشمالية الغربية منه وجدنا بها 40 ميترا ، ومثلها كذلك كل من جهتيه الشرقية الشمالية وما يقابلها من الناحية الغربية الجنوبية .

وقد كان متصلا بجداره الجنوبى الغربى بحديقة فسيحة تسمى بالجنينة ، كما انه كان بشماله الشرقى مصلى للجنائز وهو منتقض اليوم ، وساحة أخرى كانت تستعمل كواجهة حربية للدفاع عن العاصمة وضع بها أربعة مدافع من أكبر عيار كان يستعمل يومئذ فى السلاح التركى ، ثم أزيلت هذه المدافع من هناك بعد الحملة الانكليزية التى قادها اللورد ايكسموث ضد الجزائر سنة 1231 هـ 1816 م ، وفى بقية اجزاء هذه الساحة أقيم ما نشاهده اليوم خارج جدار المسجد الغربى الشمالى من المقاصر ، ومنها مقصورة المفتى ، اما ما كان استعمل من تلك المقاصير كمحكمة شرعية للمالكية فانما هو من زيادات سنة 1266 هـ/1850م (ربيع الاول – فيفري) وأول قاض جلس بهذه المحكمة للقضاء هو الشيخ حميدة العمالى المتوفى سنة 1220 هـ)1873 م ويوم أن بنيت هذه المحكمة



الجامع الكبير بالجزائر – الحرم الداخلى

نظم الشعراء في مدحها أبياتا ومنها هذه الابيات للشيخ محمد بن عبد الرحمن الامين المتوفى سنة 07 : هـ / 1889 ـ 90 م قال :

احسن بمحكمة قد راق منظرها
ابدت محاسنها شكرا لباريها
يحق حسن الثنا للآمرين بها
مع الذين سعوا كذاك بانيها
للحكم قد نصبت اوكانها رفعت
لشرعة المصطفى الله يبقيها
لا تعجبن اما يكفيك نسبتها
لمالك شيدت له نواحيها
وحالها نطقت في العين مفصحة
بالبشر ضاحكة تزهو لرائيها
يا قاصدا ربعها لا تخش مضيعة
الله للحق يهدي كل من فيها

★ ★

ودعائم المسجد تقوم على الحجارة والآجر المملوء تغطيه طبقة من الجبس والجير ، ويبلغ عدد الدعائم 72 سارية كلها قائمة الزوايا ، وفيها المصلبة ، تبعد كل واحدة عن أختها بما قدره 3،40 م وهي مثل دعائم جامع تلمسان الكبير تحمل عقودا ـ أو قل اقواسا ـ أربعة متداخلة ومتقابلة اثنان منها مكسرة الاقواس في شكل حدوة الفرس المدببة واثنان مسننة متعددة الفصوص بحيث تبلغ فصوصها الى اثني عشر فصا ، واول من استعمل هذا النمط من الاقواس المفصصة المفلوقة بالمغرب هم المرابطون كما هو الحال بجامع تلمسان الذي يرجع تاريخه الى عصرهم .

ويدخل تحت هذه العقود أحد عشر بلاطا مديدا يمتد من الشمال الى الجنوب في اتجاه معاكس لجدار القبلة كما هو عليه حال جامع قرطبة والقيروان وتلمسان . ويخالفها في ذلك جامع القرويين بفاس، فان بلاطاته تمتد موازية لجدار القبلة ، وهذه ميزة خاصة يمتاز بها ما بين سائر المساجد الاثرية الموجودة بهذا الشمال الافريقي ، ثم اننا اذا قسنا عرض ما بين سواري البلاط الاوسط من الجامع الكبير هذا وجدناه يزيد على بقية البلاطات الاخرى بـ 1،60 كما هو الشان في مديد الصف الاول منه ومثله جامع تمسان .

ويذكر اهل الجغرافية والتاريخ من متقدمي علماء العرب وتبعهم في ذلك المتاخرون من الافرنج ان بعض الاجزاء الشمالية من جدار المسجد الشمالي الغربي هي من بقايا اطلال هيكل أو معبد كان قائما هناك للرومان مستدلين على ذلك بما يوجد بهذا الجدار من الخارج من تلك القطعة الحجرية المنقوشة بحروف لاتينية RVFVSAGLIS تؤدي هذا اللفظ « روفوس أجيلوس » ولا تزال هذه القطعة موجودة ظاهرة جلية متماسكة ملتحمة باجزاء الحائط من الخارج ؛ يقول البكري في مسالكه : «وكانت بمدينة بني مزغنة ـ يعني الجزائر ـ كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق الى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش .

ويذكر المؤرخ الفرنسي (كلان) انهم ظفروا بأجزاء من الحجارة وقطع من الصوان هي بقايا متممة لنص ما جاء في حجر المسجد ، وجدت هذه الاجزاء بناحية جامع كتشاوة من العاصمة بالقرب من قصر

أحمد داى . ومضمونها ينص على أنه كان بهـــذا المكان معبد او هيكل شيده المسمى « لوسيوس ابن اجيلوس » من ماله الخاص الذى تحصل عليه مما ناله من التشريفات البلدية من وطنه ، وجعله وقفــا .

ونعود الى المسجد فنقول : ان هذا الطراز الذى نشاهد عليه المسجد اليوم هو مرتكز على فـــن المعمار الاموى بالاندلس أو نقول هو فى هندسته وتخطيطه هذا يرجع الى الطابع الاسبانى المغـربى كما تظهر عليه مسحة من جامع قرطبة فسماؤه مغطاة بسقف ـهى على عدد بلاطاته مـكونة من الخشب الرفيع ومغطاة بقرميد مسنم ذى أربع متحـــدرات وشكلها مثلث . ما عدا فناء المسجد وهو مربـــع وتبلغ مساحته نحو 200 ميترا فهو مكشوف غـير مغطى يشبه فى وضعيته جامع القيروان بصفـــة مصغـــرة .

ولقد حصل هذا التشابه بين هذه المســاجد المذكورة بسبب التمازج الذى وقع بين سكان المغرب والاندلس حينما اتحدت هذه الاقطار سياسيا وأدبيا واجتماعيا على عهد تينك الدولتين العظيمتين دولـة المرابطـين ودولة الموحديـن فى القـرن الخـامس والسادس على هذا الوطن .

ثم ان ما نرى عليه واجهة المحراب اليوم ما عدا الاسطوانتين القائمتين الى جانبى المحراب من الرخام الملولب فان كل ما نراه من الزليج الزائف وهـذه الطوابع المزخرفة من الجبس الفارغ كل ذلك حدث أخيرا وأقحم فى هذه العمارة اقحاما من غير ما دعت الحاجة اليه بالمرة ، فانطمست علينا بذلك أهـم معالم المحراب التاريخية وزال عنه جلاله وبهـاؤه وخسر بذلك المسجد فى نفسه جزءا عظيماً مـن تاريخه ، كما خسر بذلـك فـن المعمـار الاسلامى خسارة علمية فنية ضخمة ! . . وان كان الذين فعلوا ذلك يرونه ـ فى نظرهم ـ حسناً فنحن لا نرى ذلك حسنا ، وما هو فى الحقيقة والواقع بحسن ، ولا هو فى نظر ورأى علما. التاريخ والآثار بالشيء المستحسن وحتى فيما ذهب اليه علماء الشريعة من فقهاء المالكية فانه عندهم عمل غير مرضى ، ولا ينبغى أن ننسى وان الجامع بنى على عهد دولة كانت تحترم مذهبهـــا المالكى وعليه تجرى جميع أعمالها ، ولاسيما وان هذه الناحية من المسجد لم تكن فى حاجة الى اصلاح أو ترميم أو تحوير أو تغيير أو تبديل .

ولعمرك انه منذ وقع بهذا المحراب هذا التحوير وهو الى حد الآن لايزال رافعا عقيرته يصرخ قائلا بلسان حاله : يا قوم ما هذا الظلم ! . . انكم ظلمتمونى حيث البستمـونى لباسا يتنـافى وجلال وضعيـتى الاثرية التاريخية ، فكيف يكون شأنى أمام رواد العلم وطلاب المعرفة وعلماء التاريخ ؟ . . فكيف يتهيأ لى الوقوف منسجما الى جنب هذا المسجد العتيـق الموقر حينما يقف أمامى مستنطقو الآثار والاحجار الباحثون عن تراث الحضارة الاسلامية عبر التاريخ؟ وكيف يتسنى لى الاشهاد لأزكى دعوى هذا المسجد فى بلوغه سن مشارفة الالف سنة وانا فى هـذا المظهر المزرى بقيمتى ومنزلتى التاريخية ـ مظهر الزازو ! . . ـ وكيف حتى أستطيع أن أتصدر هذا المسجد الجامع الدهرى ؟ أليس فى ذلك لى ولـكم فضيحة وسخافة ؟ ! أليس فى هذا الصنيع تلبيس

للحقائق وتدليس وتشويه ؟ . . والحالة اننى لم أكن من قبل عاريا حتى تكسونى ، ولا جائعا فتطعمونى ! . .

فان قيل ان لهذا المحراب تاريخا متأخرا ومتأخرا جدا عن تاريخ تشييد المسجد ، وانه هو وما حوله أو فوقه من القبة المثمنة الاضلاع يرجع تاريخه الى العهد التركى ؟ قلنا نعم ذلك صحيح غير ان هذا العهد الذى عبرتم عنه بالمتأخر له من الزمن قرابة ثلاثة قرون ، وهذا يكفى فى اصطلاح علماء الآثار لان تشمله قوانين الآثار وتنطبق عليه شرائعها ، اذ من المتفق عليه فى القانون الدولى للآثار أن كل ما صنعته أو صورته أو شيدته أو أوجدته يد الانسان قبل مائتى سنة يعد أثرا تاريخيا يجب احترامه والحفاظ عليه ، بل هناك من الدول من اعتبر أن كل ما سبق القرن الثامن عشر هو مما يطلق اسم الاثر التاريخى وتجرى عليه أحكام الآثار وقوانينها المتفق عليها دوليا ، وبما أن ترميم هذا المحراب وقع فى أواخر القرن السابع عشر ، ونحن اليوم فى أواخر القرن العشرين فهو قطعا أثر تاريخى ولا ريب .

ولترميمه قصة تاريخية هى فى نفسها مفيدة تهم المؤرخ الجزائرى بالخصوص ، وذلك لما نراها باسقة فوق مثلث غير حقيقى ، وهى فى نفسها هذه المدينة وكان يقودها (دوكيزن) فارست تجاه العاصمة ورمتها بقنابلها فسقط منها على عدة قنابل تسببت فى انهيار جدار القبلة بما حواه من المحراب وما اتصل به ، وحينئذ نقلت مكتبة الجامع الثرية فحولت الى قلعة سلطان سى او قلعة سى المعروفة ببرج مولاى حسن ، وكان لوفرة عدد الكتب استغرق نقلها على الدواب مدة ثلاثة أيام بكمالها ، ومن المؤسف أن أكثر هذه النفائس من الكتب قد ضاع ولم يبق منها يوم نزول الفرنسيين بالجزائر سنة 1246 هـ / 1830 م سوى نحو الخمسمائة مجلد ، وأما اليوم فلا تسأل ، فان هذه الاسفار أصبحت أصفارا موصوفة عن الشمال ! .. ويومئذ تحتم وجوب القيام باصلاح المحراب وترميم المسجد وهذا أمر ضرورى وطبيعى ، واستمرت وضعية الجامع على هذا الشكل طيلة ثلاثة قرون مضت لم يتغير فيه شيء – والحمد لله – الى هذه المدة المتأخرة فجاء من حاول طمس معالمه بهذه القشور من طوابع الجبس المزيفة والزليج المتنافر الحديث الصنع فانمحى عنه المحراب رونقه واضمحلت بذلك قيمته الاثرية وتجافى عنه جلال التاريخ وهيبته ، وأصبح يحاكى ما استحدث من محاريب المساجد العصرية ، فأين المحافظة على التراث ياحماة الحى ؟ . . فان عملا كهذا ليعد طمسا للتاريخ وتلاعبا بالآثار فواأسفاه ! . .

واذا التفتنا الى زاوية المسجد الشمالية وجدنا بها أمامنا بناية قائمة عظيمة تلك هى مئذنة المسجد. نراها باسقة فوق مثلث غير حقيقى ، وهى فى نفسها مربعة الشكل حسب الطراز الذى جرى عليه المهندسون من مشيدى المساجد بالمغرب والاندلس ويقرر علماء الآثار ان هذا الشكل من الطراز المربع الذى تقوم عليه المآذن بالمغرب انما هو مستعار عن الابراج الاربعة التى كانت قائمة فى معبد دمشق قبل أن يبنى المسجد الاموى بداخله ، ولم يبق من هذه الابراج الآن الا واحد فى الزاوية الجنوبية

الغربية وهو مستعمل للأذان .

هذا ولم يكن بمساجد المغرب العربى الكبير طيلة عبر القرون الاولى من الهجرة مآذن سوى مئذنة جامع عقبة بن نافع بالقيروان فهى أقدم صومعة فيما بقى من المآذن الاثرية ، لا فى المغرب فحسب، بل وحتى فى العالم الاسلامى اطلاقا . والمظنون أن مؤسسها هو حسان بن النعمان والى افريقية من قبل الامويين (73 — 86 هـ/692 — 705 م) ويقال انها بنيت على عهد هشام بن عبد الملك .

وتاريخ انشاء المآذن فى الاسلام يرجع الى عهد ولاية مسلمة بن مخلد الانصارى على مصر (47 هـ /667 م) حيث أمر بابتناء منار المسجد العتيق جامع عمرو بن العاص ، فهو أول من أقام للاذان منارا وابتناه بالمسجد . . وأما المحراب فهو متأخر بعشرات السنين عن تأسيس المئذنة ؛ اذ يرجع تاريخ انشائه الى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فهو أول من أحدث المحراب عند ما أعاد بناء المسجد النبوى بالمدينة المنورة سنة 88 هـ —706 م .

وترتفع صومعة الجامع الكبير عن مستوى الارض الى علو 15 ميترا وتنتهى بقبة صغيرة عليها تفافيح ثلاثة من نحاس معصبة شرفاتها العليا باحاطتها بأربع وعشرين كتفا مثل ما يحيط بأعالى أسوار المسجد ، ومزخرفة جهاتها الاربع من الخارج برسم اقواس ثلاثة على طريق النقش مضرسة مصنوعة باللبن . تتوسطها نافذة للاضاءة من الجهتين احداهما بالشمال الغربى ، والاخرى بالجنوب الشمالى،وهناك فتح يتوسطها بالجنوب الغربى على شكل باب يؤدى الى سطح المسجد ، وهذه المئذنة متاخرة عن تاريخ تأسيس المسجد بقرنين ونصف ، اذ يرجع عهد بنائها الى أوائل القرن الثامن الهجرى أيام الملوك الزيانيين من بنى عبد الواد بتلمسان ، وذلك ما يشهد به النقش المزبور على رخامة بيضاء مثبتة على الجدار القائم عن يمين الآخذ فى الصعود الى المئذنة متصلا ببابها ، واليك نص النقش المذكور وهو بخط أندلسى مغربى :

« بسم لله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد . لما تمم أمير المسلمين أبو تاشفين أيده الله ونصره منار الجزائر فى مدة أولها يوم الاحد السابع عشر من ذى القعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة وكان تمامها وكمالها فى غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة ، نادا المنار المذكور بلسان حاله الخالى : أى منار حاله فى الحسن كحالى

اقام امير المسلمين تفافحا
كساني بها حسنا وتمم بنيانى
وقابلنى بدر السما. وقال لى
عليك سلامى أيها القمر الثانى
فلا منظر يسبى النفوس كمنظرى
الا فانظروا حسنى وبهجة اركانى
فزاد الهى رفعة لمتممى
كما زاد فى شانى ورفع أركانى
ولا زال نصر الله حول لوائه
رفيقا له تال وحسنا له ثانى

وكثيرا ما نرى من يشتبه عليه لاول وهلة اسم مؤسس هذا المنار أبى تاشفين الزيانى بمؤسس المسجد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين . ومنهم العلامة الشيخ أبو راس فى كتابه الحلل السندسية

فانه جعل المسجد نفسه من مآثر أبي تاشفين الزياني نفسه فقال في سياق كلامه عن دولة بني زيان « وأما الجزائر فدخلت في ملكهم أولا ، وان أبا تاشفين منهم لما أباد الثعالبة بني الجامع الاعظم بالجزائر ونقش اسمه في صومعته » وهذا خطأ بين ، فشتان ما بين أبي تاشفين وابن تاشفين فالاول وهو مؤسس المنار اسمه ابو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى خامس سلاطين بني عبد الواد الملوك الزيانيين بتلمسان ، نودي عليه سلطانا في الثالث والعشرين من جمادى الاولى عام 718 هـ/23 جويلية 1318م وتوفي سنة 737 هـ/1337م وأما الثاني وهو مؤسس الجامع الكبير فاسمه يوسف بن تاشفين عاهل دولة المرابطين المتوفى سنة 500 هـ/1107 م ، وذاك عاصمته تلمسان وهذا عاصمته مراكش . وكان الباعث لهذا الاشتباه هو وجود اسم تاشفين في كلا اسم الاميرين ، وكلاهما كانت له يد في اقامة هذه المؤسسة الجزائرية العظيمة

ولقد لفتت مساجد المرابطين اهتمام ملوك بني عبد الواد الزيانيين واذكت مشاعرهم منها على الاخص المآذن فشاركوهم في تشييدها والتنويه بعمارتها . فنرى كلا من المئذنتين القائمتين الى اليوم بتلمسان او بالجزائر هما من صنع الزيانيين.فمئذنة جامع تلمسان هي من مآثر السلطان يغمراسن بن زيان أول ملوك بني عبد الواد (633 ــ 681 هـ/1236 ــ 1283 م) ومئذنة الجزائر هي من عمل حفيده أبي تاشفين .

كما اننا نجد على سطح المنار مزولة ــ ساعة شمسية ــ من الرخام الابيض مربعة الشكل تعرف بها الاوقات الزمنية وتضبط بها الاوقات الشرعية بطريق وقع ظل الخيط المرتبط بالقائم على حافة المزولة المنحط ظله على الدرج المنقوشة على سطح المزولة ، ولا نشك في أن هذه المزولة وضعت هناك مبنية ببناء الصويعة وذلك حسبما ترشد اليه تصميم البناء وتخطيط شكل المزولة ووضعيتها في مكانها المختص بها والمهيأ لها من أول يوم ، ورغم اهمال استعمال هذه المزولة اليوم فهي لاتزال صالحة للعمل بها والاستفادة منها لوضوح رسومها وبروز نقوشها ولا ينقصها شيء سوى نصب العمود القائم الذي يربط فيه الخيط المتصل بأرضية المزولة ، وهذا عمل بسيط لا يستلزم كبير عناء ، ويكفي فيه أن يصدر الاذن بالعمل بها ممن بيدهم الامر بوزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية فتتم الفائدة .

ومن المؤسف أن يبقى أثر علمي نافع كهذا مهملا متروكا لا يؤبه به ولا يلتفت اليه ، فاين المحافظة على تراث الاجداد ، ولاسيما في المجال العلمي والميدان الحضاري والتاريخي والديني أولا وبالذات

وتحمل هذه المزولة كتابة منقوشة بالخط المغربي الاندلسي تشتمل على اسم واضعها وتاريخه ولكنها بسبب تعرضها الطويل لحوادث الطبيعة وتقلبات الجو وتداول تغير أحوال الطقس عليها من حر وقر محيت تلك النقوش وتعذر على القارىء قراءة ما فيها ، وهذا لا يمنع من امكان استعمالها في ضبط الاوقات الشرعية ومعرفة حصة الليل والنهار وتحديد حركة الشمس في غاية ارتفاعها وشروقها

وغروبها وهي تعمل طيلة السنة على اختلاف الشهور والفصول فلا ينبغي أن تكون مهجورة .

ولقد عرف التاريخ العمل بهذه المزاول الشمسية منذ احقاب واحقاب فاثبت لنا وجود مثل هذه الآلة الزوالية منذ عهد الحضارة المصرية القديمة.وأقدم مزولة عثر عليها بأرض مصر يرجع تاريخها الى سنة 1500 ق م واصل المزولة هو اثر بابلي .

واما ما يحيط بالمنار من زخرفة الزليج الازرق والابيض كالعصابة فهو مما أدخل عليه حديثا أي منذ عهد أوائل الاحتلال فقط ؛ اذ يعود وضعه هناك الى جماعة من فرقة جيش (الجيني) من الجند الفرنسي الذي كان يحتل مخابيء ودهاليز الجامع الكبير فهؤلاء هم الذين اشتغلوا بتعصيب المنار بهذا الزليج سنة 1272 هـ/1856 م . كما انه يوجد بداخل المنار هذا حجرتان أولاهما بقرب مدخل المنار عن الشمال والثانية في آخر لوية من حلزون الدرج قبل الاخذ في الصعود لسطح المنار على السلم الاخير ، ولا شك ان لهذين الحجرتين وظيفة يقومان بها اقلها وقاية المؤذنين من اذى الحر والقر، واضرار الرياح والامطار الغزيرة كما انها في آن واحد يصلحان للانقطاع فيهما للعبادة والتبتل أو للدرس والتأمل .

واذا شئنا التعمق في استكمال دراسة فن المعمار عند المرابطين في تشييد الصوامع والمآذن أو المنارات فلننتقل الى أرض الاندلس لندرس ما تركته لنا نكبات الدهر وصروفه هناك من ذلك البرج الوحيد الذي بقي قائما بغرناطة وهو المعروف باسم (سان خوسية) وهو منار مسجد كان معروفا باسم جامع المرابطين . والجامع هذا محطم اليوم وبنيت مكانه كنيسة ولم يبق منه الا هذا البرج المستعمل اليوم للاجراس . فان صحت نسبته الى المرابطين فهو آخر منار بقي على وجه الارض منسوبا الى هذه الدولة ؟ . . وهو مربع الشكل طول ضلعه 3،85 ويدور درجه حول محور سمكه 41 م ونظام البناء فيه يقوم على نوع من القطع الحجرية المهذبة ملتصقة فيما بينها بالجص . ونصفه الاعلى منسج بالآجر وينفذ من طاقات صغيرة ضوء خفيف، وتنفتح نحو الجنوب نافذة كبرى في صورة عقد على شكل حدوة الفرس مع امتداد يتجاوز نصف القطر . . . وهذا في الحقيقة وحده غير كاف لاعطاء فكرة في الموضوع .

ومن طريف التحف الفنية التي نجدها موضوعة على نشر مرتفع بسطح هذه المئذنة ذلك النبراس الفخم الجميل الصنع والوضع . المستعمل للاعلام بدخول اوقات الصلواة الليلية وفي ليالي رمضان ليرى ضوءه مؤذنو مساجد العاصمة من أعلى الصوامع فيشرعوا في الأذان ، وذلك لان لهذا الجامع فضل وجود آلة المزولة به وعليها المعول في ضبط الاوقات الشرعية فيعتمد مؤذنو المساجد كعلامة أو اشارة تصدر من موقت الجامع أو باش موقت ليتحققوا من دخول الوقت .

لقد كان مكان هذا النبراس منذ العهد التركي القائم بميناء العاصمة القديم حيث مركز الاميرالية والادارة البحرية يستعمل لهداية السفن في ظلمات الليل والبحر الى موقع المدينة ومكان المرفأ ؛ ثم

استغنى عنه بصنع ما هو أضخم وأفخم . وحينئذ جيء به الى مكانه هذا الموجود به الى الآن ؛ وهو مصنوع من نحاس أحمر وبرنز ولطول العهد تغير لونه الى ما يقرب من السواد .

وكيفما دخلنا الى هذا المسجد ومن أى باب أتيناه قابلنا فناؤه وهو مربع تقريبا تشتمل مساحته على نحو 200 ميترا وبه قبتان تظلان ميضاءتين للوضوء ، احداهماعن يمين باب الفوارة - النافورة - والثانية عن الشمال . وهما وان كانتا متشابهتين فى شكلهما وظاهرهما ، فهما فى الحقيقة والواقع مختلفتان تماما من حيث التاريخ والصنع والمادة التى يقوم عليها حوض الوضوء . فالاصيلة القديمة هى التى عن يمين الباب ، وحوضها هو قطعة واحدة من خالص الرخام الابيض وقاعدته مزخرفة بنقوش منحوتة فيها . ويرجع عهدها الى العهد التركى حسبما تهدى اليه قواعد الفن ؛ وأما الاخرى فهى مستحدثة أخيرا فقط قلد فيها وضعية الاولى وشكلها ، وتاريخها لا يزيد عن بضع سنوات مضت . ومادة حوضها من الاسمنت . زيدت للحاجة اليها كما زيدت فى هذه الايام الحنفيات الموجودة عند مدخل باب الجنينة .

وعلى ذكرنا لباب الفوارة الذى هو أحد أبواب الجامع نقول بانه كان لهذا المسجد يوم تأسيسه ستة أبواب رئيسية مصارعها من الخشب الرفيع ، أربعة منها بشماله الغربى واثنان بشماله الشرقى عليها طاق من الرخام الابيض . ولكل منها اسم يعرف به . فأولها بالنسبة للقادم من ساحة الشهداء وهى الناحية الجنوبية الغربية للمسجد يعرف (بباب الجنينة) وهو أشهر الابواب اليوم وأكثرها استعمالا ويليه (باب البواقل) ولفظة بواقل هى جمع (بوقال) مؤنثه (بوقالة) آنية تصنع من فخار للشرب وأصل الكلمة لاتينى استعمله العجم والاتراك وشاع استعماله فى اللغة العامية بالجزائر وسبب اضافة هذا الباب الى البواقل هو ما كان به مصطفا من أوانى الشرب العمومية . ثم يلى هذا الباب (باب الفوارة) - النافورة - وهذا الباب يزيد على غيره من بقية أبواب المسجد بمصراعين كبيرين من الداخل ، وهما من الخشب المنقوش المزخرف بخطوط مشتبكة ، من نوع التشبيكات السداسية والثمانية والاشكال الهندسية المتعددة الاضلاع مما نجد مثله بمصراعى جامع العباد المرينى بتلمسان ولعله يكون من الزيادة التى زادها أبو الحسن المرينى بهذا المسجد ، كما أشار اليه ابن مرزوق الخطيب فى مسنده ومما يؤكد لنا هذا المعنى شدة الشبه بين هذين المصراعين ومصراعى النحاس اللذين هما موجودان بمسجد العباد الذى هو من مآثر هذا السلطان ؛ كما اننا نجد ما بين باب البواقل وباب الفوارة بابا مسدودا بمصراعية لا يحل ولا يفتح ، مكتوب على طاقة فى أعلاه بالخط النسخى المشتبك هذه الآية الكريمة : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » س : الزمر ، آية 7 ؛ ثم يلى هذا الباب (باب الصومعة) وهو قريب من المئذنة . وبالناحية الشمالية الشرقية نجد (باب الطحطاحة) - أى البطحاء - وباب الجنائز وكلاهما مسدود اليوم واستعمل باب الفوارة مكان باب الجنائز ؛ وفى مكان باب الجنائز أقيمت مقصورة للباش حزاب - رئيس القراء - ويقابل هذين البابين من الناحية الجنوبية الغربية مدخلان يؤديان الى الصحن

المحيط بالمسجد من الجنوب الغربي الى الشرق ومثلهما مدخلان آخران في جدار القبلة ، احدهما عن اليمين والآخر عن الشمال وقد زيد اليوم بينهما ثالث قرب مقصورة الخطيب . وكلها تؤدي الى الصحن المذكور .

وهذا الصحن موضوع فوق اقبية كانت تستعمل في مصالح البحرية لحماية المدينة بحرا فحطمت من أثر ما تسلط على الجزائر وما واجهته من حروب بحرية ؛ فبهذا الاعتبار نستطيع أن نطلق على هذا المكان اسم الرباط ؛ فهو في آن واحد مسجد جامع ورباط .

ثم ان هذا الشباك الموجود اليوم من فوق السور الموازي لهذا الصحن الخارجي عن جدار القبلة ليس هو بالاصيل ، وانما اتخذ زينة لهذه الواجهة يوم زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية (لوبى) الجزائر في أفريل سنة 1903 م — 1321 هـ — ومثله في ذلك ما نجده بالواجهة الشمالية الغربية من هذا الرواق الجميل ذي الستة عشر قوسا مرفوعة فوق سواري غليظة من الرخام الابيض المزخرف فانه أيضا مستحدث في أواسط القرن الثالث عشر هـ (1252 هـ/1837 م) أي عند ما حطم جامع السيدة وهو بجواره جي. بهذه السواري وكذلك الحوض المرمري الاسود الذي يتوسطها فوضعت بهذا المكان وفرشت أرضيته بالفسيفساء وقد كان هذا الحوض كما ادركناه مشتملا على ثلاثة أحواض فسقط منها اعلاها وأهمل شأنه فأتلفت قطعه وذهبت أدراج الرياح حيث لم يكن هناك من يأبه له أو يعتني به .

دشن هذا الرواق بمحضر البرانس الفرنسي (دونومور) — ديسنبر 1837 م وجي. يوم تدشينه بمجموعة من مسكوكات متنوعة لهذه الدولة من ذهب وفضة وبرونز من ضرب سنة 1836 م وأضيف اليها صورة الملك (لويس فيليب الاول) وحرر في ذلك عرض حال مفصل وجعل الكل في جرة دفنت تحت سارية من هذه السواري بقيت مجهولة الى اليوم ؛ ونذكر من بين انقاض جامع السيدة هذا المنبر الرخامي الجميل القائم اليوم بالجامع الجديد ومنبره الاصلي هو المستعمل كسلم يصعد عليه الى سدة القراء بوسط المسجد .

على أن هناك من يذكر وانه قد سبق لهذه الواجهة الشمالية الغربية من الجامع الكبير قد سبق ان لحقتها ترميمات واصلاحات متعددة بسبب ما تسلط على المسجد من وقع قنابل الاعداء ولا سيما سنة 1682 و 1688 و 1732 م بحيث كثر غزو الاجانب واعتداؤهم على الجزائر .

ومما يشتمل عليه هذا المسجد من عناصر العمارة عنصر آخر مميز للفن الاسلامي ، ألا وهو بناية القبة ، فالقبة عرفها المسلمون منذ أن أقام عبد الملك بن مروان قبة الصخرة بالقدس الشريف (72 هـ/691 م) وكانت معروفة من قبل عند البيزنطيين والرومان . وفي مسجدنا هذا تجد ستة قبب أربعة بداخله ، واثنان بخارجه ، أولها قبة المحراب المثمنة الاضلاع ومثلها قبة مقصورة المؤذنين . وهما لاشك من العهد التركي ذلك أن قبة المرابطين الموجودة بجامع تلمسان تخالفهما تماما فلذلك أنا لا أتردد في نفيها عن الطراز المرابطي وكذلك قبة النافورة القديمة التي بفناء المسجد

فهي كذلك لا تعاصر المسجد . أما الاخرى التي بجانبها فقد قدمنا الكلام عنها وانها حدثت أخيرا فقط ؛ وأما ما بخارجه فقبة مقصورة المفتي وقبة المحكمة أقدمهما قبة المقصورة وهي تركية أيضا أما الاخرى فحديثة كما ذكرناه .

ولا يفوتنا ان نشير الى ما خلف جدار القبلة وراء المحراب من تلك الحجرة المستطيلة الشكل ذات البابين باب داخل المسجد عن شمال المحراب ومنه يخرج الخطيب يوم الجمعة وفي العيدين جعل تفاديا من تخطي الرقاب . وباب خارجي يؤدي الى الصحن المحيط بالجامع ؛ واذا نظرنا الى تصميم هذه الحجرة وجدناه أصيلا في تشييد الجامع وبناية هيكله ، فسقف الحجرة منبسط من خشب يعلوه سطح من الجص على غرار سقف منازل دور حي القصبة بأعلى المدينة . وكذلك جميع جوانب الحجرة

وبناء مثل هذه الحجر الملاصقة لجدار قبلة المسجد ليس بالامر الجديد في تاريخ عمارة المساجد وبخاصة مساجد صدر الاسلام فهذه دار الامارة التي بناها سعد بن أبي وقاص بجامع الكوفة 17هـ بناها خلف جدار القبلة . ملاصقة للجدار وكذلك ما صنعه زياد بمسجد البصرة 53 هـ ومنه ما أمر به معاوية ابن أبي سفيان من اتخاذ المقاصر بالمساجد لما طعنه البرك بن عبد الله بسيفه . وهذا ما كان قد أمر به الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه خشية أن يقع له مثل ما وقع للخليفة قبله .

هذا واننا مع هذه البسطة التي قدمناها عن تاريخ المسجد الكبير من ناحية المعمار والتاريخ فاننا مع ذلك مدينون الى ما يحتوي عليه من الاثاث وأهم ما هنالك كله منبره ، فهو ياقوتته الوهاجة والزمرذة اليتيمة في هذا الجامع ذلك المنبر الضخم المسدول عليه حجاب حجرته الخاصة به عن يمين المحراب ؛ هذا المحراب اليوم يعد ذخيرة من أنفس الذخائر التي تركها لنا الاجداد فهو أقدم منابر الاسلام باستثناء منبر جامع القيروان ولا يعلم له نضير سوى ما بجامع القرويين بفاس وما أشبهه بجامع الكتبيين بمراكش . ولا يعاصره الا هذه الاجزاء المتفرقة من منبر جامع ندرومة الموجود بعضها بالمتحف الوطني للآثار بالعاصمة ؛ ويرجع تاريخ منبر الجامع الكبير الى أوائل القرن الخامس الهجري حسب ما هو مزبور بالنقش البارز وبالخط الكوفي المتشابك على خشبتي جانبي مدخله وبأعلاه أيضا ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، تم هذا المنبر يوم فاتح رجب من سنة (سبع) واربعمائة عمل محمد ، وكان لطول العهد وتراكم الاصباغ عليه واختلاف مواد الصبغة وألوانها مع عدم الاعتناء التام وقلة المبالات بشأنه ان لحق بهذا النقش بعض الغموض، على كثير من علماء الآثار وغيرهم قراءة كلمة (سبع) الواردة في النص ، فمنهم من قراها سبع بالباء الموحدة بعد السين . ومنهم من قراها بالتاء المثنات من فوق قبل السين،ومنهم من قراها تسعين ؟ وكيفما كان الامر فلا يخرج تاريخ المنبر هذا عن القرن الخامس الهجري . سواء أكان ذلك في أوائل القرن أم في آخره ، وجزم العلامة الاثري (مانويل جوميث مورينو) بأنه سنة تسعين (1097 م) وانه من مآثر يوسف بن تاشفين حيث قال : «وأول عمل فني قام

به يوسف بن تاشفين فيما نعلم منبر المسجد الجامع بالجزائر . . . » نرجو ممن بيدهم الامر أن يعتنوا بهذه الدرة اليتيمة حتى لا يلقها أذى أو يتسرع اليها البلى .

والمنبر هذا مصنوع من خشب الارز الصلب وأجزاؤه تناهز 120 قطعة وبسبب التآكل والفناء لم يبق منها الا نحو 48 قطعة أصيلة موضوعة فى ايطار ما بين مربع ومثلث ومنحرف . وكل ما عداها فهو مما استحدث فى ترميمه . وقوام زخرفته ترجع الى نوع (الارابيسك) أى حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة مزينة بخرص من الزهيرات واشجار منحوسة تمثل نباتأوراق الكرم والاقنثا وتزاويق ملونة فى أسلوب مغربى اندلسى محظ لا شائبة فيه لفن اجنبى او حضارة اجنبية أخرى عنه أبدا . وهو ما يذكرنا بما عليه زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وما نجده أيضا فى قصبة

ملقة من أرض الاندلس ، وكلها مغروزة فى المنبر ومنقوشة بكيفية بنائية تخالها ركيزة للمنبر . وهو فى زخرفته هذه يمثل لنا الفترة الانتقالية التى تربط المشرق بالمغرب .

وتتميما للفائدة واستكمالا لتاريخ هذا المسجد نذكر على سبيل الاجمال ما كان به من السدنة والموظفين ، فقد كان يبلغ عددهم سبعة وستين موظفا وهم كما يلى : مفتى واامامان ، وتسعة عشر مدرسا،وثمانية عشر مؤذنا وثمانية حزابين – قراء – واربعة رجال الحضور – قراء صحيح البخارى – وثلاثة وكلاء لما كان له من الاوقاف والاحباس ، وثمانية منظفون ، وثلاثة موقدى المصابيح ، وواحد لحمل عصا الخطيب ، وبهذا المسجد كان ينعقد المجلس الشرعى الاعلى للنظر فى النوازل والاحكام الشرعية التى تجرى بين يدى القضاة ، واعضاء سبعة رئيس وهو المفتى الحنفى وكانت الرئاسة لهذا بحسب انه يمثل مذهب الحكومة التركية ، والمفتى المالكى ، والقاضيان حنفى ومالكى وباش عدل ، وعدل مكاتب وآخر يمثل السلطة الحاكمة .

ولقد حمل هذا المسجد رسالة الاسلام قرابة الف سنة فتخرج منه جمهور من العلماء والادباء وانصار دين الله وحماة الحق وذادته حملوا مشعل الثقافة الاسلامية بهذه الديار . فكان بذلك خير سلف لهذا الخلف . وما أجدر بهذا الخلف ان يعمل على ضوء قول القائل :

نبنى كما كانت اوائلنا
تبنى ونصنع فوق ما صنعوا

عبد الرحمن الجيلالى

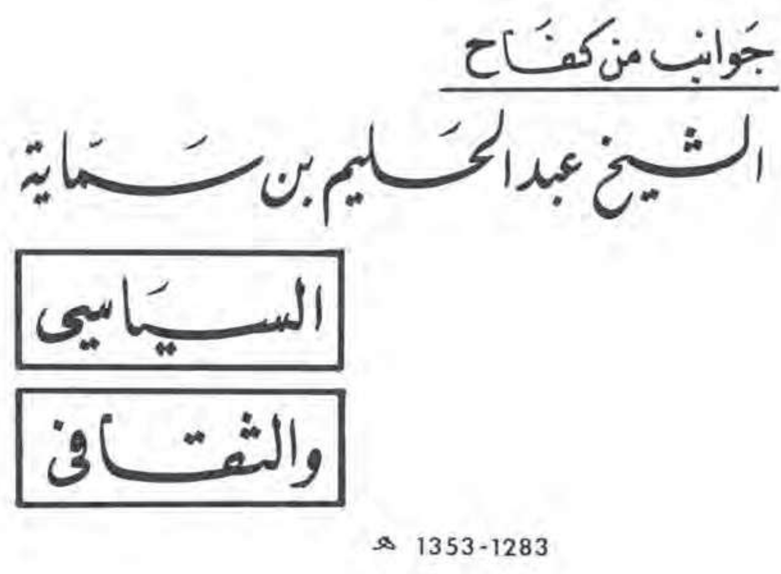
مراجع البحث :

تاريخ الجزائر العام ج 1 عبد الرحمن الجيلالى ط الجزائر 1971 م

الترجمانة الكبرى للزيانى ط المغرب الاقصى 1967 م

المسالك والممالك عبد الله البكرى ط الجزائر 1911 م

الفن الاسلامى فى اسبانيا (معرب) مانويل جوميث مورينو ط القاهرة



1353-1283 هـ

1933-1866 م

عبد الرحمن الجيلالي

من أوجب الواجب علينا وقد أخذنا العهد على أنفسنا حسبما سطرناه على واجهة كتابنا « تاريخ الجزائر العام » من ذكر نبذ من تراجم العبقريين وأرباب القرائح لمشاهير الجزائريين عبر العصور ، وقد اثبتنا هذا فيما تقدم نشره فيما طبع منه فى الجزئين الاولين من أجزاء الكتاب الاربعة . ولقد سرنا فى الجزء الثالث والرابع على نمط الطريقة التى سلكناها من قبل ، فترجمنا لطائفة من صفوة نبغاء الجزائر وأفذاذها الممتازين المبرزين فى مختلف الميادين وعلى اختلاف مشاربهم وتنوع

(*) فصل من الجزء الرابع لكتاب « تاريخ الجزائر العام » لتلميذه الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي الذى سيظهر قريبا

نشاطهم ، فكان لزاما علينا ونحن نؤرخ فى هذا الجزء ـ الرابع ـ من الكتاب للجزائر المعاصرة ان لا نغفل كتابنا هذا من ذكر بطل من أبطال الجهاد الجزائرى فى سبيل الدين والعلم والوطن ، وان لانحرم قراء هذا التاريخ من الاطلاع والتعرف على شخصية فذة هى من صميم أبناء الجزائر ـ العاصمة ـ ذوى النفوس الأبية والشهامة الاسلامية والأفكار الحرة الزكية والهمة الشماء والمعارف الواسعة ، ذلكم هو عالم جيله وامام وقته شيخنا العلامة المحقق الاستاذ عبد الحليم بن سماية سقى الله ضريحه ·

واذا ذكر الشيخ عبد الحليم بن سماية لدى من رآه أو عرفه أو عاصره أو سمع به فلسرعان ما ينبهر لسماع اسمه وينصرف ذهنه فى الحال الى ما يتصوره أو يتمثله فى ذهنه ومخيلته من المثل العليا فى النبوغ والفضل والعلم الصحيح والتقوى والشجاعة والوطنية والكمال النفسانى وطهارة الروح ودماثة الاخلاق والنبل والنزاهة والاباء ، فاسمه رحمه الله لا يزال ولا ريب عند من عرفه عنوانا لهذا كله ، وليس يصح من أحد أيا كان ممن تكون له أيى صلة بالحركة العقلية أو الاجتماعية أو السياسية لهذه البلاد أن يجهل مكانة هذا الرجل ومنزلته السامية فى المجتمع الجزائرى ، هذا ان لم يكن يعرف عنه الكثير والكثير من مواقفه المشرفة وخصائصه الكريمة ، وهذا أمر يعترف به حتى الأجانب ذوى النفوذ من خصومه الفرنسيين المعمرين ممن كان يجهر أمامهم وعلى مرأى ومسمع منهم بكلمة الحق فيبهتهم ، ولا يحجبه عن الصراحة بذلك هيبة مهيب ولا رهبة رهيب ، الى ما أوتيه من ثبات فى الجنان وسحر فى البيان ·

ومن ذلك ما يشهد له به موقفه الصارم الذى وقفه تجاه الاستعمار الفرنسى يوم ان جاء هذا بمشروعه لتجنيد الشعب الجزائرى فى الجيش الفرنسى ، فعارضه الاستاذ معارضة شديدة حتى انه هم بمغادرة الوطن والهجرة منه الى المشرق ان تم تنفيذ هذا القانون الاجبارى ، وفعلا لما شعر بتصميم الحكومة على تنفيذه أخذ يسعى فى قطع جميع العلائق التى تربطه بوطنه وأقر بائه وقدم استقالته من وظائفه فى التدريس سواء فى ذلك المسجد الجامع أو المدرسة وباع مسكنه الذى كان ان ورثه عن أبويه وعرض أثاث منزله على السوق واهدى كتبه ولم يستثنى منها سوى المصحف وتفسير الجواهر الحسان وودع اصدقاءه واستعد للرحيل لولا ان وقف فى وجهه اهل الجزائر واعيانها مستعطفين ومتوسلين قائلين له : ان هجرتنا انت فالى من تتركنا ؟ ! ··· فاهتز الشيخ لهذا الموقف المؤثر الرهيب وعدل عن رأيه مكبرا لهم كريم اخلاقهم وخالص وفائهم ·

ثم انه جاء اليوم الذى استدعت السلطة الفرنسية فيه الشيخ لسماع رأيه الأخير فى الموضوع واجتمع الملأ بدار البلدية فى الجزائر يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو ١٩١١ م وحضر ذلك المجلس كبار ضباط فرنسا وحكامها وحضره جمهور من الناس وكثير من المسلمين وكان الى جانب الشيخ فضيلة مفتى الحنفية الشيخ محمد بوقندورة وجاء دور الكلام فاستنطق الشيخ عبد الحليم ، فأول ما فعل ان توجه الى الجمهور قائلا : أيها الناس أتأذنون لى أن أتكلم بالنيابة عنكم وعن اذنكم ، ام لا تأذنون فأسكت وأصمت ؟ ·· فكلهم أجاب ! بلسان واحد : نعم ·· نعم ·· تكلم تكلم أيها الاستاذ ! فنهض قائلا : أى هؤلاء ـ مشيرا الى جماعة المسلمين لو انهم ارتضوا الخدمة العسكرية للدولة الفرنسية فانهم لا يكونون بذلك مسلمين

بجميع معنى الكلمة ، ولو أنهم مع ذلك ينالون من الحرية ما يخول لنبغائهم التربع على دست الجمهورية ـ الفرنسية ـ وانطلق يستدل على صحة كلامه بما جاء فى كتب الشريعة ونصوص القرآن والسنة ..

ثم قال : ودعوى ان ذلك يدفع بفرنسا الى منح الحرية السياسية للمسلمين فهى دعوى باطلة ، واعلموا انه اذا منح لهم ذلك مقابل تجنيدهم تكون هنالك الضربة القاضية على القومية الاسلامية والجنسية معا ، اذ يقع بذلك اندماجهم فى الأمة الفرنسية نهائيا ! ... وهنا حصلت فى المجلس ضجة واغتنمها بعض المتفرنجين فاحدث تشويشا حول خطاب الشيخ وقال : ان هذا الرجل قد اسهب فى الموضوع على حين أن المسالة لا علاقة لها بفلسفة القرآن ، فرد عليه الشيخ كلامه وقال ـ مشيرا الى رئيس الجلسة وهو يومئذ الكاتب الفرنسى الفنان م . دوغالان

انى اتكلم مع رجل عالم فدعونى انهى خطابى مع جنابه ، فانه يدرى ما أقول ويدرك الامور، والا فتكلموا انتم معشر الخشب المسندة !! ونهض الشيخ ميمما نحو باب القاعة عازما على الانصراف من القاعة فاسترده رئيس الجلسة مظهرا أسفه الشديد على ما حصل وندبه لاتمام خطابه فعاد الشيخ لاتمام حديثه مستوفيا لمقاصده ومعانيه ، ولما أتمه صاح الجمع من المسلمين ومن بينهم فضيلة المفتى الحنفى بأنهم موافقون على رأى الشيخ الذى جاء فى خطابه هذا حول رفض مشروع التجنيد الاجبارى فى الجيش الفرنسى (١) .

نرى من خلال ذلك ان الشيخ كان من ألد أعداء الاستعمار ، وانه كان من القوم الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولولا تمسكه بنصر الله واعتصامه بحبله المتين للعبت السياسية الفرنسية الاعيبها وأوقعت به فى مجاهل الفتنة...

ولقد اشتهر رحمه الله بتفرده من بين علماء عصره بهذه المنقبة الجليلة منقبة الشجاعة الادبية والبطولة التى كانت تظهر عليه عندما يجابه طغاة الحكام المستعمرين وقد سجلها له التاريخ بكل فخر فاثبتها الاستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس فى كلمته الموجزة التى نعاه بها يوم وفاته على صفحات الشهاب (م ٩ ج ٢) اذ قال : « ان الاستاذ الشيخ عبد الحليم ابن سماية عالم عامل غيور على دينه ووطنه مخلص لهما ... فرحمه الله وجازاه عن العلم وخدمته واحترامه والاعتزاز به خيرا ... » وكما شهد له بهذا العدو قبل الصديق .

وأصدق وصف للشيخ هو ما جاء فى كلمة العالم القرآنى الاستاذ احمد بن محمد التجانى وهو من أخص تلامذة المترجم ومريديه الاكرمين فيما كتبه عن شيخه بمجلة التلميذ ٣ ـ ٤ (السنة الثانية) حين بلغه نعيه وكان اذ ذلك بالمغرب الاقصى فقال حفظه الله « انه عالم الاتقياء وتقى العلماء.. انغلق ذلك الفم المتعطر بذكر الله وكان عينا فياضة بالمعارف يشرب منها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، سكت ذلك اللسان الفتان وكان حجة أهل الايمان فى الديار الجزائرية وعندليب رياض الآداب بتلك الربوع ، اغمدت بقية ذلك السيف اليمانى لا بل تلاشت تلك البقية التى ابقتها الايام من ذلك البطل ، ولا غرابة ولا استعجاب فان أصدق ما يصح تعريفه به انه كان نفس غالب فى جسم مغلوب ، عرفنا ذلك منه نحن معشر تلامذته بما كنا نشاهده من أحواله

1) جريدة الحضارة 70 ـ 18 ـ 8 ـ 1911 م ـــ مجلة الثقافة 3 السنة الاولى 1391 هـ ـ 1971 م

فى أثناء الدروس كلما عن لنا مثل عربى من نحو : النار ولا العار ، المنايا ولا الدنايا ، أو عنت لنا آية من مثل قوله تعالى : رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، نرى مثل تيار كهربائى ينبعث من أعماق الاستاذ ويلوح كالبرق الخاطف أثر عامله القوى على صفحات محياه ...

وحيث يتأكد على من يتعاطى لتدوين تراجم الرجال أن يذكر أطوار حياتهم العامة ويتعرض الى ما كانوا يعيشون عليه ويحيونه ككل كائن حى منذ الزيادة الى الوفاة وجب ان نذكر مجمل تفاصيل حياة شخصية الشيخ فاليكها أيها القارىء الكريم كما يلى :

تنتمى أسرة الشيخ عبد الحليم الى آل سماية وهى أسرة من الأسر التركية العريقة بالعاصمة ويرجع أصلها الى أتراك بلدة ازمير ، وهنا عندنا بالعاصمة أسرتان مشتركتان فى التلقب بهذا اللقب وهذه النسبة ، اذ كل منهما تدعى « ابن سماية » وكلتاهما من أصل تركى ، وهما فى نفس الامر والواقع متباعدتان كل البعد عن بعضهما بعضا فى النسب ، فأسرة الشيخ عبد الحليم ترجع فى نسبها الى حسن خوجة قاطع السكة بدار الامارة الجزائرية ، على عهد الاتراك ، وهى أكثر شهرة بهذا اللقب ـ ابن سماية ـ من الثانية التى ينتمى اليها الشيخ يوسف بن سماية ، فان لقب هذه الحقيقى هو « بكير خوجة » وهو اللقب الرسمى الذى يجرى عليه العمل الادارى فى جميع أوراق التعريف الرسمية لكامل افراد هذه العائلة ، وان كانت هى كذلك تعرف بابن سماية وليس عليه العمل ، بخلاف أسرة الشيخ عبد الحليم فانها لا تعرف الا به ، ولا أدرى كيف حتى اشتركتا هاتان الاسرتان فى لقب واحد ؟ ..

اما والد الشيخ المترجم فهو على بن عبد الرحمن بن حسن خوجة ، وكان رجلا مثقفا ثقافة عربية اسلامية تتماشى مع العصر فهو ممن كان أخذ عن العلامة الشيخ مصطفى الحرار الجزائرى وكان يشغل منصب التدريس بالمساجد فكان أولا مدرسا بجامع سفير ثم انتقل الى مثل وظيفته بالجامع الجديد بالعاصمة ، واما والدته فهى كريمة المحتد من آل الشيخ مصطفى ابن الكبابطى آخر مفاتى المالكية بالجزائر على عهد الاتراك ، وهو الذى ابعدته السلطة الفرنسية واقصته عن البلاد سنة ١٨٤٣ بسبب ما اتخذه من موقفه الصارم فى رفضه لقبول وضع يد فرنسا على الاوقاف الجزائرية فتوفى رحمه الله بمدينة الاسكندرية غريبا ، فطوبى للغرباء .

ازدان بيت الشيخ على بن سمايه بمولوده عبد الحليم سنة ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م فاعتنى والده بتربيته تربية أساسها الدين والاخلاق ، وحينما انس منه الاقتدار على مزاولة تعلم القراءة والكتابة أخذه الى كتاب بحى القصبة يعرف بجامع بالرقيسة ـ أو ابن رقيصة ـ وكان شيخ الكتاب وامام الجامع اذ ذاك هو الشيخ المبارك الميمون حسن بوشاشية ، وعليه تخرج مترجمنا فى حفظ القرآن الكريم كما تخرج على يده اغلب علماء الجزائر وحملة القرآن بها يومئذ ، وفى نفس الوقت كان والده يعمل على تلقينه مبادىء العلوم وتوجيهه فنشأ ابنه عبد الحليم على حب الفضائل والتناغى بالعلم والعمل ، وكان يصحبه معه الى مجلس درسه بالجامع ، فاخذ الغلام العربية والفقه والتوحيد عن والده ولازم مشائخ وقته وعلماء بلده مثل الشيخ على بن الحاج موسى والشيخ محمد القزادرى والشيخ على ابن الحفاف والشيخ ابن

ظاهر الوترى المدنى والشيخ قدور باصوم والشيخ طاهر قيطوس وحضر دروس الشيخ محمد سعيد ابن زكرى وغيرهم فأخذ عن هؤلاء فنونا من العلم فى اللغة وآدابها وعلوم الشريعة وفنونها كما انه تلقى الحساب والفرائض عن صهره الشيخ على بن حمودة ، وعلم الربع المجيب فى الفلك والتوقيت ومواقف العضد كلاهما عن شيخنا أبى القاسم الحفناوى صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف ، وأخذ علم الاسطرلاب عن الاستاذ عارف بك .

وتشوق الشيخ الى معرفة علم الحكمة والفلسفة على طريقة قدماء الفلاسفة من مشائين واشراقيين ، ولا سيما فيما يتصل من بحوثهم فى الالهيات ، فتعلقت همته بدرس الفلسفة اليونانية وانصرف ذهنه الى طلب ما يسمونه بالمقولات العشر المنسوبة الى أرسطو الذى حصر مباحثه فى هذه المطالب العشرة ، على خلاف ما مشى عليه المتكلمون من عدها ثلاثة فحسب ، والباقى عندهم أمر اعتبارى فقط كما هو مقرر فى مضانه من كتب الحكمة والفلسفة القديمة ، فتعاطى مترجمنا لمطالعة كتب هذا الفن ودفعه حماسه العلمى الى البحث عن استاذ ماهر يلقنه هذا العلم ، فأشير عليه بالاتصال بعالم جليل هو صديق حميم لوالده منذ ايام الطلب ، ذلك هو الشيخ محمد ابن عيسى الجزائرى وهو يومئذ بتونس مهاجرا (٢) فشد اليه رحله ونزل عليه ضيفا محببا مكرما وتلميذا مدللا ، لا سيما وقد جمعت بينهما المناسب فاكرمه الاستاذ ابن عيسى وانزله من نفسه منزل الابن فلازم عبد الحليم منزله مكبا على الدرس والتحصيل ولم يغادر المكان متفسحا أو متجولا فى رحاب المدينة حتى يتعرف الى معالمها الشامخة وآثارها الرفيعة وأسواقها الغنية الثرية أو يسمح على الاقل بنظرة الى جمالها الفتان ، كل ذلك لم يحرك منه ساكنا ، حتى انتهى من اتقان فنه المطلوب والمرغوب فيه فعاد الى وطنه دون أن يعرف عن تونس شيئا ! ولما حل بالجزائر ساله اصدقاؤه ورفاقه ان يصف لهم تونس ؟ فقال لهم سلوا عنها من رآها ! ! ... وهذا نهاية الحب والشغف والتفانى فى التعلق بالمبدأ بل هى التضحية نفسها بكل حلو ولذيذ وبكل متعة فى سبيل العلم ، وكان ممن اخذ عنهم من كبار العلماء أيضا علامة القطرين الشيخ محمد المكى ابن عزوز حينما كان هذا الاستاذ يتردد على الجزائر بحكم انه جزائرى الاصل وله فيها رحم وخؤولة ، فكثيرا ما كان يرحل من تونس الى الجزائر ليزور خاله الشيخ أبا القاسم الحفناوى ويتصل ببنى عمه وقرابته فى برج بسكرة وبوسعادة فكان مترجمنا ينتهز هذه الفرص ليجتمع به فيستفيد منه ، فهؤلاء هم أساتذة شيخنا الذين

---

2) هو من اكابر بلغاء الكتاب وعلماء اللغة ومشاهير المترسلين ولد بالجزائر سنة 1243 هـ ـ 1828 م وكان فيمن اخذ عنهم العلم بها العلامة الشيخ حميدة العمالى ، هاجر الى تونس سنة 1272 هـ وهناك انقطع للعلم معلما ومتعلما وتولى رئاسة الكتابة العامة بالوزارة الكبرى سنة 1276 هـ وترقى الى خطة الانشاء سنة 1302 هـ وعرض عليه منصب رتبة حاكم مجلس الجنايات فأبى وامتنع مؤثرا خدمة العلم والادب ، كان ذا اخلاق كريمة مع عفة ونزاهة وزهد ، وله تآليف لطيفة ظريفة ، منها الرسالة الموسومة بالثريا لمن كان بعجائب القرآن حفيا ، مطبوعة بتونس 1307 هـ واخرى اسماها : الماس فى احتباك يعجز الجنة والناس ، وهى مطبوعة ايضا بتونس 1306 هـ وقصيدته الوسيلة فى مدح اهل الفضيلة ، طبعت بتونس سنة 1306 هـ ، وكانت وفاته بالمهجر سنة 1310 هـ رحمه الله

استقى منهم معلوماته وكلهم كان اماما وحجة فى فنه ، فما بالك بمن يتخرج عن مثل هؤلاء ؟

وما بلغ السنة الحادية والعشرين من عمره حتى كان قد بنى بكريمة من كرائم الأسر الجزائرية العريقة وهى كريمة السيد محمد بن مصطفى غياطو قاضى المالكية بالعاصمة واسمها عائشة فانجبت له ولدين : سعد الدين ومصطفى وثلاث بنات . واحترف الشيخ مهنة التجارة فاكترى دكانا لبيع التبغ بحى باب الواد تجاه جامع على بتشنى فكان يعول أهله ويرتزق منه ومن ثمن كراء منزل له كان يدر عليه اربعين فرنكا مشاهرة ، ولم يلتفت للوظيفة حتى دعى اليها فتولى خطة التدريس بالمدرسة الرسمية، وذلك فى يوم ٤ ديسمبر ١٨٩٦م وعمره يومئذ لايتجاوز ثلاثين سنة ، فكان فيها أول من أقرأ كتاب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة للجرجانى ، والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى وتلخيص المفتاح لجلال الدين القزوينى ، والبصائر النصيرية فى المنطق لابن سهلان ، والمفصل فى النحو للزمخشرى وغيرها من الكتب المعتبرة عند اهل الخبرة والعلم ، فكان بذلك رحمه الله أول من أدخل نظام اصلاح التعليم العالى بالجزائر ، كما أنه كان أول من اهتم بتدريس رسالة التوحيد للامام محمد عبده وختمها فى ظرف سبعة أشهر .

ولما زار مؤلفها الجزائر صيف سنة ١٩٠٣ م جمادى الاولى ١٣٢١ هـ كان شيخنا أول من اسرع الى اقتباله وملازمته ليلا ونهارا فلم يفارقه طيلة ايام اقامته بالعاصمة حتى غادرها الامام الى تونس (٣) ومدحه بقصيدة بعثها اليه بالقاهرة نشر بعضها فى مجلة المنار المصرية فى عددها الصادر يوم ٦ ذى القعدة ١٣٢١ هـ ٣/٢/١٩٠٤ م وقدم لها صاحب المجلة الاستاذ محمد رشيد رضا بقوله : « قصيدة عالم جزائرى بل اشهر علماء الجزائر مدح بها الاستاذ الامام وأرسلها اليه فى القاهرة من عهد قريب فسرنا منه أنها آية من ايات صلة علماء الاسلام بعضهم ببعض فى الاقطار المتباعدة وشعور أهل المغرب منهم بما يشعر به اهل المشرق من قدر الاستاذ الامام ، واننا نقتطف منها هذه الابيات وأود منها عشرين بيتا وهى تفوق فى عددها الخمسين واليك أيها القارى مقطوعة منها . قال يخاطب الاستاذ الامام :

فانت لنا شمس تنير على المدى
اتى نورها من غير أن نتطلعا

ادير بذكراك الذى منك قد مضى
فاشرب كأسا بالصفاء مشعشعا

يذكر فيك المجد والعلم والتقى
فانظر من علياك عرشا مرفعا

وتلوى الى تلك المجالس فكرتى
فتترك قلبى بالخيال ممتعا

محافل كان العلم فيها مجالسى
أسامر بدرا بالجلال تقنعا

فاسمع فصلا من حكيم وحكمة
اذا ما بدت خرت ذرى الزور ركعا

---

3) رايت بعض من كتب عن زيارة الاستاذ الامام للجزائر وعن الدرس الذى القاه بها ، فى تفسير سورة والعصر ، فقال عن الدرس انه القى بالجامع الجديد ، والصواب ان الدرس كان بجامع الحاج مصطفى الاكحل ـ الحر ـ الكائن والقائم الى اليوم بحى الحامة ـ بيلكور ـ بالقرب من ضريح الولى الشيخ سيدى محمد بن عبد الرحمن الازهرى

فما بـال أقـوام هدى اللـه عقلهم
يمـارون فيـه والسحـاب تقشعـا
الخ ٠٠٠٠

واثنى صاحب المنـار على صاحب القصيدة فى الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامـام حينمـا ساق الحديث عن زيارة الامـام للجزائر فقـال : « وقد نال مراده فاجتمع بخيار العلمـاء والعقلاء الذيـن يقدرون الاصلاح قدره ومـن خيـارهم فى الجزائـر الشيـخ محمد ابـن الخوجـة صـاحب المصنفات والاستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية ٠٠ وقد رأى هذين الفاضلين وغيرهما مغتبطين بالمنار ولا سيما دروس العقائد التى ينشرها تحت عنوان « أمالى دينيـة » ٠٠٠ وقالوا لـه اننـا نعده مدد الحياة لنا ، فاذا انقطع انقطعت الحياة عنا (٤) ٠

وهذه صورة شمسية التقطت هنا بالجزائـر للشيخين عبد الحليم ومحمد عبده وهما جالسـان على أريكة واحدة جنبـا الى جنب ممـا يدل على كامل الصفاء والود وتأكيد العلاقة الاخوية بينهما ٠ وخلفهما اقرباء الشيخ ابـن سماية وولد الحـاج مصطفى الاكحل ٠

ولما غادر الشيخ محمد عبده الجزائر وصـل بصقلية نـزل « بلرم » ومنهـا خاطب الشيخ عبد الحليم ابن سماية برسالة مؤرخـة فى ٣٠ جمادى الاخيرة سنة ١٣٢١ هـ وبها نعلم مقدار منزلةالشيخ العلمية كمـا يراها الاستاذ الامـام الشيخ محمد عبده جاء فيها : « حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم بن سماية ٠٠٠ لا يزال يؤنسنى مثـال من علمك وفضلك ويعجبنى رفيق رقيق من كمالك ونبلك وما كان ذلك ليفارقنى بعد ان صـار بضعة منى ، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لى منهـا لعلمت مقدار ما آتاك الله من نعمـة العقل والادب ولعرفت انك ستكون امـام قومك تهديهم ان شـاء الله سبل الرشاد وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين حظ المعاش وحظ المعاد ، هذا هو أملى الذى أسأل الله تحقيقه ، فخذ مـن الوسائل مـا يبلغك بفضل الله غاية ما يرمى اليه استعدادك ٠٠٠الخ٠٠٠(١)

واشتهر الشيخ عبد الحليم من بين اسـاتذة عصره بالصلابة فى الدين ودفع شبـه المعارضين بما يستنبطه من الادلة اليقينية ، فانه كـان مهمـا تعرض عليـه بعض الشبـه التى يدلى بهـا بعض الناس ــ نحو الاسلام ــ واغلبهم كـان من مشائخ الافرنج بالجامعة الجزائرية حينما كانوا يتصلون بتلامذة الاستاذ بالمدرسة الا ويتصدى لهـا الشيخ بالمناقشة والحوار العلمى حتى يدحضها بنـاصع برهانه وصحيح استدلاله ، وهكذا كان رحمه الله فى كل موقف يقفه تجاه الملحدين وضلالات المبشرين واعتراضات المبطلين ، ولا عجب فى ذلك من رجل ثاقب الذهن مثله رزق البراعة فى البيان والاهتداء الىناصع البرهان ٠

وفى ١٥ اكتوبر ١٩٠٠ م اسندت اليه خطـة التدريس بالجـامع الجديد مكـان والده المـرحوم الشيخ على بن سماية فشمر الشيخ عن ساعد الجد والاجتهاد وكرس حياته لخدمة الملة الاسلامية واخذ على عاتقـه القيـام بالمنصبين احسن قيـام فقسم ساعات العمل اليومية بين المدرسة والمسجد، فجعل منها للمسجد ١٢ ساعة فى الاسبوع وللمدرسة ١٤ ساعة ، وشرع فى تدريس علوم اللغـة والشريعة والمنطق بما سبق ذكره من الكتب ، وبما أنه رحمه الله كان حنفى المذهب فانه كان يقتصر فى دروس الفقه على كتب الشرنبلالى والقدورى والطحطاوى

1) فانظرها فى تاريخ الاستاذ الامام ج 2 ص 617 ط القاهرة 1344 هـ
4) تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ص 872 ط دار المنار القاهرة 1931 م

وابن عابدين والنسفى ، وعندما يستشار من طرف العامة فى اختيار كتاب لهم فى الفقه ، فـانه يشير عليهم برسالـة ابى محمد بن أبى زيـد القيروانى المالكى •

وكان فيمـا اخذناه عنه وتلقيناه منـه مـن الكتب التـى اقرأهـا فى تدريسه بـالمسجد خـلال سنـوات ١٣٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ هـ : ورقـات امـام الحرمين فى الاصول ، وشطرا من تنقيح القرافى ، ورسالة العضد فى علم الوضع ، وشرح السجاعى على المقولات العشر ، والجوهر المكنون فى البلاغة للاخضرى بشرح مؤلفه المخطوط ، ونظم الخزرجية فى العروض ، وقطـر الندى فى النحو ، وتفسيـر سورة البقرة بالجواهر الحسان للثعالبى ، وهذا من غير ما كان يلقيه من دروس عامة للعامـة فى سـائر الامكنـه العامـة والخاصة وفى المحـافل والنوادى وحيثما حل وارتحل وفى أيى بلد وجد سفرا وحضرا •

وانى لمعتز وفخور بما اتحفنى بـل وشرفنى بـه مـن تفضله على بكتابة اجـازة بخطـه أجازنى فيها بما أجازه بـه والده وجمع مـن مشائخه فى روايـة صحيح الامـام البخـارى متصلـة السند المسلسل بشيـوخ العلـم والحديث على الطريقـة السلفية •

وكان درسـه رحمـه اللـه جزلا بليغا يتكلم بفصاحة وعبارة منقحة بليغة والفاظ فخمـة وذلك يرجع الى غزارة مـادته اللغويـة التى كـونها أو تكونت فيه بسبب انكبابه على مطالعة معجم لسان العرب حتى كاد أن لا تخفى عليه مادة من مواده ، فهو لا يتنازل فى دروسه للغة العامية ابدا اللهم الا فى بعض النوادر او الحكايات التى قـد يسوقهـا أحيانا فى المجلس للتسلى وهى لا تخلو مـن فائدة تكون متصلة بموضوع الدرس ، فكان لذلك لا يمل حديثه ، ولا يشعر بالضجر جليسه ، وبهذا الصنيع تخرج على يده جمع من الأدباء والعلماء شغلـوا مناصب التدريس والقضاء والافتـاء والامامة فى مختلف انحاء القطر الجزائرى وفيهم مـن شـارك فى وظائف سامية بالمغرب الشقيق •••

وكان رحمه الله لا يرى مرتاحا فيما يلقيـه على تلامذتـه مـن الدروس الا اذا شعر مـن نفس التلميذ باطمئنان الى ما تلقـاه ووعى وحفظ لمـا زاوله من المسائل المطروحة فى الدرس •

وكـان للشيخ المام باللغـة الفرنسيـة فهـو يتحدث بها أحيانا عند اللزوم كما كانت له معرفـة باللغـة العبرانية واطلاع على مـا بيد أهلها مـن نصوص العهد القديم والجديد من انجيـل وتوراة وتلمود ، وكثيرا ما كان يجادل اصحابها فى دينهم وينـاظر أحبـارهم ورهبانهم ويسوق لهم الادلـة والنصوص مـن كتبهم وبلسانهم ، وسمعته مـرة يروى لنا قصة مناظرة جرت له مع حبر من أحبار اليهود حول اثبـات تبشير التوراة بنبوة سيدنـا محمد صلى اللـه عليـه وسلم فأنكرها اليهودى ، فبينما الشيخ مستمرا فى حديثه بفصيح العبـارة اذا به ينطق بهذه الجملة الغريبة (وهمليخ هايـا هو بمركبـه نوخخ ارم) فاسرعت الى كتابتها أولا ثم بعدما انتهى مـن حديثه استفهمته عـن معانى الفاظ هذه الجملة وعن تركيبها ؟ ••• فقـال لى : هذه الفاظ عبرانية تعبر عن ثبوت ذكر نبينا محمد عليـه الصلاة والسلام فى كتبهم ، وقد جاءت هذه الجملة فى كتـاب لهم معظم لدى اخبارهم يسمونه (ميلاخيم) وينسبونه لليسع عليه السلام والعبارة هذه تثبت ذكـر اسم نبى الاسلام عندهم كما انهـا تحمل البشارة بظهوره وهكذا كان يفعل مع رهبان

النصرانية ايضـا فكان يجادلهم باناجيلهم وكثيرا مـا يفحمهم ولا سيمـا عندما يستدل لهم بانجيل « بارنابا » فكانما رماهم بقاصمة الظهر .

واماما فطر عليـه وجبلت عليـه نفسه مـن الاخلاق الكريمة والشيم فانه كان كما عرفه جميع من عـاشره حلـو الشمـائل شجاعا طموحـا الى الاخطـار فى استرجـاع الشجاعـة الادبيـة وفى المجتمع ايضا الى قومـه ، يلتهب غيرة على دينـه ووطنه بمعناه العام الواسع لا الخاص الذى حددته السياسة ، وقورا عظيم المهابة كريما اريحيا أنوفا متواضعـا يتلألأ فى وجهـه نور العلـم والوقـار والجمال وضاح المحيا جميل المبسم مشرق الجبين قد داعبت زرقة السماء مقلتيه فاشرقتا فى طلعته البهيـة اشراق الشمس والقمر ، متمـاسك الجسم تام الخلق ربعة فسبحان من خلقه فى أحسن تقويم، وكـان حسن الشارة يظهر دائمـا فى شكل أنيـق وهيئة حسنة ، يتعمم بعمامة هندية الصنع جزائرية الوضع والشكـل (طربانطى) ويلبس مـن فـوق القميص (البداعى) وفوقهمـا (الجباضولى) أو ما يسمى (الدامى) وفـوق ذلك كلـه العبـاءة أو تارة البرنس يلقيه كرداء على كتفيـه ، وقد يجمع بين العباءة والبرنس فى حسن سمت ، وكان مولعا بتناول القهوة والتدخين .

وللشيخ مقدرة عظيمـة على الترسل ونظـم الشعر وله مكانة عاليـة فى نثره ونظمـه ، فهـو يكتب على اسلوب البلغـاء مـن الرعيل الاول فلا تكلف ولا تعسف وتـارة يميل الى السجع ، ولـه تخصص فى الشعر بنظم الموشحات على أسلـوب ما نظمه ادباء الجزائر وعلماؤها مـن موشحاتهم المولديـة الشهيرة الموزونة على مقتضى الانغـام والالحان والطبوع الموسيقية الاندلسية التى أشار اليهـا الشيخ سيدى احمد بـن عمـار فى رحلتـه « نحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب » وكـان الشيخ يحسن هذا الفن ، فانصت معى الى قوله فى طالع موشح :

يـا روح سـار تعطـر
من نشـر اهـل الخيـام

بـاللـه تتخطـر
واحمـل اليهـم سـلامى

بلـغ الى اهـل طيبـه
منـى عظيـم التحيـة

قـف وقفـة مستطيبـة
عنـد كـريـم السجيـة

وانشـق هنـالك طيبـه
مـن روضـة عبقريـة

الخ ...

وهذه مقطوعة له أخرى من قصيدة نظمهـا بمناسبة اطلاعه على صنيع صديقنا الاستاذ احمد الاكحل فى رسالتـه (روح السعـادة) المطبوعـة بالجزائر ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥ م فقال :

رعى اللـه امرأ يـرعى المعالى
يسـامر نجمهـا جنح الليـالى

لـه نفس لهـا لحظ طمـوح
الى أعلـى ذرى حسن الخـلال

لـه عقـل لـه انف شمـوخ
ابـى الا طلـوعـا كـالهـلال

وخير النـاس من يهدى أنـاسا
اذا ركبـوا اهـاويج الضـلال

وخيـر الهدى هدى مـن لسـان
امـون نـاصح للـزور قـالـي

ويقول فيها :

اذا ضيعت عمـرك فى محـال
متى تسمـو الى أفـق الكمـال
فـوقت للطعـام ووقـت نـرد
وأوقــات على قيـل وقـال
متـى تترك أخـى للعلـم وقتـا
فنجم العلـم عندك بـرج خـال
الخ ٠٠٠٠

ولهذه القصيدة مقدمة اجتماعية كتبها الشيخ نفسه تمهيدا لها نقتطف منها الفقرة التالية كنموذج لأسلوب الشيخ فى نثره وما يرمى اليه من اصلاح المجتمع ، وكتابة المرء نمامة على علمه وعقل الكاتب فى قلمه ٠

« الحمد لله الذى ورث ذرية سيدنـا محمد العلم ، وخصهم منه بمطالع اذا أهلت اهلتهم فيها هلـل لرؤيتها ذوو البصائر والفهم ، وشهدوا ان ذلك الجمال ، لا يشرق الا من أفق العلا والكمال ، والصـلاة والسـلام على منبـع الحكـم ، ومنيـر الدياجى اذا ادلهمت ديـاجر الظلـم ، وعلى آلـه وذريته وعترتـه الآخذيـن باليمين رايـات المجـد والكرم ٠

وبعد فان الجزائر بلدة كانت يشـار اليهـا بالبنـان ، فى العلم والهنـاء ومصـادر الخيرات والجود والاحسان ، مصونة مما هو نصب الاعين من التجاهر بالفساد ، ومما هو شائع وذائع مـن مراءى الزنى والسكر وكل ما تقذى العين ويشجى الفؤاد ، متكومة اهلها بشكيمة الدين ولجام العفة ومكـارم الأخلاق والحيـاء ، عـن التلفظ بـالفاظ الفحش فضلا عن التجاهر بـه فى الخلاء والملاء ، الى ان قضى اللـه بهتك سترها ، فافضت الى مـا هو مشاهد من أمرها ، بعوامل قاطعة لأزمة الدين ، والحسنة لاطة فيه بالقذف والتقبيح والتشيين الى ان انقلب ظهر المجن ، وصار اعقل الناس من كان فى حضرة المكـر أجن ، وسدت أبـواب الارزاق ، وضاق بالخلق النطاق ، محنة دخلت على المسلمين من اهمالهم وصيـة سيد المرسلين (من حسـن اسلام المرء تركه مـالا يعنيه) فعوضا عـن العمل بهـا اشتغل كـل فرد الا القليل بمـا لا ينفعـه ولا يغنيه ٠٠٠ الخ ٠

وكـان للشيخ اصدقـاء وأحبـاء كثيـرون منتشرون فى انحـاء البلاد ، وكـانت تجرى بينهم وبينهمكاتبات فى مواضيع شتى ففيهـا الرسـائل الادبيـة وفيها الرسائـل العلمية وفيها الرسائـل الودية وفيها غير ذلك ، واليك نموذج منها نستكمل بهمعرفتنـا بأسلوب الشيخ فى انشائـه لرسائلـه ومخاطباته ولما فيها من الفوائد العلمية أيضا ٠

ففى سنة ١٣٢٢ هـ أيى بعد ان كـان قد زار الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مدينة الجزائـر وغادرها باحد عشر شهرا بالضبط اتصل شيخنـا برسالة من استاذه وصديقه الشيخ على بـن عبد الرحمن مفتى وهران ملتمسا منه ان يكشف له عن نظريته الخاصـة فى شخصية الشيخ محمد عبده ومستطلعا رأيه عن سلوكه وعلمه وأخلاقه ، فكان ذلك هو الباعث لـه على تحرير الرسالة التالية ، وهى لا تزال مخطوطة ومحفوظة بخزانة صديقنـا الاستاذ المهدى البوعبدلى ٠ وهذه نبذة منها :

الحمد للـه وحده وصلى اللـه على سيدنـا محمد وآله وسلم

مشرفنـا الذى نعشو الى شموس انـواره ، ورياض طبيب حياتنـا الذى ننتعش بـا ستنشـاق ازهاره ، مولانا وسيدنا على بن عبد الرحمن أمدنا الله من همته العالية ما يبلغنا الى المراتب ، ويدفع عنا كل ما يلم من المتاعب والمصائب والحواجب .

أزكى سـلام ، ينـافح الزهر فى الأحكـام ، ويكاثر قطر الغمام ، وأوفى تحيات طيبات مباركـة اخص بذلك مقامكم الأعلى زاده الله علوا ، ومـن حضرة القدس دنوا ، وقد انهالت على رحمة ونعمة بكتابكم الشريف الذى عمنى انسه ، ونفح عبيره ، وحل من نفسى محل النفس وقوى رجائى فى اللـه عما اجراه على لسانكم من مستجاب دعائكم زاده اللـه بكم خيرا ولا ردنى على عقبى ببركتكم آميـن آمين امين لا ارضى بواحدة .

ومما تضمنه كتـابكم الرفيع استبداء رايـى فيما أعلم من فضيلة العلامـة الذى شـاع ذكـره واشتهر أمره ، وانى عملا بالواجب على كل متدين من الذ بعن أهل الله وان لم يكن العلماء أوليـاء اللـه فليس للـه ولى أصدع بما اصعت عليه مـن خصائص الرجـل فى هذا الزمـان الشبيه بزمـان الفترة فـأقول : هذا الرجـل الجليل رجـل حنكته تجارب الزمان ، واستقصى احوال الأمم حتى ميز منها ما زان وما شـان ، وتطلع مـن الفنون على اختلاف أنواعها ، ومواضيعها وأعمل فكره أعمق تفكر وتدبر فى الحبل المتين والقرآن المبيـن فأدرك قوله عز وجل لنبيه الكريم وما أرسلناك الا رحمـة للعالمين ، فهو يرى أن كـل خير صدر أو يصدر فى الوجود انما هو لمحة مـن شعاعه ، وبركة ناشئة من اتباعه ، فما سعد من سعد من الامم الا باتباع سننـه ، والاهتداء بأنـواره ، وقـد أفصح بذلك فى مقالة له طويلة يتأسف فيهـا على الاسلام مـن تركهم العمل فيما انـزل عليهم من الامر بالتعاون والتناصر واتخاذهم بـدل ذلك التخاذل والتقاطع والكذب والخداع الى انْ صاروا حجة لغيرهم على دينهم وفتنة للذين كفروا ، وتأخروا وتقدم غيرهم بما كانوا يتقدمون به فى الازمنة السالفة ...

الى أن يقـول :

ولقد شاهدت منـه ـ أى من الشيخ عبده ـ فعلا كما سمعت منه قولا ان يفر من الاختلاف فراره من الاسد ، ومن عجيب امره انه ما خالفه مخالف فى مجلسه الا وتمكن من القاء القبض عليه بجند من جنود الحق حتى يوقفه الى جتبيه ، وكـل ذلك بكـلام لا يخالطه اللغط وعقـل لا يستفزه الطيش وخلق لايأتى على وسعه ضيق بمقدمات ينتزعها من وجدان مخاطبيه حتى يضطر الى الاقرار والاعتراف بنفسه من نفسه ، ولعها وراثة مـن شيخه جمـال الدين الافغانى الذى تظافرت الروايات عنـه انـه ما خصم احدا الا وخصمه ...

وهكذا أطـال الشيخ عبد الحليم فى ابـداء رأيه النقدى الصحيح حول ما عرفه وخبره بنفسه عن عبده يوم ان اجتمعا فى الجزائر معترفا بفضل الامام على الاسلام والمسلمين وما لـه من المزايـا العديدة على الشعوب الاسلاميـة فى بعثهـا نحو التقدم والرقى والمجد .

ويظهر أن من تكاثر أعمال الشيخ الثقافيـة الثقليـة فى ميدان التدريس والاقراء شغلتـه عـن العمل فى مجال التاليف والتصنيف فلم يؤثر عنـه كبير أمر من حيث الانتاج ووضع الكتب والاسفار اذ ليس يعلم مـن مؤلفاته المطبوعة سوى رسالـة وضعها فى أحكام الربارد بها على من يقول بإباحة

اتخاذ القليل منه وعنوانها : «اهتزاز الاطواد والربى من مسالة تحليل الربا» اذ يقول في مقدمتها كنت طالعت في بعض الجرائد - من غير ان يذكر اسم الجريدة - والامر لله ان بعض من يشار اليه بالبنان في العلم من غير ان يذكر اسم المشار اليه احل القليل من الربا وحرم الكثير منه محتجا بقول الله تعالى وتنزه عما يقول الظالمون علوا كبيرا يا ايها الذين امنوا لا تاكلوا الربا أضعافا مضاعفة ... » وهي رسالة غزيرة المادة في موضوعها استوعب فيها المؤلف أصول هذا الباب واحاط بفروعه وجاء فيها باستنتاجات وأحكام فقهية مركزة صحيحة ولقد دعا فيها علماء الاسلام قاطبة الى تحمل مسؤوليتهم امام هذا الموضوع الهام موجها رسالته هذه الى الاعلام منهم حيث كتب تحت العنوان ما يلي : « تعرض على أنظار العلماء الاعلام وتطلب تادية ما في رقابهم من بيان الاحكام » وهي مطبوعة بالجزائر ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م ، أو ما قدمه والقاه بنفسه في المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد هنا بالجزائر سنة ١٩٠٥م مما حرره من بحث فيما يتعلق ويتصل بحضارة الاسلام وفلسفته ، ولا يزال هذا البحث مجهولا لدينا الى اليوم فلا نعلم عنه شيئا ! ... كما انه اشتهر عند بعض تلامذته بان لـه تاليفا في العقائد موجودا عندهم ناقش فيه الشبه التي ياتي بها الملحدون فردها عليهم ولم نطلع عليه. ونشرت لـه بجريدة الاقدام الجزائرية التي كان يديرها الامير خالد عدة مقالات افتتاحية في السياسة والاجتماع والاخلاق فيها ما كان يمضيه باسمه الصريح وفيها ما كان ينشر بدون امضاء مراعاة لمقتضى الحال وكذلك فعل بمقالاته في الجرائد التونسية كجريدتي المشير والوزير وغيرهما .

وجئنا يوما الى الدرس - بالمسجد - وبيد أحدنا مجموع كان فيما يحتوي عليه نبذة من الاحاديث القضاعية ، فاستلم الشيخ ذلك المجموع من يد صاحبه وبعد أن تصفحه ووقف على الاحاديث التي فيه قال لنا استعدوا بتحضير ادوات الكتابة مع القرطاس فسنشرع في شرح هذه الاحاديث ان شاء الله ، وفعلا جئناه من الغد مستعدين لكتابة ما يلقيه علينا حول شرح هذه الاحاديث النبوية فاخذ رحمة الله عليه يستملي منا نص الحديث حسب ترتيبه في الكتاب ثم يأخذ هو في الشرح بطريقة الاملاء وبدون أن يحمل في يده شيئا من الكتب والأوراق وأخذنا نحن في كتابة ما يمليه علينا على أن يكون ذلك لـه تاليفا مستقلا ، وهكذا استمر الشيخ على متابعة املائه في عدة مجالس ، ثم كانت هنالك عوارض قطعت عنا ذلك المعين العذب الزلال ولم يتم الكتاب ، أو ما هنالك من قصائد شتى في اغراض ومواضيع مختلفة وهي لا تبلغ أن تكون ديوانا .

ولقد كان ان نشرت له رسالة صغيرة الحجم بعنوان : « الكنز المدفون والسر المكنون » طبعت بالجزائر على نفقة بعض الافاضل نحا الشيخ فيها منحى صوفيا خاصا ، فلم يرق ذلك لبعض رجال الطرق ولا سيما منهم التجانية فحذروا في كتبهم ومجالسهم من مطالعتها وسعوا في جمع ما وصلت اليه ايديهم من نسخ هذه الرسالة فأعدموها حرقا، ولا أدري لماذا كان ذلك ؟ ...

وهناك طورثان عاشه الشيخ في أواخر حياته يختلف كثيرا عن الفترة الاولى التي عاشها والمدة التي قضاها في صدر ايامه واعوامه الخالية فاصبح في هذه المرة عديم المبالات بنفسه فلا يلتفت الى مظهره ولا الى هيئته في ملبسه وسمته وهندامه

وحتى فى سلوكه وحياته اليومية العادية العامة كل ذلك تغير منه الى شبه احوال من يسمونهم بالمجاذيب ، فاتخذ لمركبه حصانا وتمنطق سيفا وأخذ يتجول ما بين أرباض العاصمة واحيائها ، وتارة يسافر الى ما جاورها من البلاد القريبة منها مثل البليدة والقليعة والمدية وشرشال ولا يبالى اين ادركه الليل أو طلعت عليه شمس الغد ، وحيثما حل كان ملحوظ المنزلة عند الناس وذلك لما يشعرون به نحوه من العطف والحنان وما يكنون له فى صدورهم من التقدير والتعظيم والتبجيل .

وكثيرا ما كان ينتزع سيفه فيشهره فى وجوه رجال السلطة الحاكمة أو عندما يتأثرو يشتد انفعاله مما يراه من تخلف قومه وتقدم عدوه على حساب وطنه واتخذ بعض الناس ذلك منه دعوة الى الفروسية ورمزا لحمل السلاح فى وجه الغاصبين ، وطالما صرح وهو فى هذه الحال بعبارات وتصريحات جارحة فى جانب المعمر ، رد بعضهم ذلك الى أسباب نفسانية والى انحراف وقع فى مزاج الشيخ حيث اضحى عصبى المزاج متاثرا بما يحمله فى صدره وينطوى عليه كشحه من الكآبة والبغضاء فى جانب الاستعمار بالاضافة الى ما هنالك من اسباب وراثية أخرى ، وهو الى ذلك لا يفتأ عن القاء دروسه فى المدرسة وفى المسجد ويفتى ويجيب سائليه عن عويص المسائل فى جميع ما تخصص له من فنون العلم والمعرفة بدون أن يخرج عن الموضوع ، واذكر يوما اننى كنت مرافقا لصديقى الاستاذ حمزة بوكوشة وكان اذاك امتع الله به حديث عهد برجوعه من جامع الزيتونة بعد أن حصل على رتبة التطويع العلمية ، فلمحنا الشيخ جالسا بجانب متجر على قارعة الطريق وهو فى طوره الثانى من حياته ، فقلت لصديقى تعال نتقدم نحو الشيخ لنسلم عليه ونختبر حاله ، واتفقنا على أن نطرح عليه سؤالا علميا ، وقلت لصديقى بما انك حديث عهد بمجالس ودروس جامع الزيتونة وانك خبير بما يجرى من المناقشة بين الاساتذة والطلبة فى الفنون المدروسة هناك فتفضل انت بالقاء السؤال وبعد المفاوضة فى تعيين موضوع السؤال اتفقنا على أن يكون فى البلاغة ، فكان الامر كذلك ، وكان موضوع السؤال هو باب الفصل والوصل من علم المعانى وبعد أن اطرق الشيخ هنيئة تدفق كالسيل الجارف يحلل الموضوع تحليلا شافيا آتيا بالشواهد والامثلة من القرآن الكريم ومن كلام العرب فاستفدنا من كلامه فوائد جليلة وحقائق دقيقة وقبلنا يده وانصرفنا .

وللشيخ اخبار واثار عجيبة يرويها عنه العامة هنا وهناك وهى غامضة وخارقة للعادة فى بعض الاحيان وعدها بعضهم من الكرامات .

واستمر الشيخ على هذا النمط من حياته فترة من الزمن ثم استقرت حاله وسكن نوعا ما ثم انتابه الامر مرة ثانية بصفة أهون من حالته الاولى ، وهكذا الى أن حل شهر رمضان لسنة ١٣٥١ هـ .

فانه لما حل هذا الشهر اجتمع جيران الشيخ وهم سكان ضاحية (الحامة) ببلكور من العاصمة وقرروا فيما بينهم التوجه الى الشيخ ليعقد لهم مجالس دينية فى ليالى رمضان ووقع اتفاقهم على أن يكون مجلس الدرس بجامع زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن الازهرى - بالقرب من سكنى الشيخ - وعلى أن يكون زمن الدرس فيما بين العشائين وعرضوا عليه ذلك فوافقهم عليه ، وشرع بالفعل فى تدريس رسالة ابن ابى زيد

القيروانى من أول رمضان وكـان يأتى للدرس ولا يحمل معه سوى المتن فقط ، فالتف حوله الجمهور وأقبل عليـه النـاس يتعلمون ويتبركون وسايرهم الشيخ على هذا المنهاج أياما أربعة ، وفى الليلـة الخامسـة مـن الشهر المبـارك حضر الى المجلس كعادتـه وشرع فى تقريـر موضوع الدرس ، وفى الاثناء شعر بفتور عام فى جسمه وعـلاه شحوب فصمت هنيهـة ، فلمـا رآه الحاضرون علـى ذلك فـزعوا اليـه وأخذوا بيده واسعفه بعضهم فمشى معه ورافقه الى منزله الذى هـو قريب من مكـان الدرس ، وما ان رجع القوم من المنزل حتى ودعهم وودع الدنيا ملبيا دعوة مولاه : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربـك راضية مرضية فادخلى فى عبـادى وادخلـى جنتى » • فختمت انفـاسـه الزكية ليلة الخميس ٥ رمضان = ١٩٣٣/١/٢ م ومضى منصرفا الى جوار ربه مستقبلا وجه البقاء فشيعت جنازته من الغد فى جم غفير ودفن بتربـة الشيخ عبـد الرحمن الثعالبى رحم اللـه الجميع ورثاه على قبـره بعض شيوخ المدرسـة والتلاميذ وبعض السياسيين من الحكام مترحمين آسفين••

تلكم هى الخطوط العريضة من حياة شيخنا عبد الحليم بن سماية قدس الله روحه •



من بواعث الاستشراق
وأهداف المستشرقين

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائري

لقد أدرك رجالات الغرب فضل العرب على العلم منذ توطيد سلطان الامويين بالاندلس ، وان المدنية الشرقية والحضارة العربية الاسلامية سبقت اختها الغربية بقرون . فأخذ بعض المتحمسين من هؤلاء الغربيين ـ حبا في الاطلاع وللمعرفة والعلم ـ الدخول الى تلك المملكة العربية الاسلامية للدرس على علمائها ثم العودة بعدها الى بلاده لنشر ما اخذه عن العرب بين قومه وفي انحاء وطنه الغربي ، وكان فيهم اليهود والنصارى ،

وفيهم من اخذ بحظ وافر من علوم الشرق فانتفع بها فى حياته العملية وحاز بها أعلى المراتب ، فكان منهم من ارتقى الى البابوية مثل البابا « سلفيستر الثانى » الذى تخرج من مدارس الاندلس ، وكذلك « البير الكبير » و « روجى باكون » وغيرهم ، وكان الله سخر العرب لفتح الاندلس وصقلية وتعميرهما حتى ينقلوا لاهل أوروبا الهم الحضارات .

وشاعت فى القرون الوسطى يومئذ لغتان شرقيتان واشتهر امرهما بين العلماء هما العربية والعبرانية ، فالعربية هى لغة الدين الجديدوالدولة الجديدة العتيدة ولغتها هى لغة العلم والفلسفة يومئذ ، واللغة العبرية هى لغة من اللغات السامية الشرقية الاصيلة فكان من الواجب على المستشرق ان يطلع على ما فى هاتين اللغتين من علوم ومعارف ، فكان من أثر ذلك تأسيس درس عام بباريس (أواسط القرن الثالث عشر) لدرس اللغة العربية ، وكانت أول ترجمة للقرآن عرفتها اوروبا هى ترجمة ما كتب طليطلة التى نقلها « كونيت » سنة 1143 م مستعينا باثنين من العرب وعرضها على « دكلين » بقصد نقدها ، فاتضح يومئذ بهذا ميدان للاستشراق .

وكان فى طليعة المعتنين بهذه البحوث الاستشراقية ولا سيما منها العربية هم الرهبان فتراهم منكبين على دراسة الفلسفة الاسلامية وترجمتها الى اللاتينية وبذلك تسربت اليهم علوم العرب ، وذلك لان الفلسفة فى عهودها الاسلامية الاولى كانت تنطوى على العلوم كلها ولم تعرف باقسامها الحاضرة الا بعد ان تفرعت العلوم أخيرا فقط .

ثم تنوعت اغراض هؤلاء المستشرقين واختلفت مقاصدهم بحسب اختلاف اتجاهاتهم نحو الشرق وتنوع غاياتهم منه، سياسيا ، ودينيا، واقتصاديا، وأدبيا ، ففى أوائل القرن السادس عشر ظهر الخلاف الدينى الذى وقع بالثورة البروتيستانية فى المانيا وعم الغرب كله واضطر اهله الى الرجوع بمباحثهم اللاهوتية الى دراسة التوراة العبرية فاضطروا حينئذ الى التعرف على قواعد اللغات الساميةفدرسوا منها العربية والعبرانيةوالكلدانية والسريانية وقابلوها ببعضها بعضا استعانوا فى ذلك باليهود والعرب ، فاتسع لهم بذلك مجال البحث وفشت بسببهم البحوث حول الآداب الشرقية وانشئتيومئذ المنابر لتعليم اللغةالعربية فى أشهر مدارس اوروبا ، وطبعت التوراة لاول مرة بالعربية فى ألمانيا سنة 1514 م وحصرت هذه الحركة الاستشراقية اتجاهها ضمن الدراسات الدينية ردحا من الزمن ولم تتحول الى الآداب العامة الا فى الاعصر التى نظمت فيها العربية بباريس تنظيما علمانيا ايام وجود المستشرق الفرنسى « سيلفيستر دوساسى » فى القرن الماضى، ويومئذ ظهرت الدراسات الوافية باللغات الاوروباوية كاللاتينية وغيرها تبحث فى تاريخ العرب والاسلام وقل مثل ذلك فى السياسة والاجتماع .

وبما ان كلا من دول فرنسا وانكلترا وهولاندا وأمريكا والنمسا والمانيا كل منها كانت ولا زالت

لها مصالح مرتبطة بالشرق وتلك المصالح غالبا تناط بالسفراء والقناصل فكان رجال السلك الدبلوماسى مضطرين الى دراسة اللغات الشرقية، وكان عكوفهم على تفهمها حق الفهم باعثا لهم على البحث عن المخطوطات المؤلفة بلغات الشرق فاجتمع لهم فى تنقلاتهم ورحلاتهم فى الشرق كميات ثمينة من المخطوطات النادرة هى اليوم زينة المكتبات المعتبرة فى أوروبا ، كما انه كان من بواعث الاستشراق وغاياته التوسع فى الميدان الاقتصادى والتجارى ، فكان هذا الميدان ولا يزال ينبوعا فياضا بالخيرات غزير المادة . والفائدة جامعا لمنابع الثروة ، فاقتضى ذلك المزيد من التفقه فى فقه اللغات الشرقية ولا سيما منها العربية لانها كما ذكرنا لغة شعب حمل لواء التفكير الانسانى اكثر من اربعة قرون ثم انه كان قبل ذلك يمثل المدنية الانسانية على مستوى العالم وقد اشتملت لغته على جميع ما انطوت عليه الحضارة الانسانية يومئذ ولا تزال هذه اللغة تماشى الحضارة الى اليوم ، ثم ان اساس الحركة الفكرية فى اوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادى يرجع الى المؤلفات العربية التى تناولها الاوروباويون بالمطالعة والدرس ، وزد الى ذلك ان لهؤلاء العرب دينا جليلا له تأثير عظيم فى عقليات كثيرة تبلغ مئات الملايين من الناس منذ نشأته الى الآن ، فمدارسة هذه اللغة يسهل لهم استغلال أهلها والانتفاع بما عندهم .

وهناك طائفة ممن اتخذ الاستشراق مهنة يرتزق منها ولا يبالى حيثما توجهت به الاهواء فهو مع السياسة كيفما كانت اغراض سادته فيستخدم العلم كآلة لبلوغ غاية معينة ، ومنهم من تسوقه الاغراض السافلة الى الطعن فى الثقافة الاسلامية وتشويه الحقائق وهذا المسكين لا يدرى وانه بذلك يشوه سمعة جماعة من قومه ومن بنى جنسه اخلصت للعلم وخدمت العلم للعلم ، ومنهم من يخبط خبط عشواء فهو لا يعير اهتماما لتحقيق المسائل ولا يتحرى الصواب فى كثير منها ،ومنهم من وقع فى اخطاء لم تكن متوقعة من مثله ممن اشتهر بالتحقيق والامعان فى البحث وسعة الاطلاع والتضلع من الثقافة الشرقية والغربية ، وخذ اليك مثلا العلامة (بروكلمان) المستشرق الالمانى الكبير الف كتابا فى تاريخ الشعوب الاسلامية ونشر بعدة لغات ومنها العربية ، ورغم ما احتوى عليه هذا الكتاب من الفوائد الجمة واستيعابه للتاريخ الاسلامى من مبدأه الى العصر الحاضر ، فان صاحبه وقع فى اخطاء ولا أدرى أهى عن عمد او عن غفلة وقلة مبالاة ؟!..

فعندما تكلم بروكلمان عن الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه واتى بتفصيل لحوادث الفتنة الكبرى التى أدت الى اغتياله ذكر من اسبابها خلع عمرو بن العاص رضى الله عنه من ولايته على مصر وتولية عبد الله بن سعد ابن ابى سرح ، قال « واشتدت النقمة على عثمان فى مصر وانضم الى عمرو فى اذكائها محمد بن ابى حذيفة وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ... » !! ..

فوا عجبا هكذا يذكر بروكلمان بنفسه اسم والد محمد فيقول هو ابن ابى حذيفة ، ثم يقول

وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ؟٠٠٠ ومعروف ان محمد ابن ابى حذيفة هذا ولد بأرض الحبشة ورباه عثمان بن عفان فلما شب رغب فى غـزو البحر فجهزه عثمان وبعثه الى مصر الخ القصة ٠ وكيف يتبناه الخليفة الاول ابو بكر الصديق وهو ممن تلقى القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة ومن أعلم الناس بحلاله وحرامه وحـكم تحريم التبنى فى الاسلام من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة فكيف تخفى على ابى بكر حتى يرتكبها بنفسه ؟!!٠٠٠ هذا مما لا يسيغه النقل ولا العقل ولا ادرى كيف وقع فى هـذا الغلط الفاحش مثل بروكلمان ؟٠٠٠

وفى هذا الكتاب أيضا تعرض لتاريخ انشاء المنبر فى الاسلام فذكر ان هذه المؤسسة الاسلامية « وقعت من عمال الامصـار الذين كانوا يؤمون الناس فى أيام الجمعة فى الصلاة العامة بأنفسـهم فهم أول من اصطنع هذا المنبر ، ولم يصـبح – حسب زعمه – فى الناس عادة شـائعة الا فى المائة الثانية للهجرة » ٠٠٠ والواقع بخلاف ذلك فان علماء التاريخ الاسلامى مجمعون على ان انشاء المنبر وتأسيسه للخطابة بالمسجد كان على عهـد النبى صلى الله عليه وان ابتـداء العمل به كان سنة سبع او ثمان للهجرة وقد شوهد عليه الصلاة والسلام يخطب وهو واقف على المنبر بمسجده فى المدينة ، وكان هذا المنبر يشتمل على ثلاث مراق – درجات او درج – الى زمن خلافة معاوية بن ابى سفيان وكان الوالى على المدينة مروان بن الحـكم (42 – 49 هـ) فزاد فيه هذا ست درجات ، ولقد استمر هذا المنبر الشريف بمكانه من مسـجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومنه كان يلقى الخلفاء خطبهم الى ان احترق باحتراق المسجد سنة 654 هـ ٠ فكيف يصح بعد هذا ان يقال ان المنبر هو من صنع عمال الامصار ؟!٠٠٠ وانه لم يصبح ارتقاء المنبر للخطابة فى الناس عادة شائعة الا فى المائة الثانية للهجرة ؟!٠٠

وكذلك الامر بشأن احداث المنائر واتخـاذها لتأدية شعيرة الآذان بالمسـاجد ، فاننا نرى بروكلمان يقول : « ٠٠٠ والواقع ان العثمانيين هم اول من ضم المئـذنة الى المسجد فى آسـيا الصغرى ٠٠٠ » والواقع هو بخلاف ذلك ٠ فـان أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع هو مسلمة بن مخلد حين ولايتـه على مصر (47 هـ/667 م) فانه هدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد بمصر وبناه هو وأمر ببناء منار المسجد ، فهو أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع ٠٠ (النجوم الزاهرة لابن تغـرى بردى ج 1 ص 133 ط دار الكتب بالقاهرة) فأين هذا مما نسبه بروكلمان الى الاتراك العثمانيين بآسيا الصغرى ؟٠٠

ومن ذلك ايضا قول هذا المستشرق فى نفس الكتاب بان « ٠٠٠ النظر فى المظالم والحكم بـين المتخاصمين ، وهى مهمة لم يكن يعين لها رجـال مخصوصون حتى أيام مؤسس الخلافة الاموية ٠٠ » فأين هذا مما هو مشهور من ولاية القضـاء فى التاريخ الاسلامى على عهد النبى صلى الله عليـه وسـلم ، فقـد بعث على بن ابى طالب الى اليمن ليقضى بينهم، وعلمه كيف يقضى فقال له : اذا جلس

بين يديك الخصمان فلا تقضى بينهم حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الاول فانه احـرى ان تبين لك القضاء ...

كما انه عليه السلام عين معاذ بن جبل لقضاء الجند وكان ابو موسى الاشعرى قاضيا على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان القضاة على عهد النبى ستا : عمر وعليا وعبـد الله بن مسعود وابى بن كعب وزيد بن ثابت وابا موسى الاشعرى ، وشريح الكندى كان قاضيا على عهـد عمر بن الخطاب بالكوفة ..

الى غير ذلك من مسائل شتى طرقها هـؤلاء المستشرقون دون ان يعيروها أدنى تحقيق .وهذا لا يمنعنا من ان نعترف لهم بالفضل فى بذل جهود جبارة فى تحقيق المخطوطات النادرة وطبعها طبعة علمية مفهرسة بفهارس مفصلة مع ترجمتها ونقدها والتعليق عليـها بتعاليـق مفيدة وشروح فريدة وتوضيحهم لكثير من المسائل العلمية وتبـديد ما تراكم عليها من غبار الاوهام والشكوك ، فلهم منا على ذلك مزيد التقدير والاحترام .



لمحة عن
زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية
580 هـ 1184 م

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائري

انبثق ملك دولة المرابطين من اعماق الصحراء الكبرى ، وهم من قبيلة « لمتونة » المتفرعة عن القبيلة العتيدة (صنهاجة) التى كان منها ملوك دولة بنى زيرى التى خلفت الدولة الفاطمية بالقيروان والمهدية ، ونفحت القطر الجزائرى والاندلسى بشجعانها البواسل وابطالها الميامين هم ملوك القلعة وبجاية وغرناطة ومالقة من بنى حماد ، وكانت الرئاسة فى عصر المرابطين (462 ـ 541 هـ / 1070 ـ 1147 م) لقبيلة لمتونة كبرى قبائل الملثمين بالصحراء الكبرى ، ولهذا يسمي بعض المؤرخين دولة المرابطين بالملثمين ·

وهم كما قال ابن حوقل : اهل باس ومفخرة مفطورون على الفروسية سريعون الى اخترط السيوف وخوض غمار الحرب ··· وفيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم ، وفيهم البسالة والجراة والفروسية على الابل ، ولم ير لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يلثمون وهم اطفال وينشاون على ذلك ، ومن اجل ذلك يسميهم كثير من المؤرخين بالملثمين ، اما تسميتهم بالمرابطين فذلك ان شيخهم عبد الله بن ياسين سماهم بذلك ليكونوا مؤمنين مجاهدين مستعدين للحرب والجهاد فى كل وقت اشارة لقوله تعالى : « يايها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ·

انتشر ملك هذه الدولة من المحيط الاطلنطى باقصى المغرب الى حدود مدينة الجزائر ، بل والى مدينة بجاية شرقا والى حدود بلاد النيجر جنوبا ، ثم مد عامل هذه الدولة الاكبر مؤسس مدينة مراكش يوسف بن تاشفين (410 — 500 هـ / 1019 — 1106 م) بصره الى ما وراء هذا البحر الابيض المتوسط فاستولى على البلاد الاندلسية ايام ملوك الطوائف وكانت حينئذ تلك الوقعة الشهيرة موقعة (الزلاقة) الذائعة الصيت (479 هـ / 1086 م) انتصر فيها ابن تاشفين ذلك الانتصار العظيم الذى كان سببا فى تكوين امبراطورية المرابطين التى شملت مراكز الحضارة بالمغرب والاندلس .

وكان علي بن يحيى المسوفى — نسبة الى مسوفة — وهى قبيلة من قبائل الملثمين بصحراء لمتونة ، مقربا لدى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فتزوج امرأة من حضايا القصر تدعى (غانية) أنجبت له ولدين هما محمد ويحيى وكلاهما نشأ وتربى فى بلاط المرابطين ، وكان يحيى اول من ولى الاندلس من بنى غانية من طرف المرابطين ، فتولى اولا مدينة بلنسية فى شرق الاندلس ثم قرطبة فى غربه ، وولى اخاه محمدا على بعض أعمالها ، وخاض يحيى معارك مع الافرنج (520 — 538 هـ / 1126 — 1143 م) دحر فيها جيش الانفونش ملك ارغون (528 هـ / 1133 م) وأصلح الله على يديه — كما يقول المراكشى — كثيرا من جزيرة الاندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم ، وظل على ولائه للمرابطين ايام ظهور الموحدين (524 — 668 هـ 1130 — 1269 م) ثم بعد وفاته (543 هـ / 1148 م) انصرف اخوه محمد بتعيين من امير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين الى ولاية جزيرة (ميورقة) احدى الجزر الشرقية المعروفة فى كتب الجغرافيا باسم (جزائر الباليار) .

وقد دخلت تحت حكم المرابطين منذ سنة 509 هـ / 1115 م فنزل بها محمد بن علي بن يحي المسوفى واخذ معه اهل بيته واولاده وحشمه ، ثم استولى على الجزيرتين حولها (منورقة ويابسة) وأنشأ بها امارة مستقلة وجعل الدعاء فيها لبنى العباس كما كان يفعل المرابطون واشتهر تلقيبه (بالميورقى) ، ومن تلك التاريخ وبنو غانية يتوارثون امارة الجزائر الشرقية (الباليار) الى آخر القرن السادس الهجرى (12 م) حين قضى عليهم الموحدون .

وكان الموحدون لما تم لهم الاستيلاء على هذا الشمال الافريقى واحتلوا معه الاندلس تركوا جزائر الباليار لبنى غانية — حلفاء خصومهم المرابطين — لغاية انهم كانوا يريدون ان يجعلوا منهم انصارا لهم فى عرض هذا البحر الابيض المتوسط ، فكانوا ينتظرون منهم ان يدخلوا فى طاعتهم من دون قتال ، ولكن الامر كان بعكس ذلك ، فان بنى غانية ثبتوا على مبداهم وحافظوا على ولائهم ووفائهم للمرابطين ، وظلوا يتربصون الفرصة لاعادة مجد المرابطين .

ولما توفى محمد الميورقى (546 هـ /1151 م) تولى بعده ولده اسحاق امارة الجزائر الشرقية ــ الباليار ــ وجرى فيها على طريقة الملوك ، فانشـأ جيشا واسطولا لغزو الروم ودفع غزاتهم ، وكانت له فى كل سنة رحلتان الى ديارهم يغنم ويسبى ويعود ظافرا ، وبالغ فى مجاملة الموحدين بنى عبد المؤمن فكان يهاديهم ببعض ما يغنم ليشغلهم عنه ، فكانوا يقبلون منه ذلك ولكنهم كانوا لا يفترون عن دعوته الى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ، وتارة نراهم يتوعدونه على ترك ذلك ، فكان يعدهم ولا يفعل الى ان استشهد فى بلاد الروم سنة 579 هـ / 1183 م ، وتولى بعده ابنه محمد فبعث بطاعته لخليفة الموحدين يوسـف بن عبد المؤمن فقبل منه ذلك وبعث اليه قائده على بن الروبرتير ليختبر امره ويتاكد من بيعته ، وكان لمحمد هذا عدة اخوة يساهمونه فى الرئاسة فلما انتهى اليهم خبر البيعة وعلموا بالامر الذى قدم من اجله قائد الخليفة انكسروا عن اخيهم لانه لم يكن اعلمهم او اخبرهم بمكاتبة خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن فعملوا على القاء القبض على اخيهم محمد ومعه قائد الموحدين علي بن الروبرتير ، وقدموا لرئاسة جزائر الباليار اخاهـم علي بن اسحاق وهو صاحب هذا الزحف على بجاية ــ بل وعلى المغرب العربى كله ــ كما سنوجزه فى هذه الصفحات من مجلة الاصالة الغراء ، وفى ذلك نجد الغبريتى يقول :

« وكان اسحاق ابن غانية بجزيرة ميورقة وهو بقية اللمتونيين فوجه له من مراكش من قبـل خليفتها من يطلبه بالبيعة والدخول تحت الطاعة فامتنع من ذلك ، وكان بين يديه ولداه علي ويحيى ، فقال للرسول : انا لا اراهم ولا يروننى وهو يعنـى الموحدين ــ ولكن قل للموحدين يهيئون مـا ينفقون على رأس هذين ، واشار الى رأس ولديه ، فانفصل الرسول عنه وتجهز الولدان بعد كبرهما فى طرائد فيها بعض الفرسان وصلا الى شاطىء بجاية بمحل بيع السبى منها ــ اى بحومة المذبح مـن جهة ربضها ــ وكانت البلدة شاغرة من الجيش ، فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لاجل السبى ، فنزلت الخيل معدة ، ولما وصلت له مستعدة ، والناس ما عندهم من شانهم خبر ، فطلعوا على جبل الخليفة ودخلوا من « باب اللوز » الى قصبة البلد وتملكوا البلد ، ولم يكن فوق باب اللوز سـور فى ذلك الزمان وطالبوا الناس بالبيعة فبايعوهم ٠

٠٠٠ثم ان الموحدين تجهزوا برا وبحرا من فورهم ليستأصلوا من البغاة شافة امرهم ، فانفصـل على بن غانية عن الحال وتبع الموحدون الناس بما ظهر منهم من مقال أو فعال ٠٠٠ » ٠

وكان الذى جرأ على بن غانية هذا على هذا الزحف الذى اشار اليه الغبرينى وتكلم عنـه المؤرخون مثل المراكشى عبد الواحد وابن خلدون وابـن الاثير هو ما كان يتوقعه عندما سـقط خليفة الموحدين ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى وقعة (شنترين) غربى جزيرة الاندلس متاثرا بجراحه فمات (580 هـ / 1184 م) وأخذ الموحدون حينئذ فى أخذ البيعة لابنه يعقوب ، فتوقع فيمن

كان معه نشوب الخلاف بين ابناء عبد المؤمن لكثرتهم ، ولعلــه تصور ايضا انـــه قد يوجد فى المصامدة وهم قبيل المهدى بن تومرت من يدعو الى نفســه ؟ وذلك بالاضافة الى ما كانت تنطوى عليه احناء صدر الميورقى من حب الانتقام من هؤلاء الذين قضوا على دولتهم دولة المرابطين مـــن لمتونة التى هى قبيلته وفيها اقاربه ، ولكنه رأى أنه لا قبل له بالمقاومة بأرض الاندلس لضيق المجال هناك وعـدم وجود العدة والعدد فاختار الانتقال الى المغرب لعله يجد به من الاعـراب والبربر الموالين للمرابطين والناقمين على الموحدين من يساعده على الانتصار على اعدائه ، ولربما انـه لاحظ كذلك جانب العقيدة فيما جاء به الموحدون من عقائد الشيعة فيما يتصل بنظرية الامام المهدى والمهدوية ومباحث الاشاعرة فيما يتعلق باصـول الدين مما يخالف ما كان عليه اهل المغـــرب من بساطة العقيدة على عهد المرابطين ، ولا سيما انـه وجد الى ذلك ببجاية يومئذ من اعيانها مـــن دعاة الى تملكها والاستيلاء عليها ، وقد وقعت بيد الموحدين منذ سنة 546 هـ / 1152 م ، كـل ذلك نراه صالحا لان يكون سببا مباشرا وعاملا مشجعا للميورقى على هذا الزحف والمخاطرة بنفسه وباتباعه فى قدومه الى المغـــرب ·

وفعلا نشط الميورقى للعمل على تقويض مملكة الموحدين بالاندلس وبالمغرب ثم اجمع امـــره واعتزم على شن غارته على المغرب اولا فنظم اسطولا يحتوى على 32 قطعة حربية وعدها ابن الاثير عشرين ؟ وملأها بجيش يبلغ عدده 4000 مشاة ، و 300 فارس ، وفى الكامل لابن الاثير قال نحـو مائتى فارس ؟ ··· وما كاد يحل يوم الاثنين لست خلون من شعبان سنـــة 580 هـ / 12 نـوفمبر 1184 م حتى كانت جيوش ابن غانية بساحل بجاية ، واخذت تنزل بنا حية المذبح فى مكان بيـــع السبى من المدينة ، فقاتله بعض اهلها فتغلب الميورقى عليهم واحتل جبل الخليفة ودخلت جيوشـــه المدينة من (باب اللوز) ولم يكن اذ ذلك مســورا ، وبما ان والى المدينة ابو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن كان متغيبا فى جيشه عن المدينة ذاهبا فى طريقه نحو المغرب الاقصى مغفـلا لشان المدينة حيث تركها رهـن الطوارق ، فانتهزها الميورقى فرصة وتقدم الى القصبة فاحتلها من غير قتال وركز علمه الاسود بها ــ وهو شعار العباسيين ــ ثم يمم المســجد الجامع والناس فى صلاة الجمعة فاحاطهم بجنوده ، وما راع اهل بجاية الا ونطاق الحصار مضروب عليهم من كـل جانب ، فارغموا عندئذ على مبايعة ابن غانية الميورقى باسم الخلافة العباسية فكان من بايعه خلى سبيله ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه وكان فيمن امتنـــع عن البيعة قاضى بجايـــة العـلامة الامـــــام ابــــو علي حسى المسيلى فاكرهوه عليها ، فقال لا نبايع من لا نعرف هل هو رجـــل أو امراة معرضا بزي الميورقى الذى كان سائرا على عادة اسلافه اللمتونيين من استعمال اللثام بحيث لا يبدون وجوههم لاحد وحينئذ كشف الميورقى عنوجهــه قال صاحب العنوان : وهذا هو منتهى ما بلغ توقفه ، وهو أمر كبير عند مطالبته بالبيعة لولا علو منصب الفقيه أبى على رضى الله عنه

ما ساعده ، وتلقب الميورقي بامير المسلمين وهـو لقب المرابطين وقد زالت دولتهم ، ووافقه على ذلك بقايا دولة بنى حماد المنحرفون عن دعوة الموحدين وتاسست يومئذ امارة افريقية مستقلة ٠

ولقد كانت هذه المباغتة الحربية فيما يستقبل سببا فى غلـــق الناس لابـــواب المدينة عند انقطاعهم لتادية صلاة الجمعة فى المساجد وبقيت فيهم سنة متبعة ٠

وصادف يومئذ ان كان والى القلعة موجودا بمتيجة فلما بلغه الخبر اسرع لمظاهرة والـــى بجاية وكانت هناك حرب وقتال شاركت فيه نحـــو الالف من سكان قبائل تلك الجهـات واعرابها المنضمة الى ابن غانية فانتصر فيها على الموحدين واخذت جنوده فى الانتشار على مدن المغـــرب الاوسط فاحتلوا مدينة الجزائر ومليانة ونـــواحى مازونة وتلمسان ووهران والقلعة الحمادية كما توجهوا الى ولاية قسنطينة فاحتلوها ما عدا مدينة قسنطينة فانهم لم يقووا على فتحها ٠

وكان فيمن استعان بهم ابن غانية فى حملته هذه وتماديه على الغزو واستمراره فى تتبـــع اثر الموحدين بهاء الدين قراقوش الغزى الذى كان متوليا على طرابلس الغرب وهو احـــد موالى السلطان صلاح الدين الايوبى فاستعان به ثم انقلب عليه واخذ منه طرابلس نفسها واستولى عـــلى بلاد الجريد وصفاقس والقيروان والمهدية وجـــزء من ولاية قسنطينة ٠

ثم وقع زحف خليفة الموحدين يعقوب المنصور على المغرب الاوسط فجاءه فى عشـــرين الف فارس يسايره اسطوله البحرى الذى كان يقل معه عددا عظيما من الجند وكانت هناك معارك طاحنة ووقائع دامية انتصر فيها المنصور وفر علي بن غانية الى الصحراء فلم يدر مكانه حتى وجد ميتا بخيمة عجوز اعرابية كانت تسكن بنواحى توزر من بلاد الجريد التونسية (585 هـ / 1189 م) ٠

ثم بعد ذهاب على بن غانية ظهر فى الميدان اخوه يحيى (597 هـ / 1200 م) بمظهر القوة والباس ، وشايعه فى ثورته هذه طوائف من اعراب بنى هلال وسليم ، اذ كانوا يرون فيه انه من بيت ملك ورئاسة سابقة فانقادوا اليه ، فزحف بهم على القطر الجزائرى مرة اخرى ، وقاومه هذه المرة ابو الحسن والى بجاية وكان اللقاء بينهما بنواحى قسنطينة انهزم فيها جيش الموحدين ، ثـــم تقدم يحيى الى ارجاء الصحراء فاحتل مدينة بسكرة ونكل باهلها وسجن عاملها ابا الحسن بن ابي يعلى ، واستولى على تبسة وبونة ـ عنابة ـ وقفصة وبلغ الى تونس فاحتلها بعد اربعة اشهر من حصارها ثم عاد الى قسنطينة فاجلاه عنها الموحدون فارتحل الى بجايـــة (599 هـ / 1202 م) وبسط عليها نفوذه نحو سنتين ، ويومئذ اخذ الموحدون فى شـــن غاراتهم على جـــزائر الباليار فاحتلوها وقتلوا صاحبها عبد الله بن اسحاق بن غانية وقضوا بذلك على ملك بنى غانيـــة بتلك الجزر ، واستمر الكفاح بارض الجزائر ضـــد الثائرين المايورقيين حتى استرد الموحدون مدينة

بجاية من يحيى فنزل بها الخليفة الناصر الموحدى سنة 601 هـ / 1204 م والحقها بولايـــة تونس ونصب على هذه الولاية ابا محمد عبد الواحد بـن ابى حفص جد الاسرة الحفصية المتملكة بعد ذلك بتـــونس ٠

وحينئذ اختفى يحيى بن غانية ريثما استعاد بعض قوته فاعترض الخليفة الناصر بسهل شلف وهو فى طريقه الى المغرب الاقصى فكانت بينهما مقتلة عظيمـة (604 هـ / 1207 م) بتلك النواحى انهزم فيها يحيى شر هزيمة وفتر بعدها ذكر ابـن غانية ردحا من الزمن ثم ظهر امـــره بنواحى تيهرت حيث نزل بها واحتلها وقضى على حامية الموحدين بها وقتل عاملها يومئذ ابا عمر ابن موسى بن محمد حفيد عبد المؤمن (606 هـ / 1209 م) فكان ذلك آخر العهد بعمران تيهرت القديمة ٠

ثم تصدى بعدها عامل افريقية الحفصى لقتال ابن غانيـــة فقضى على شـــوكته (618 هـ 1221 م) وبقى فى اثره حتى ادركه بارض الزاب الجزائرى فأجـلاه عنه (622 هـ / 1225 م) فخرج يحيى فى فلوله متوجها نحو مدينة الجزائر فلقيه بمتيجة منديل بن عبد الرحمن المغراوى وكان فى اخضاع اهالى المدية وونشريس فاقتتل هناك الجمعان وقتل منديل فحملت جثته الى الجـــــزائر ونصبهــــا يحيى المايورقى على بـــاب المدينــة وبقي يحيى يعمل على اثـــارة الفتـن بارض الجزائر ودخل بجاية ودلس مرة أخرى واخذ يتقلب فى البلاد هنا وهناك الى ان تجرد لقتاله ابو زكرياء الحفصى فاصلت عليه السيف ولاحقه حيث ما حـــل وارتحل فتشرد ابن غانية فى اقطار المغرب الاوسط ودخل مدينة واركلة وتسرب منها الى ارض الـزاب واستمر على تشرده الى ان ادركه حمامه بوادى شلف وقيل بارض الزاب سنة 631 هـ / 1233 م وقيل بعد ذلك بسنتين ؟ ٠٠٠ وبموته كان انقراض ملك لمتونة من الوجود وذهب ذكر بنى غانية فى الذاهبين ٠

والخلاصة ان النصر فى هذه الحرب كاد ان يكون فى جانب بنى غانيـــة لولا ان الموحدين كانوا قد احكموا خطط حربهم ضد هؤلاء المايورقيين وعرفوا كيف يسوسون رعاياهم بالحسنى حتى تمكنوا من ناصية القبائل المنشقة عنهم وعادت اعقاب الثورة كلها بالوبال والخسران عـــلى مثيريها من بنى غانية بل لم يكن فيها لاحد من الطرفين اى مصلحة فكثر فيها القتل وانتشر فيها الفساد والنهب والحقت بالناس اضرارا كثيرة فقطعت الاشجار وهتكت الاعراض وخربت الحصون والمدن والقرى ، وفيها كان خراب تيهرت ، ومتيجة ونواحى شلف والقلعة وحمزة ومرسى الدجاج وأرشقول بسيف هذا البحر وغيرها من المدن الجزائرية والتونسية ٠٠٠ وعمت الثورة كامل ارض المغرب الاسلامى بما فيه من البلاد الطرابلسية الليبية ، ولكنها كانت كلها أولا وبالذات وبالاعلى صاحبها باضمحلال امارة بنى غانية بجزر البالياز ، ثم انها آلت بالهلاك على اهل المغـرب قاطبة فيما اصيبوا به فى اموالهم وانفسهم من العيث والفساد وعلى دولة الموحدين نفسها فانها خسـرت

وحدتها السياسية باضمحلال سلطتها الزمنية في كلا القطرين : الجزائرى والتونسى ، فالاول كان من حظ الزيانيين (633 ــ 962 هـ / 1235 ــ 1554 م) والثانى كان من حظ الحفصيين (627 ــ 943 هـ 1229 ــ 1536 م) ثم اخذ شأن الموحدين يتدهور منذ واقعـــة العقاب الشهيرة بالاندلس (609 هـ 1212 م) وهكذا الى ان سقطت دولتهم بيد المرينيين سنة 668 هـ / 1269 م « وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » ٠

مصـــادر البحـــث :

المعجب لعبد الواحد المراكشى طبع ليـــدن 1881 م

تاريخ ابن خلدون ج 6 طبع بـــولاق 1284 هـ

عنوان الدراية لاحمد الغبرينى طبع الجزائر 1910 م

المسالك لابن حوقل ــ المكتبة الجغرافية ــ طبـــع ليدن 1938 م

الكامـــل لابن الاثيرج 11 ــ 12 طبع بيروت 1966 م

وفيات الاعيان لابن خلكان ج 2 طبع بولاق 1299 هـ

الاستقصا لاحمد الناصرى ج 2 طبع الدار البيضاء 1954 م

الاعلام لخير الدين الزركلى الطبعة الثانية ،القاهرة 1954 ــ 59 م

موجز التاريخ العام للجزائر عثمان الكعاك طبع تونس 1944 م

تاريخ الجزائر للميلى ج 2 طبع قسنطينة 1932 م

تاريخ المغرب لمحمد بن عبود ج 1 طبع تطوان 1951 م

تاريخ الجزائر العام عبد الرحمن الجيلالى ج 2 الطبعة الثانية (بيروت) 1965 م ٠

تحقيق موقع مدينة

« برشك »

عبد الرحمن الجيلالى

اتصلنا بمؤرخنا الكبير وطلبنا منه تحقيق موقع مدينة « برشك » التى جاءت فى هذه الدراسة ، فافادنا بما يلى مشكورا :

« برشك » بفتح الباء وكسر الراء وسكون الشين هو اسم لاحدى الموانى الغربية من بلاد الجزائر الساحلية التى اشتهرت على الخصوص ايام دولة بنى عبد الواد الزيانية ، وتكلم عنها ابن خلدون فى تاريخه والادريسى فى جغرافيته ؛ فنرى ابن خلدون يقول عندما ترجم للاخوين العالمين ابى زيد عبد الرحمن واخيه ابى موسى عيسى المشهورين بولدى الامام : انهما (من اهل « برشك » من اعمال تلمسان) ج 7 ص 388 ط بولاق 1284 هـ ؛ ولما ساق خبر زيرم بن حماد المكلاتى فى حوادثه مع بنى زيان (683 هـ / 1284 م) قال عنه بانه كان من مشيخة هذا القصر – يعنى برشك – كما سماه بالثغر ايضا (ص 99) وهناك اورد خبرا آخر عن ابى زيد عبد الرحمن بن محمد ابن الامام فقال : كان ابوه من اهل « برشك » ج 7 ص 100 ، وذكر بان عبد الرحمن هذا سافر من تلمسان الى «برشك» سنة 708 هـ / 1308 – 9 م فى مهمة للسلطان ابى حمو كانت هى السبب فى القضاء على زيرم ومشيخته وزعامته على تلك النواحى والجهات وصار امر « برشك » الى السلطان أبى حمو ، ج 7 ص 100 ، ولقد اعتنى ابن خلدون ايضا بضبط اسم هذا البلد بالحركات ، فضبط الباء بالفتحة وكسر الراء وجعل فوق الشين المعجمة علامة السكون كما جاء ذلك موضحا فى « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » ص 441 ط لجنة التاليف والترجمة والنشر – القاهرة 1951 م تحقيق محمد بن تاويت الطنجى .

وترانى ارجع فى تحديد موقع هذه البلدة الى ما هو مذكور فى كتب الجغرافية القديمة – والاسلامية منها على الخصوص – فبعد البحث والتدقيق فى التفتيش عنها فى كتب اهل الفن وجدتها مذكورة عند الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وذكرها فيه ثلاث مرات ؛ فاوردها اولا فى معرض ذكر بعض بلاد المغرب الاوسط – الجزائر – فذكر منها تنس و « برشك » ، وجزائر بنى مزغنا ، وبجاية ، وجيجل ... (ص 56) ط ليدى 1864 م ، ثم وصفها فى مكان آخر من كتابه هذا (ص 88) فقال : « ومدينة « برشك » مدينة صغيرة على تل وعليها سور تراب ، وهى على صفة البحر وشرب اهلها من عيون وماؤها عذب ، والفتتحها الملك المعظم رجار فى سنة 5 وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير ، ومنها الى شرشال – وهى معروفة – 20 ميلا ويصل بينهما جبل منيع يسكنه قبيلة من البربر تسمى « ربيعة » ... واعاد ذكرها فى صفحة 101 فقال : « وبين برشك وشرشال على البحر يتصل بينهما جبل كبير منيع يسكنه قوم من البربر يسمون ربيعة » .

فمن هذا عرفنا اولا ان « برشك » هى من بلاد الساحل الجزائرى الغربى ، وان موقعها جاء ما بين المدينتين : شرشال وتنس ، وانها تبعد عن مدينة شرشال غربا بعشرين ميلا يصل بينهما جبل منيع ...

ومما يسهل لنا الوقوع على هذه المدينة بالضبط هو ان ننظر نظرة خاطفة الى الخريطة الحالية للساحل الغربى من القطر الجزائرى حيث نجد مدينة شرشال ، ثم المكان المسمى « نوفى «NOVI، ثم عين الجينى Fontaine de génie

ثم فورايا ، ثـــم فيلبورق Villebourg ثم دوبليكس Duplix ثم فرانسيس فارنيى Francis Garnier ثم تنس ؛ ويبلغ طول هذا الساحل 576 كم وبلا شك ان مدينة « برشـــك » تكون ضمن احدى هذه الامكنـة المذكورة فيما بين شرشال وتنس .

وبما ان الادريسى جـــعل المساحة التى بـين شرشال و « برشك » هى عشرون ميلا ، والميل هو عبارة عـن ثلاثة او اربعة آلاف ذراع على الخـــلاف فى ذلك ـ وهذا الخلاف لفظى فقط ـ كانت الجملة تبلـــغ ما يعادل 40 كيلو ميترا ، وهذا ينطبق تماما على المكان المسمى اليوم « فيليبـــورق » Villebourg ؛ فبرشـــك اذن هـــى « فيليبورق » او مـا قـــرب منها مثـــل دوبليكس او فرانسيس فارنيى ؟.. وعلى كل فلا تخرج « برشـــك » عن هذا الخط ، فانظر الخريطة .



تلمسان والقدس الشريف

عبد الرحمن الجيلالي

انا لا اكاد ارتاح لذكر مدينة بلد الجدار تلمسان الا بذكر اسمها مقرونا باسم مدينة القدس المباركة من تلك الارض المقدسة ارض فلسطين ؛ بل ولا أجد في نفسي اطمئنانا ولا أشعر برضى من التاريخ ـ وانا اكتب كلمتي المختصرة هذه عن تلمسان والحرب اليوم قائمة ما بين العرب عرب فلسطين واسرائيل فلا يطيب لى ذلك ما لم اذكر بالروابط التاريخية العديدة التى تربط بين تلمسان والقدس فهي تمتد الى زمن بعيدضاربة في اعماق التاريخ القديموالحديث أيضا وهي تزيد على رابطة الجنس والدين واللغة بما تاصلهناكمن روابط وصلات اخرى أدبية واجتماعية وسياسية وما الى ذلك من أعمال كثيرة هي من قبيل البر والخير والاحسان .

ان تضامن الجزائر مع فلسطين ليس هو وليد الساعة ، ولا هو بنتيجة ظروف خاصة وانما هو متاصل في القدم له جذوره العميقة في الازل يجمعه بها شعور انساني عام فوق

ما هنالك مما يجتمعان عليه من لحمة الدم واللغة والتاريخ ، ومنها تلك الروابط الوثيقة التى كان ان ربطها بين البلدين رواد المغرب العربى ونزلوا خير منزل بتلك الديار المقدسة أرض فلسطين العربية الشهيدة ! ...

ففى أرض فلسطين وفى بلد القدس الشريف ، بل وفى جزء من أرض الحرم المقدس المجاور للمسجد الاقصى (الذى باركنا حوله) نجد هناك حارة المغاربة متصلة بحائط البراق وهو الجدار الذى يحوط الحرم القدسى من الناحية الغربية ، وبأعلا الحارة هذه نجد كذلك زاوية المغاربة التى أنشأها من ماله الخاص الشيخ عمر بن عبد الله المغربى المصمودى المعروف بالمجرد ، وأوقفها على الفقراء والمساكين ثالث ربيع الثانى سنة 703هـ/1303م وبجنوب باب السلسلة من الحرم المقدس نجد باب المغاربة وحائط المبكى نفسه ومعه الرصيف الكائن أمام هذا الحائط كل ذلك هو وقف اسلامى تلمسانى محض يرجع الى أوقاف الشيخ شعيب بن الحسين الشهير بسيدى أبى مدين الغوث دفين تربة العباد بتلمسان 594هـ/1198م ، أنشىء هذا الوقف زمن صلاح الدين الايوبى لمنفعة جماعة من المغاربة المسلمين .

وبمراجعتنا للتاريخ نجد منصب قضاء المالكية بالقدس الشريف فى سنة 858هـ/1454م كان مسندا الى القاضى برهان الدين أبى اسحاق ابراهيم بن زين الدين أبى المعالى منصور المالكى التلمسانى ، وفى سنة 867هـ/1462م كانت خطة قاضى القضاة - أو قاضى الجماعة - بالديار المقدسية مسندة الى الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد التلمسانى ؛ وبعد وفاة القاضى البساطى المالكى قاضى القدس ، أسند هذا المنصب الى قاضى القضاة شرف الدين أبى الروح عيسى بن شمس الدين محمد المغربى الشحينى المالكى (847هـ/1443م) ، ترجم له صاحب الانس الجليل ج 2 ص 585 ط مصر 1283هـ فقال : انه باشر منصبه هذا بعفة وشهامة ولم يل منصب القضاء مثله فى العفة والتقوى والعلم ، وكان له هيبة زائدة ووقع فى القلوب ، وكان من قضاة العدل والعالمين العاملين لا يحابى أحدا فى الحكم ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ومما وقع له أن نائب القدس مبارك شاه حين ولى النيابة ودخل القدس ركب القضاة للقائه على العادة وألبس خلعة السلطان ، وكان

قد أمسك جماعة من الفلاحين فلما وصل بهم الى باب الخليل قصد شنقهم أو شنق واحد منهم ، فأمر بذلك ، فتقدم اليه القاضي (المغربي) شرف الدين عيسى المالكي وقال لـه : ما الذي تريد تفعل بحضورنا ؟٠٠ فقال له الشاه : أشنق هؤلاء ، قال بأي طريق ؟ ٠٠ قال لصوص قاتلون للنفس، فقال له القاضي : هل ثبت عليهم هذا بالطريق الشرعي ؟ ٠٠٠ قال النائب : نحن لا نحتاج الى ثبوت ، فقال له القاضي : تقتل مسلما عمدا بحضوري بغير حق هذا لا سبيل اليه ، ولكن تدخل المدينة وتنظر في أمرهم ، فان ثبت عليهم ما يقضي قتلهم قتلناهم والا فلا سبيل الى قتلهم ، فشدد النائب في أمرهم وقال : لابد من قتلهم ، فقال له القاضي : والله لو قتلتهم بحضوري لكنت أقتلك بيدي وأعلقك الى جانبهم كما أنت بخلعة السلطان ؛ فلم يقدر النائب على مراجعته لهيبته ، ودخل الى المدينة ولم يستطع قتلهم ؛ وله مثل ذلك أخبار كثيرة عفا الله عنه ، واستمر على القضاء بالقدس الى أن توفي سنة 854هـ/1450م ، والشيخ محمد بن علي المطغري المغربي المشهور بالفلاح باشر الحكم بالقدس نيابة على القاضي المغراوي وتوفي سنة 876/1472م ٠

ومنهم قاضي قضاة القدس والشام الشيخ أمين الدين سالم بن ابراهيم المغربي الصنهاجي المالكي قدم الى القدس من المغرب فقيها عالما فاضلا ؛ ووقع في أسر الكفار سنة 834هـ/1431م وناظر الاساقفة ببلادهم فأفحمهم وأقام عندهم مدة ثم انجاه الله وقدم الى دمشق فتولى قضاءها ثم ولي قضاء القدس سنة 845هـ/1442م ٠ ثم أعيد الى قضاء الشام فسار سيرة حسنة بحرمة وعفة ونزاهة ، وكان يحفظ الشفاء على ظهر غيب ، توفي سنة 873هـ/1469م ، وقاضي القضاة محمد بن سعيد المغراوي (873هـ/1469م) الخ ٠٠٠

وكذلك قل في منصب امامة المالكية بالمسجد الاقصى فكثيرا ما تولاها مغاربة ، كان منهم في الربع الاول من القرن التاسع الهجري المقرىء الشاعر الاديب الشيخ شمس الدين عبد الواحد بن جبارة المغربي ، وكان السبب في ترتيبها هو الشيخ موسى المغربي المالكي المتوفى في حدود الثمانمائة والمدفون بزاوية المغاربة ، وكانت مشيخة المغاربة وامامة المسجد الاقصى للشيخ خليفة بن مسعود المغربي الجابري (833هـ/1430م) ٠

وهكذا حيثما توجهت وطفت بأرض فلسطين المقدسة وسبحت في اجوائها العطرة أو جلت في انحاء بقاعها الفسيحة الا ووجدت هنالك للمغاربة ــ تلمسانيين أو غيرهم ــ أثرا

ظاهرا يذكر فيشكر ؛ وألفيت معه جوبيت المقدس على الاخص يعبق بعبير شذا مفخرة تلمسان خصوصا والمغرب العربى قاطبة عموما العلامة أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ٠

زار هذا الرجل العظيم القدس مرتين (1029هـ/1620م) وله فيه أحبـاء وأصدقاء وتلامذة ومريدون تركهم كلهم يهتفون باسمه ويتشرفون بالانتماء اليــه والانتساب الى حضرته فأثره الروحى خالد هناك ، وأعماله المبرورة بتلك الديار ماثلة للعيان ٠

فلقد حدثنا العياشى فى رحلته عن نفسه عندما ازمع على الرحيل من أرض الحجــاز وتهيا للخروج بمفارقة أرض العقبة قال بأنه استصحب معه كتابا من صديقه الشيــخ اسماعيل النابلسى الحنبلى كتبه الى الشيخ عبد القادر بن الغصين يوصيه فيــه بشأن العياشى ويعرفه بمنزلته فى العلم ٠٠٠ وبعد اتصال العياشى بأرض فلسطين ودخــوله غزة تلك البلدة المجاهدة التى هى تعانى اليوم فى كفاحها ضد الصهيونية ما تعانى !!٠٠٠ ونزل بجامعها الكبير وسلم لوقته الرسالة الى صاحبها عبد القادر بن الغصين ، قــال : ولما كان الغد من يوم وصولنا دخلت على الشيخ عبد القادر فى مدرسته فسلمت عليــه ، وقال لى أين الرجل الموصى عليه فى الكتاب الذى ناولنى أمس أين نزل فانى لم أجد من يدلنى عليه ؟ ٠٠ ؛ وكان لا يظننى اياه لما رأى من رثاثة هيئتى !٠٠ فقلت أنا هو ، فأعاد السلام ورحب واعتذر عما صدر منه من التغافل وبعث فى الحين من أتى بامتعتنا وأصحابنا من المسجد وانزلنا فى مكان واسع مهيأ المرافق من مدرسته وأحسن غايــة الاحسان ؛ ومدرسته هذه فى قبلة المسجد الاعظم ليس بينه وبين المسجد الا الطريق ، وغالب جلوسه فيه ويأوى اليه أصحابه فيه ويقرأون خمسة أحزاب من القرآن كل يوم قبل طلــوع الشمس مناوبة ، وفيه خزانة كتب وتقرأ فيه كتب علمية ٠ واخبرنى رضى الله عنه ان أمير البلد هو الذى بنى هذا الرباط وأوقفه عليه وجعل له أوقافا ؛ وأخبرنى ان الشيخ ابا العباس (أحمد المقرى التلمسانى) رضى الله عنه هو السبب فى ذلك ، وانه لما جاء من مصر الى الشام وكان منزله عند والد الشيخ الغصين وكانت للشيخ المقرى مكانــة عند الامير قال وكانت دارنا بعيدة من المسجد فأتى الى المسجـد اقــرأ فيه وأقــرى فسألته ان يطلب لى الاذن من الامير فى بناء بيت ببعض رحــاب المسجد واستقل فيــه بالمطالعة والقراءة ، فقال لى لابد من حضورك معى عند الدخول على الامير ، قال فلما دخلنا

عليه قدم له الشيخ مقدمات فى فضل بناء المساجد والمدارس ثم اثنى على الشيخ عبد القادر وقال له : انه من أهل العلم وليس ببلدكم مثله وأراد أن تأذنوا له فى بناء بيت فى المسجد يقرأ فيه ويقرى ، فقال الباشا : مثلك لا يليق له البناء فى المسجد ولكن هنا موضع نحبسه عليك ، وهو موضع المدرسة الآن ، وكان يسكنه أقوام لا خلاق لهم من اعوان الدولة ، فقال له الشيخ المقرى لما هممت بهذا فامضه الآن ولا تؤخر ، فلم يبرح من المحل حتى دعا القاضى وكتب وشهد الشهود وأخرج من كان فى ذلك المحل وحبس على المحل أوقافا يتحصل منه نحو خمس قطع فى كل يوم ، ولم يزل المحل بعد ذلك عامرا بالذكر والقراءة ولله الحمد ، قال فما نحن فيه كله من بركة الشيخ المقرى ؛ قال ومن قوة تواضع الشيخ المقرى رضى الله عنه انه لما أتى من مصر جاء بكتاب من عند الشيخ النجار فيه وصاية الى والدى به فأنزله والدى عندنا وأكرمه غاية ، فلما أنس بنا وتداخل معنا قال له والدى يوما ما يا سيدى أحمد انا نشتهى الطعام المسمى عند المغاربة (الكسكس) فهل فى أصحابكم من يحسن صنعته ؟ ... فقال له فيهم والله ! لا يصنعه لكم أحد غيرى، قال فأتيناه بشاة لحم ودقيق وسمن وما يحتاج اليه ، فصنع لنا بيده طعاما من أجود ما يكون من ذلك النوع ... (الرحلة ج 2 ـ ص 305 ط ، فاس 1316 هـ) .

وجرى الشيخ العياشى على ما كانت عليه تقاليد العلماء تجرى بينهم عند اللقاء من استدعاء الاجازة توطيدا للرابطة العلمية ومحافظة منهم على سند الرواية المتسلسل الذى اختصت به هذه الامة فى تلقيها عن العلماء وامعانا فى الضبط ؛ قال ولقد استجزته فاجازنى ... وقرأت عليه بلفظى منظومة شيخه المقرى (التلمسانى) فى العقائد المسماة (اضاءة الدجنة ، بعقائد أهل السنة) كلها واخبرنى بها عنه وقال لى : أنا ممن كان السبب للشيخ (المقرى) فى نظمها ، فأنى كنت أقرأ عليه صغرى الشيخ السنوسى بمصر فسألنا منه نظما فى العقائد ، فكان كلما قرأ درسا نظمه فيقراه غدا كذلك الى ان ختمها ؛ قال وعند الشيخ الغصين نسخة من هذه المنظومة عليها خط الشيخ (المقرى) فى أماكن ، عليها اجازة لمالكها الشيخ عبد القادر ، ولنذكر بعض ما رأيته مكتوبا فى هوامشها بخط المؤلف تبركا به وزيادة فى الافادة ؛ ... وهنا أورد العياشى فى رحلته

طائفة من المسائل التى خطها المقرى بيده على هوامش منظومته اضاءة الدجنة ... قال : وكتب ـ المقرى ـ فى آخرها ما نصه :

« يقول مؤلف هذه العقيدة العبد الفقير أحمد المقرى المالكى جبره الله ، أننى صححت هذه النسخة جهد استطاعتى وأصلحت فيها ما عثرت عليه ، وقد كتب من هذه العقيدة فيما علمت بمصر المحروسة والشام والحجاز والمغرب ما ينيف على ألف نسخة ولله الحمد وكتبت خطى على نحو المائتين منها وقد كتبها غالب طلبة مكة لما قرأتها هنالك وأهل بيت المقدس لما قرأتها به أيضا وأهل دمشق حين درستها بها وأخذ منها أصحابنا الى المغرب والصعيد نسخا ، وكتب لى بعض اصحابنا بالصعيد انه كتب منه هناك ما ينيف على مائة نسخة ، وكذلك برشيد والاسكندرية جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ؛ وكتب لشوال سنة 1207هـ/ماى 1793م ·

وهذه العقيدة مطبوعة فى مصر بشرحها للشيخ المختار بن الاعمش (1306هـ/1889م) ·

هذا فى الماضى القريب والبعيد، ولا يفوتنا هنا أن نذكر بموقف حزب الشعب الجزائرى فى سنة 1937 م ، حيث وقف الى جانب فلسطين وحمل حملته المشكورة ضد الاستعمار والمستعمرين ، وقد تعقبت الحكومة الاستعمارية هذه الحملة وبطشت بالعشرات من المناضلين وحاكمتهم بمختلف العقوبات وبقيت تتصيد على المال لمنعه من الوصول الى محله بفلسطين ولكنه رغم ذلك كله وصل المال الى محله عن طريق الشباب الذى كان يتزعم قضية فلسطين وعن طرق أخرى كذلك، وهناك يومئذ نخبة من أهل تلمسان جمعت من المال مبلغا لا بأس به وبعثت به الى فلسطين عن طريق (مجلة الرسالة) وهناك آخرون فى أنحاء القطر الجزائرى قاموا بنفس العمل ·

وفى سنة 1952 م ، نهض القاضى الشيخ شعيب الطالب التلمسانى بتكوين لجنة لحماية (وقف سيدى أبى مدين) بالقدس من يد العابثين وللحفاظ عليه من يد البلا والخراب وانه لما حج السيد محفوظ الونيسى الاستاذ بثانوية سطيف سنة 1955 م ، عرج على الديار المقدسية واطلع على حال الوقف واتصل بالمتولى عليه ولما عاد الى الجزائر أخبر بانه شاهد بنفسه الزاوية الموقوفة على سيدى أبى مدين ،وما اتصل بها من الدار الكبيرة

المعدة لنزول قاصدى القدس من أهل شمال افريقية وانهما فى غاية الصيانة كما أفاد عن القائم بشؤون هذا الوقف وانه كان وقتئذ مهتما بانشاء مستوصف طبى ودار للايتـــام بالاضافة الى ما كان ينوى من اقامة معهد ثقافى مزدوج اللغة ، فكل ذلك يدلنا على عناية أهل الجزائر ـ وبالاخص منهم أهل تلمسان ـ بالتراث الذى يربطنا بهذه البقاع المقدسة منزل الوحى ومصدر الانبياء والمرسلين ومهبط الملائكة ومصعد النور مــــن الفرش الى العرش ، وآية ذلك ما تقوم به الجزائر اليوم فيما تعتقده واجبا مفروضا عليها من نصرة القضية الفلسطينية العادلة وتدعيمها بشتى اشكال الدعائم فى جميع الميادين ، ولا يخفى موقف الوفد الجزائرى فى مؤتمر القمة الاسلامى المنعقد بالرباط اثر ارتكاب الصهاينـــة لجريمة احراق المسجد الاقصى (1969/8/21م) من تصميمه فى التأكيد على ان لا تأخـذ قضية الاحراق هذه وحدها أهمية مناقشة المؤتمر، بل يجبان تناقش المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها حتى لا يبقى فى القوس منزع .

هذا وقد شاع فى هذا العصر العمل على زيادة المبالغة فى نشر السلم وتمتين أواصر الود والايخاء بين الامم والشعوب فابتكر ذوو الخبرة السياسية فكرة التوأمة Jummlage بين البلاد امعانا منهم فى ربط صلة التآخى والمؤخاة بين الناس جميعا . فتراهم ربطوا بهذه الطريقة عاصمة الجزائر ببراق عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، كما ربطوا مدينة صوفيا عاصمة بولغاريا بمدينة الجزائر أيضا ، وأنا اقترح اليوم ربط مدينة تلمسان بمدينـــة القدس الشريف تثبيتا وثيقا لما بينهما من علاقة الصداقة والود والاحسان حتى تستمر هذه العلاقة متصلة فتضل منتظمة لا تنفصم ولا تزول بحول الله .

الخلافة وإمارة المؤمنين أو البيعة ومبدأ الشورى في الإسلام

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ وفقيه

ان مقولة الخلافة والامامة العظمى فى مجال البحوث الاسلامية هى من أولى المشاكل الهامة التى أثيرت بين الفرق والطوائف المسلمة قاطبة ، وانى ما رأيت مسألة من المسائل الاسلامية الاصيلة تضاربت فيها الآراء واختلفت فيها الاقوال وتبلبلت فيها الافكار وتلاعبت بها الاهواء ودخلها التعصب وكثر فيها النزاع مثل ما وقع فى مسألة الخلافة ، أو الامامة العظمى ، وامارة المؤمنين .

وكلما مر عليها زمن الا وزاد البحث فيها غموضا وتعقيدا حتى أنها أصبحت أعقد من ذنب الضب ، اذ ليست ثمة مسألة من مسائل الدين أسالت الدماء وأثارت النزاع في كل عهود التاريخ الاسلامي مثل ما أسالت

هذه المسألة واثارته من نقاش حاد وخلاف أدى أصحابه الى المقاتلـــة والمقاطعة ، وهذا ما نهى عنه الاسلام ، وفى ذلك يقــول الشهرستانى وهــو من كبار علماء الاســلام وحكمائه فى القــرن السادس الهجرى ــ الثانى عشر الميلادى ــ قال : وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة اذ ما سل سيف فى الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة فى كل زمـــان .

وان السبب فى ذلك ــ حسبما يظهر ــ هو ما لحق الامة من دعــوة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، أو قل هى فراسته فيها كما رواه الطبرى فى تاريخه ، وذلك حينما حضر الاشتر النخعى بين يدى عثمان فى أواخر حياته أى أيام الفتنة فقال له الخليفة يا أشتر ، ما يريد الناس منى ؟ قال الاشتر : ثـلاثا ليس من احداهن بد ، قال : مـا هى ؟ قال : يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختاروا له مــن شئتم ، وبين أن تقتص من نفسك ، فان أبيت هاتين فان القوم قاتلوك !!. فقال عثمان : فو الله لئن قتلتمونى لا تتحابون بعدى أبدا ، ولا تصلون جميعا بعدى أبدا ، ولا تقاتلون بعدى عدوا جميعا أبدا . وها نحن نرى ذلك واقعا بالفعل ودعوته هذه مستجابة وفراسته هذه مستمرة المفعول على مر الدهور والعصور منذ تولى الامر معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنه ثم بعده ولده اليزيد الى هلم جرا ....

فمن المعلوم ضرورة أن الخليفة هو مصدر السلطات الدينية والمدنية لجميع الامم الاسلامية ولا يتعدد فلا يكون الا شخصا واحدا فى الزمن الواحد ولكننا رغم ذلك شاهدنا فى الزمن الواحد والعصر الواحد عدة حكومات كل منها يدعى الخلافة لنفسه فهذه خلافة أموية ، وهذه خلافة علوية ، وهذه خلافة عباسية ، وهذه خلافة فاطمية ، وهذه خلافــة فى الاندلس ، وهذه خلافة فى المغرب حتى صدق على أصحابها قول من قال :

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وهكذا تفرق شأن الخلافة فى أنحاء المعمورة فادعاها العرب والعجم ، وهم الى ذلك ـ الى يوم الناس هذا ـ فى خلاف مستمر فى تعيين الشخص الذى يقوم بهذه المهمة ، وبما أنه ـ حسبما يتطلبه منصبه ـ هو مصدر السلطات الدينية لجميع الامم الاسلامية ، اشترطوا فيه شروطا أربعة كما عند ابن خلدون ، وهى العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل ، واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى . ومنهم من قال : هى سبعة شروط ، وفيهم من زاد على ذلك الى عشرة .

والذين اشترطوا القرشية نراهم كذلك اختلفوا مع أنفسهم فى هذا القرشى ، هل يكون من مطلق قريش أو هو من آل على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه خاصة ؟.. وكذلك نراهم اختلفوا أيضا فى من يخلف الخليفة بعد فقده فهل يكون ذلك بترشيح من سابقه فيتولاها اللاحق بطريق الاستخلاف وولاية العهد ... أم يكون ذلك بالانتخاب ؟.. وكذلك نراهم اختلفوا فى عزله فى حال ما اذا انحرف وثبت جوره وظلمه فمنهم من قال بعزله ، ومنهم من خالف وقال : وليس يعزل ان أزيل وصفه ؟.. بل حتى شرط العدالة الذى هو شرط أساسى فى الخلافة وقد قال فيها امام الحرمين : وكيف يتصدى لها من ترد شهادته ؟.. هذا الشرط نفسه وجدنا من فقهاء الاحناف من اسقطه وجوز أن يتولى الامامة الفاسق مع الكراهة .

ثم ان نفس جوهر القضية وهو تنصيب الخليفة هذا نجدهم قد اختلفوا فيه ... هل هو على سبيل الواجب أم لا ؟ ... وان قلنا بالوجوب فهل هو واجب شرعا أو عقلا ؟ ... وفيهم كذلك من توسع ممن قال منهم بالوجوب حتى قال : هل هو واجب على الله أو على الخلق ؟ ... كما أننا



وجدنا فيهم من لا يقول بالوجوب اطلاقا فليس قيام الامام عنده من الفروض الدينية تماما . فان الجماعة الاسلامية عندهم تستطيع فى أى وقت من الاوقات أن تقوم بجميع الفروض الدينية ، وأن تكون لها حكومة مدنية مستكملة لجميع الصفات الشرعية من غير أن يقوم فيها امام على الاطلاق فاذا ما رأت هذه الجماعة فى ظروف خاصة أن من المستحب أن يكون لها امام أو أوجبت الظروف ذلك فلها أن تختار من يلى هذا المنصب ، فاذا تبينت انه ليس أهلا له على أى وجه من الوجوه فلها أن تعزله أو تقتله كما حكى ذلك الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل .

كما أنهم اختلفوا فى تنصيب المفضول مع وجود الفاضل مراعاة للظروف ، وهناك من اشترط الاجماع على المبايعة ومنهم من شط فى الخلاف فلم يشترط العدد ولا اتفاق من فى سائر البلاد ، بل قال : بانعقاد البيعة ولو بمبايعة واحد مطاع من أهل العقد والحل ، وفيهم من اشترط الاشهاد فى المبايعة ومنهم من لم يشترط ذلك ، الى غير هذا مما حام حولها من آراء متناقضة ومتضاربة مختلفة .

وهكذا نجدهم فى خلاف مستمر لا يستقرون على رأى أو مذهب . وانى لست هنا بصدد مناقشة كل هذه الآراء ونقدها وتمحصيها وتمييز صحيحها من غيره فلهذا ميدان آخر . وكذلك لا أحب أن اعزو أى قول من هذه الاقوال ثبت لطائفة أو فرقة معينة من الفرق الاسلامية التى خاضت فى هذا الموضوع بل يكفينا منها أنها مسلمة ، اذ انه لا يكاد يسلم النقاش فى هذا الموضوع من الوقوع فى معارضة شديدة وتصلب فى الرأى ، وتعصب للمذهب وللسياسة أيضا ، كل حزب بما لديهم فرحون ... وهذا ما أشار اليه امام الحرمين فى الارشاد حيث قال : ان الكلام فى هذا الباب يعتريه نوعان محضوران عند ذوى الحجاج ، أحدهما ميل كل فئة الى التعصب ،

وتعدى حد الحق ... وانما حسبى اننى اشرت هنا الى مبلغ دقة موقف علماء الاسلام وتقصيهم فى البحث فى هذا الباب وشدة الخلاف فى ذلك، وهنا وقع الكثير من أرباب الطوائف والفرق والمذاهب الكلامية والفلسفية فى مزالق حرجة ومسالك شائكة وقانا الله شرها .

وما رأيت من استطاع التخلص من هؤلاء الذين خاضوا فى مباحث الخلافة والامامة الكبرى أحسن تخلص مثل ما تخلص به أصناف ثلاثة :
أولا الصنف الذى رأى انقضاء زمن الخلافة وانتهاء ايامها باستشهاد الامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه اعتمادا على الخبر المأثور عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكا عضوضا قال الراوى : حسبت خلافة أبى بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان وخلافة على رضى الله عنهم فوجدناها ثلاثين سنة ، فمعنى هذا أن معاوية ومن بعده لا يكونون خلفاء بل كانوا ملوكا وأمراء .

والصنف الثانى هو القائل بصراحة بحلول القوة محل النظر العقلى فى العالم الاسلامى ، وانه تولد عن هذه القوة نظرية دستورية : وخير من يمثل هذا الرأى من العلماء هو بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة 819هـ/1416 م . وقد بسط الكلام فى ذلك فى كتابه تحرير الاحكام فى تدبير أهل الاسلام ، فهو يقول بأن الامام يلى منصبه اما بالانتخاب واما بالقوة حسبما تقتضيه المصلحة العامة .

والصنف الثالث هو القائل بتركها شورى بين أهل العقد والحل كما تركها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه شورى بين الستة المعروفين ، فيكون مجلس الشورى هو فى مجموعه بمنزلة امام واحد من غير تعيين لشخص بعينه .

وهكذا عاشت الامة الاسلامية طيلة تاريخها السياسى بين مد وجزر حول قضية الخلافة أو البيعة والشورى فى الاسلام الى أن قضى عليها الاتراك سنة 1342 هـ/1924 م . ومع ذلك لا زلنا نسمع الخوض فيها الى يومنا هذا وما يزال ذكرها يتردد ويطول الجدل فيها بين الناس مع التصريح جهرة باللقب الذى اختص به صاحبها : أمير المؤمنين .

نحن نعلم ان أول من اشتهر من الخلفاء بهذا اللقب هو الخليفة عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه ، وكانوا يدعون سعد بن ابى وقاص بالامير لامارته على جيش القادسية سنة 14 هـ ، وهم معظم المسلمين يومئذ ، كما نعت به عبد الله بن جحش فى سريته الى نخلة فى العام الثانى للهجرة فكان أول أمير فى الاسلام ، ثم توارث الخلفاء هذا اللقب بعد عمر لا يشاركهم فيه أحد سواهم سائر دولة بنى أمية ثم دولة بنى العباس ، الا أن الشيعة خصوا عليا باسم الامام لما هو عليه مذهبهم فى كونه هو أحق بامامة الصلاة من غيره فخصوه بهذا اللقب هو ومن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده ، فكانوا كلهم يسمونهم بالامام ما دامو يدعون اليهم فى الخفاء ، حتى اذا استوثق لهم الامر حولوا اللقب فيمن بعده الى (أمير المؤمنين) وهكذا فعل شيعة بنى العباس قبل ظهور السفاح فانهم ما زالوا يدعون ائمتهم بالامام الى ابراهيم فلما هلك دعى أخوه عبد الله بن محمد بأمير المؤمنين ، واشتهر بالسفاح ، وكذا خصومهم من الذين ادعوا الخلافة لانفسهم كالعلويين والقرامطة والفاطميين . وكان الادارسة بالمغرب يلقبون ادريس بالامام وكذلك ولده ادريس الثانى وهو الاصغر كما يعبر عنه المؤرخون ، ومثلهم فى ذلك الرستميون فى تيهرت ـ الجزائر ـ ولم يكن هناك من لقب بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن تولاها الصديق رضى الله تعالى عنه أحد سواه .

وكما هو الحال كان عند الامويين والعباسيين والفاطميين من اطـلاق لقب أمير المؤمنين على صاحب السلطة المطلقة ، فكذلك أطلقه الامويون وعدد من أسر الحكم الصغرى في الاندلس قبل الغزو الموحدى وبعده على معنى السلطة المستقلة المحدودة ، وكذلك فعل الموحدون والحفصيـون والمرينيون والزيانيون بالمغرب العربى فكلهم اتخـذ لنفسه لقب أمـير المؤمنين مع أن سلطتهم كانت محدودة .

وظل بعدهم اشراف المغرب وسلاطين الترك يتخذون هذا اللقب سمة لهم ، ولكن هذا اللقب لم يتخذه الاتراك لقبا رسميا من حيث هو يتضمن حقا فى الخلافة العامة حتى بعد فتح السلطان سليم مصر سنة 922 هـ ، 1517 م ، وادعاه أيضا بعض ملوك سجلماسة من بنى مدرار فى سنة 342 هـ 953 م . وتلقب صاحبه بالشاكر ، وضربت بذلك الدراهم والدنانـير ، وهكذا فعل امراء الجيوش الاسلامية فى السودان الغربى وعـلى حدود السينيغال فى القرن الماضى كان منهم المسمى أحمد الشيخ أو أحمـد سيكو بن الحاج عمر حاكم تكرور ، ومثله حمدو لبو فى تلك النواحى أيضا فكلاهما اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، ووقع مثل ذلك فى جاوى أيضا . ولهذا التزاحم والنزاع على مقام الخلافة والتهافت على لقب أمير المؤمنين نرى أحقية قول ابن خلدون : انه لم يبق من الخلافة بعد زوال سلطان العرب الا اسمها . ويقول أبو الريحان البيرونى المتوفى سنـة 440 هـ/1408 م . انه لم يبق للخليفة من الامر شيء اللهم الا ما كان متعلقا بالدين وحراسته .

والخلاصة ـ عندى ـ ولا سيما بعدما تطور نظام الحكم اليوم عند جميع الشعوب الاسلامية حيث ولا حدود تقـام ولا تطبيق لاحكام القرآن فى المعاملات ولا نظام لبيت المال ، ولا نظام للصدقات والزكاة والعشور ولا للخراج ولا للجهاد ولا للبيوع والقراض والاجارات الخ ... كل ذلك

دخله التحريف والتبديل والتغيير والحذف ، فلم يبق مع ذلك لمقام أمير المؤمنين أى حرمة ولا هيبة ، وعليه فلا ارى حرجا فى ان يتلقب من شاء اليوم بلقب أمير المؤمنين ، وليدعه من شاء فلا معنى له عندى اليوم وما هو الا كما قيل :

مما يزهدنى فى أرض أندلس   أسماء معتصم فيها ومعتضد

القاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

وليتسم به من أحب فهو عندى لا يزيد عن من يتسمى اليوم بسيف الدين وسيف الاسلام أو محيى الدين وعضد الدين أو ركن الدين ، فهو مطلق علم أو (اسم يعين المسمى مطلقا) ويعجبنى فى ذلك قول من قال :

طلع الدين مستغيثا الى الله   وقال العباد قد ظلمونى

يتسمون بى وحقك لا أعرف منهم شخصا ولا يعرفونى

وكان من فضل الله علينا وعلى الناس أن كانت مسألة نصب الامام ليست ركنا يعتقد فى الدين ولا هى من أصول الاعتقاد كما قال امام الحرمين فى الارشاد .

حول

مسجد سيدي بومروان العتيق بعنابة

عبد الرحمان الجيلالي
مؤرخ ـ الجزائر

بعد تقديم أخلص التحيات والتقدير الوافر لكامل أعضاء هيئة وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، وفي مقدمتهم جناب الاخ الكريم سيادة الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم على حسن ظنهم بهذا العاجز الماثل امامكم في اقتراحهم عليه القاء ما أسموه محاضرة بهذا القصر المنيف ، مع أنني ليس لي يد بهذا الامر ولا قبل لي به ، ولكنه نزولا عند رغبتهم الملحة ساحاول جهدي في التحدث اليكم الليلة أيها الاخوة الكرام كمحاضر او قل كمسامر يطوى هزيعا من الليل في حديث أعده لاخوة له أوفياء يحوم حول التاريخ والفن المعماري ، ولا جرم في أن التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية ، حتى ليصح لنا أن نقول بأن الوطن هو تاريخ الوطن ، ولا حياة لامة الا باحياء ماضيها ، والموضوع هو ما علمتم : جامع سيدي بو مروان ببونة ـ عنابة ـ أو جامع بونة العتيق .

(*) محاضرة القيت في المركز الثقافي الاسلامي بتاريخ 6 ربيع الاول 1395 هـ ـ الموافق لـ 19 مارس 1975 م .

ولقد اخترت الكلام حول هذا الموضوع لما يربط بين وزارتنا الموقرة هذه وبين المسجد بصفة عامة من الاتصال الوثيق : روابط متينة وأواصر ثابتة ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالتعليم الاصلي والشؤون الدينية مصدرهما واحد ، وذلك المصدر هو المسجد ٠

وركزت حديثي هذا حول مسجد سيدي بو مروان ببونة ـ عنابة ـ ذلك لما يمتاز به هذا المسجد أو يختص به ما بين مساجد الجزائر الجامعة من خصائص وامتيازات نادرة انفرد بها ما بين كثير من الجوامع ، وأهمها في نظري قيمته التاريخية الاثرية ، وهندسته الفنية ، ووضعيته الستراتيجية الحصينة ، وبذلك جاء حديثنا هذا يشتمل على أربعة عناصر :

أ ـ نشأة المسجد في الاسلام بصفة عامة ٠

ب ـ جامع سيدي (بو مروان) ٠

ج ـ المدينة التي أنشىء بها هذا المسجد ـ وهي طبعا بونة ـ ٠

د ـ سيدي بو مروان ٠

كلنا يعلم وانه بعد توحيد شبه الجزيرة العربية في ظل الاسلام برز منها الفاتحون لنشر دينهم في الآفاق ، فاحتلوا سوريا في مدة وجيزة ، وثلوا عرش الاكاسرة والقياصرة وامتلكوا ناحية العراق وبلاد فارس ، ثم انتشروا غربا في افريقيا والاندلس فاندكت لهم عروش الاباطرة ، واندفعوا شرقا نحو الهند والصين ٠ ففتحوا منهما من المدن القاصية ما لم يبلغه غيرهم من الفاتحين ، بحيث لم ينقض القرن الثاني للهجرة حتى كانت الامبراطورية العربية الاسلامية تمتد من جنوب فرنسا وجبال البيريني غربا ، الى حدود طوروس وتركستان وواد كشمير شرقا ، وبذلك شملت ممتلكات العرب رقعة زادت سعتها عن رقعة الامبراطورية الرومانية ايام بلوغها أقصى ما بلغته في أوج اتساعها ٠

واندفع المسلمون الفاتحون ـ بطريق مباشر وغير مباشر ـ الى العناية بفن العمارة والانشاء والتعمير وكان منطلقهم في ذلك عما وصف القرآن الكريم به الجنة فقال : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار » وقال في آية أخرى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الانهار»

الآية ، وفى آية سورة سبأ ، وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون •

وصرح سليمان : قال انه صرح ممرد من قوارير ، وذكر الصوامع والبيع والمساجد فى آية سورة الحج : « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » الآية •

فما كان المسلمون يفتحون الامصار ويرون ما بها من الآثار حتى أقبلوا على البناء والتشييد فأقاموا قصورا شاهقة رشيقة التكوين ، موزونة الابعاد ، منمقة الجدران ، ضاع معظمها ويا للاسف ، ونفضت معاول علماء الآثار الاكفان عن بعضها ، وافلت من يد الدهر بعضها الآخر ، وهو ما نراه اليوم منبثا هنا وهناك فى أنحاء العالم شرقا وغربا ، منه جامع الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء وبالمدينة المنورة وجامع عمرو بفسطاط مصر ، وجامع عقبة بالقيروان ، والمسجد الاقصى ـ المأسوف عليه ـ وقبة الصخرة ، والازهر ، وجامع دمشق ، وجامع قرطبة ، وجامع دلهى بالهند ، والقرويين بفاس ، وجامع الزيتونة بتونس ، ومساجد تلمسان والجامع الكبير وسيدى رمضان بالجزائر ، وذلك بالاضافة الى قصور القاهرة واسطنبول ودمشق ، وطشقند ، وفارس ، وما فى هذه البلاد من حصون وقلاع ••• ومنها تلك الجوهرة الثمينة وذلك القصر العظيم الذى شيده بنوا الاحمر فى الاندلس ، وهو بغرفه الفسيحة وزخرفته الرائعة ، وقبابه الرشيقة العالية ، ومياهه الدافقة الرائقة ، وجناته ذات القطوف الدانية ، لهو خير شاهد على ما ذكرنا •

ولم يكن هنالك من بد للدولة الاسلامية فى مراحل تاريخها الطويل من تشييد العمائر المختلفة لخدمة أهدافها الدينية والمدنية والعسكرية بشكل اختلف حسب تلك الاهداف ، ويأتى فى مقدمة العمارة الدينية : المسجد •

فالمسجد أيها الاخوة الكرام هو كما تعلمون فضلا عن كونه المعبد الذى يجتمع فيه المسلمون صفا واحدا متساوين فى كل شيء ، وفى شرف العبودية ، وفى شرعة العبادة التى تصفو بها أنفسهم من التعلق بالشهوات والانغماس فى أدرانها ، وتطهر بها ارواحهم

من التفانى فى المادة وحدها والجشع فى جمعها ، ففيه أيضا توثيق لروابط الالفة والمحبة الخالصة بين الناس ، وهو الى ذلك كله المدرسة الجامعة التى انبثقت منها هذه المعارف الزاخرة التى نراها اليوم غمرت الشرق والغرب بنورها الساطع ، وكان لها من الاثر الفعال فى نهضة العالم المتمدن ما هو مشاهد من التقدم والرقى وما ستكشف عنه الايام غدا ، كما اعترف بذلك العلماء المنصفون وان أنكره المكابرون والجاحدون .

ولقد أحصى بعضهم ما جاءت الاشارة اليه من أنواع العلوم فى القرآن الكريم أو المعارف المستنبطة من القرآن فبلغ الى ما يزيد على عشرات آلاف علم ، قال **ابن العربى** (543 هـ) فى العواصم من القواصم فيما حكاه على **أبى الحسن الاشعرى** (324 هـ) قال بأنه كتب تفسيرا للقرآن يحتوى على خمسمائة مجلد ، فمنه أخذ الناس كتبهم ، ومنهم عبد الجبار الهمدانى وضع كتابا فى تفسير القرآن سماه المحيط فى مائة سفر ، قال ابن العربى قرأته فى خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام ـ بغداد ـ ، وفى الحقيقة ان كل علم تحتاج اليه الامة الاسلامية تراه شريعة المسجد أمرا واجبا وفرضا محتما من فروض الكفاية وعلى أمة الاجابة اتقانه .

وكما أن المسجد هو مدرسة جامعة كما قلنا فهو الى ذلك البرلمان الذى توضع فيه قوانين الدولة وتناقش فيه الآراء المستمدة من معين الكتاب والسنة لتسيير شؤون الدولة الاسلامية ذلك المعين العذب الزلال الذى لا يغيض ولا ينضب . وهو الى ذلك كله المحكمة الشرعية العليا التى تجرى فيها أعدل الاحكام ، والتى شطرت بها أروع صفحات القضاء البشرى . ومن المسجد كانت تبعث البعوث وتعقد الرايات وتعبأ الكتائب ، فالمسجد الجامع فى الاسلام هو عبارة عن مؤسسة جامعة عامة لما يجرى بين الناس فى حياتهم العامة من عادات وعبادات ومعاملات فهو منطلق الحياة السياسية والاجتماعية فى الامة الاسلامية قاطبة وهذا معنى وضع المنبر الذى هو أشبه بالعرش الى جانب المحراب فى المسجد . ومن هذه المؤسسة العظيمة تخرج أبطال الاسلام وقادته وولاته وعلماؤه وحكماؤه وفلاسفته وهداته . وها هى مدونات التاريخ تشهد بذلك .

فهذا هو المسجد أيها الاخوة الكرام وهذا هو دوره فى الاسلام ، ومن هنا جاءت الاهمية البالغة التى أولتها الدولة الاسلامية فى أول ما عنيت به من مؤسساتها الاولية ،

فكان المسجد هو أول مؤسسة فى الاسلام اطلاقا ، وكان ظهوره على يد النبى صلى الله عليه وسلم وهو سائر فى طريقه الى مهجره يثرب فما غادر قباء حتى أسس بها المسجد وهو المعنى بقول الله تبارك وتعالى : لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ، الآية وما حل حبوته صلعم ولا حط رحله بالمدينة حتى أخذ فى انشاء المسجد وشارك بنفسه فى تأسيسه وتشييده ، وكان مبنيا باللبن وسقفه من الجريد وعمده خشب النخيل ، ثم زاد فيه عمر وبناه بنفس المواد التى بنى بها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل طوله مما يلى القبلة الى مؤخره مائة ذراع ، وفى الجانبين الآخرين مثل ذلك، فهو مربع الشكل ، وجعل الاساس قريبا من ثلاثة أذرع على الارض بالحجارة ، ثم بنوه باللبن ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبنا جداره بالحجارة المنقوشة والقصة ، ـ وهى الجسة بلغة الحجاز وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ، فكان هنا التعمير للمسجد النبوى بهذه الصفة هو أساس فن العمارة الاسلامية ، ولم يكن للمسلمين ان يقفوا بمساجدهم عند حدود البساطة التى كانت عليها فى الايام الاولى ، بل تذكروا قول الله تبارك و عـالى : فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه · الآية ··· فاقبلوا على تشييدها وزخرفتها اجلالا لها وتعظيما لشأنها ، وأقبل عمر بن عبد العزيز على تزيين المسجد النبوى وتجميله الفسيفساء المذهبة وغيرها من أنواع الزينة، وكذلك فعل الامراء بعده بمساجدهم وقلدهم فى ذلك ذوو الثراء والمال فى كافة أنحاء العالم الاسلامى فرصعوا جوانب المسجد بآيات من آيات الفن والجمال كمثل ما فعله الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان بمسجد الصخرة بالقدس الشريفة سنة 72 هـ · 691 م · فجاء عمله هذا آية من آيات فن العمارة الاسلامية وغرة لامعة فى جبين الدهر على مدى العصور ·

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بالمسجد وتعظيمهم له حتى ان بعضهم أقامه من لجين ، من خالص الفضة ، فقد روى لنا التاريخ أن أبا يوسف يعقوب الصفار أحد مشاهـــير الامراء وكبار دهاة العرب فى القرن الثالث الهجرى (9م) أهدى للخليفة العباسى المعتمد على الله تحفا نفيسة ، وكان من بينها مسجد من فضة يسع من المصلين خمسة عشر شخصا ، وهو عدد يكمل به نصاب العدد المطلوب لا ة صلاة الجمعة ·

وكان أول ما ظهر استعمال المحراب فى المسجد ان ظهر على يد عمر بن عبد العزيز فهو أول من أحدثه فى الاسلام وقد كان ذلك منه حين أعاد بناء المسجد النبوى بالمدينة

المنورة سنة 88هـ/706م · وكان فى وضعه موفقا غاية التوفيق فانه فضلا عن كونـــه المصلى البصير يهتدى الى ناحية القبلة ، فالكفيف أيضا يجد فيه مساعدا له على توجيهه للقبلة من غير كبير جهد ولا عناء ، وهذا علاوة على تلك المنفعة العامة التى ترتبت على هذا الابتكار العجيب وهى اتساع المسجد بزيادة بلاط كامل أو قل صف بطوله حينما يخلى الامام بين المصلين وجدار القبلة ويتقدم داخل محرابه ، فهذه خصلة جميلة ابتكرها عمر ابن عبد العزيز زادت فى اتساع المسجد وأفادت فوائد أخرى ·

وجاء دور المآذن ، فظهرت أول مئذنة بجامع عمر بن العاص بمصر ، أقامها مسلمـــة ابن مخلد بأمر الخليفة معاوية بن أبى سفيان سنة 47هـ/667م ، ولم يكن لجوامـــع أو مساجد المغرب العربى فى القرون الثلاثة الاولى مآذن عدا جامع عقبة بالقيروان ، بنيت على عهد خلافة هشام بن عبد الملك أنشأها بشر بن صفوان سنـــة 106 ـ 110 هـ · 724 ـ 728 م · أول القرن 2 هـ (8م) وهى مربعة الشكل كما نشاهدها اليوم ، ثـــم وقع فى انشاء المآذن تغيير فى الشكل ، الى ملتوية وحلزونية وأسطوانية ومربعة ومثمنة، وتفننوا فى زخرفتها وارتفاعها كما هو مشاهد اليوم فى مآذن العالم الاسلامى عامـــة ، وتمتاز مآذن المغرب العربى بشكلها المربع منذ وضعت مئذنة جامع عقبة بالقيروان الى الآن وليس ببعيد أن يكون هذا الشكل المربع فى اقامة المئذنة مستوحى من شكل الكعبة المشرفة التى كان أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلالا باعلان صيغة الآذان من أعلاها· وهى تسمى أيضا بالصومعة كما هو المصطلح عليه فى بلادنا المغربية ، وذلك لمشابهتها بعض طراز أبراج الزهاد والرهبان المتخذة للعبادة ، ومنها مئذنة (العروس) بالجامـــع الاموى فى دمشق ·

ثم يلى المآذن من حيث الاهمية فى بناء المسجد ولا سيما مساجد الامصار ، ذلـــك العنصر المعمارى الجميل الذى يعتبر من الميزات البارزة فى العمارة الاسلامية ، الا وهـــو عنصر القباب ، والقبة كما هو معلوم : هى بناء مستدير مقعر ذو شكل نصف كـــروى تقريبا ، يقام على مبنى مربع أو مثمن أو دائرى ، وهى ذات أشكال مختلفة ففيها نصف الكروية والبيضوية والاسطوانية وفيها ما اتخذ شكلا بصليا ، وفيها المضلعة ، وهى فى

بلاد المغرب بصفة عامة منخفضة على شكل الكروية خالية غالبا من الزخارف الخارجية الا ما شذ منها فى أقل القليل ، ومن الشاذ قبة جامع سيدى بو مروان .

وفيما يرجع الى هذا النوع ـ نوع القبة ـ فى العمارة الاسلامية يقول (ويل ديورانت) فى قصة الحضارة : ان العمارة البابلية ـ أى حضارة ما بين النهرين دجلة والفرات ـ هي التى أوحت بقباب المساجد والمنارات والابراج فى **العهد الوسيط** ؟ ويقول مؤرخو الحضارة بان المسلمين ورثوا القبة عن الامم السابقة عليهم مثل المصريين والعراقيين والرومان والبيزنطيين ، ولكنهم ورثوها عن هؤلاء صغيرة ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وردوها الى العالم كبيرة معقدة جميلة ، وأكثروا من استعمالها حتى لقد أصبحت من السمات البارزة للعمارة الاسلامية ولا ننسى كذلك ان العرب وان استوحوا هندسة القبة واستعملوها فى مبانيهم تقليدا للرومان والبيزنطيين كما قالوا ، فان الرومان والبيزنطيون لم يكونوا وحدهم بناة القباب ، فالباحثون فى تاريخ الحضارة الشرقية قالوا بأن القبة فى العمارة الشرقية نشأت فى آسيا الصغرى ، أو فى الاقاليم الواقعة شرقيها ، ثم انتقلت عن طريق أرمينية الى بزنطة، ومن ثم انتقلت برعاية الكنيسة المسيحية الى البلقان وروسيا .

ويرجع تاريخ تشييد القبة فى الاسلام الى سنة 72هـ/691م . على عهد عبد الملك ابن مروان فى تشييده لقبة الصخرة بالقدس الشريف .

قلنا ومن الشاذ فى انشاء القبب المزخرفة من الخارج فى بلاد المغرب قبة جامع سيدى بو مروان فى بونة التى هى عنابة ، نعم وذلك لان شكل هذه القبة ـ وهى مفقودة اليوم ويا للاسف ـ كان غريبا بالنسبة الى غيرها من قبب الجزائر وتونس والمغرب كما نراها مرسومة ومصورة ولم يكن يشبهها فى تخطيطها الخارجى وزخرفتها الظاهرة على سطحها اليوم ، سوى قبتين بجامع القرويين قبة البهو والقبة المقابلة لها جنوب الصحن ، أعنى القبة التى تقع على أول البلاط المتصل بالعنزة ، والقبة الموازية لها التى تقع على مدخل باب الصفر المعروف أيضا بباب الورد وهو الموالى لباب الحفاة ، وثم ثالثة بمدينة سوسة بتونس تعرف تلك القبة (بقبة بين القهاوى) ، فكل من هذه القباب مكسو ظهرها أو قل سطحها بتضبيعات معوجة أو منكسرة تشبه حرف الزاد اللاتينية خطوط

متكسرة وهو شكل غريب بين القباب المعروفة لدينا ، وقد زالت قبـــة جـامع سيدى بو مروان واختفت عن الانظار منذ أن أدخل عليه الاستعمار الفرنسى من التحويـــر والتغيير والتبديل بسبب تحويل المسجد الى مستشفى عسكرى ، وقد كان ذلك فى أيام الاحتلال الاولى ، وما عاد للمسلمين الا شهر ماى من سنة 1945 م ، ونحن ما عرفنا شكل هذه القبة الا بفضل الرسم والتصوير الذى وصل الينا ، ولا يخفى ما وقع ثانيا لهـــذا المسجد من التهديم والتحطيم بسبب حادث انفجار سفينة فرنسية كانت راسية هناك بالساحل أو بمرفأ المدينة ـ عنابة ـ شتاء سنة 1965 م ٠ فانعطب المسجد وما اتصل به من الرباط ثم وقع ترميمه بعد ذلك ، فالى هذه الاسباب يرجع اختفاء القبة المومى اليها، ولوجود هذا الشبه القوى بين هذه القبة وقبتى القرويين وقبة (بين القهاوى) بسوسة قلنا أنها من فصيلة واحدة ، ورجعنا بتاريخها كلها الى عصر واحد ، ولكن أى عصر هو من بين العصور ؟ ٠٠٠ هذا ما سنحاول التوصل اليه من بحثنا هذا ٠

فاذا قارننا قبة جامع سيدى بو مروان هذه بقبتى القرويين بفاس وجئنا نبحث عن تاريخ انشاء هذه المؤسسة الفاسية الجليلة لكى نتوصل الى معرفة تاريخ وضع هـــذه القبة بجامع سيدى بو مروان ، وجدنا تاريخ تعمير القرويين متشعبا بين العصور ٠

اذ كلنا يعلم وان مؤسسة القرويين هى المحسنة المرحومة أم البنين بنت محمد الفهرى القيروانى،سنة 245هـ/859م،أى كان ذلك على عهد الدولة الادريسية،والخليفة الادريسى يومئذ هو يحيى الاول حفيد ادريس الثانى ، ولكن الجامع بعد ذلك اعتراه تغيير وتبديل من بعض جهاته بسبب ما أدخل عليه من الزيادات والاصلاحات والترميمات المختلفـة والمتعددة ، وفى أوقات متباينة ، فقد زاد فيه الامـير أحمد بن أبى بكـــر الـــزناتى وبنى الصومعة الحالية سنة 344هـ/955م ، وشملت هذه الزيادة نواحيه الثلاثة : شرقا وغربا وجنوبا ، كما أن الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر لما احتل فاسا باسم الخلافة الاموية المروانية سنة 387هـ/997م ، أحدث فى جامع القرويين تغييرا كبيرا بقصد محو آثار الفاطميين فيه ، وكان فيما تناوله هذا التغيير هاتين القبتين : قبة العنزة، والقبة الموازية لها جوفى الصحن وهما اللتان جاء شكلهما أو زخرفتهما الخارجية تشبه زخرفة قبة جامع سيدى بو مروان وقبة سوسة ، وفى القرن السادس الهجرى ـ 12م ـ

وقع بهذا المسجد تغيير آخر بقصد توسعته ، بما يقرب من نصف مساحته ، وفي عهد المرابطين كذلك وقعت به زيادة أخرى ، باذن على بن يوسف بن تاشفين ، كما وقع بـه حريق سنة 571هـ/1176م ، فجددت القبة والباب سنة 600هـ/1203م ٠ ووقـع به ترميم من ناحية الجدار الشرقى سنة 682هـ/1283م ، ثم بالجدار الشمالى سنة 696 هـ ٠ 1300 م ٠ الخ ٠٠٠

هذا بالنسبة الى مقارنة تاريخ انشاء قبة جامع سيدى بو مروان بقبتى القرويين ، وانتم ترون ماذا أدخل على هذا الجامع من اصلاح وتغيير ، واذا التفتنا الى القبة المعروفـة بقبة (بين القهاوى) بمدينة سوسة بتونس ، وجدنا الامر أشد غموضا وأعقد من ذنب الضب ذلك اننا لم نجد نصا يضىء لنا الطريق نحو معرفة تاريخها ، أو يشرح لنا وجـه قيامها بهذا المكان ، أو يبين لنا على الاقل وجه تخطيطها على هذا الطراز الغريب ؟ ! ٠ اذا فلم يبق لدينا سوى قبة جامع سيدى بو مروان المفقودة اليوم ٠٠٠ وعليه فاذا أردنا متابعة البحث عن تاريخ المسجد فما علينا الا أن نلتفت الى الجذر ، أى الى تاريخ المدينـة نفسها التى انشىء بها هذا الجامع ، وهى طبعا بونة ، أو عنابة ٠

من المعلوم ضرورة أن مدينة بونة هى قائمة على الشاطىء الشرقى الشمالى الجزائـرى عند مصب نهر سيبوس وعلى الشاطىء الغربى للخليج المسمى بالاسم نفسه والـذى ينحصر بين رأس قارد رأس العسة و (رأس روزا) شرقا ، أى موقع بونة يشتمل على مدينتى بونة القديمة ، وبونة الحديثة ، أما بونة القديمة فهى التى أسسها الفينيقيون بين النهرين : (سيبوس وبو جمعة) منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة ، وكان اسم المكان هذا حسب نطق الفينيقيين « هبو » ٠ ولفظة هبو هذه هى كلمة سامية فينيقية معناها : « الاب » بتشديد الباء وهى قريبة منها فى النطق ، ولا يخفى أن مخرج النطق بالهمزة وبحرف الهاء هو واحد ، أى من أقصى الحلق من جهة الجوف ، والاب عربية معناه المرعى وما يأكله الناس والانعام ، وقد نطق به القرآن الكريم حيث قال تعالى : « انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا **وقضبا** (كل ثمر يقطع ويؤكل طريا) وزيتونا ونخلا وحدائق **غلبـا** (ملتفة الاغصان لكثافتها) ، وفاكهة وأبا » وسمى هكذا لانه يؤب وينتج ، ومنه جاء الابان بمعنى ابان الفاكهة وهو أوانها ووقتها ، وقالوا بـأن

النون فيه زائدة كما زيدت في « ندمان » فلم يبق حينئذ الا « الاب » ومن المحتمل ان تكون تسمية المدينة هكذا (هيو أو أيو) وقعت بهذا القصد لما هى عليه تربتها من خصب وخفض فى العيش قال ابن حوقل وهو من أهل أواسط القرن الرابع الهجرى « وفيها ـ أى بونة ، خصب ورخص موصوف ، بمعنى مذكور ومشهور وفواكه كثيرة ، وبساتين قريبة ، وأكثر فاكهتها من باديتها ، والقمح والشعير فى أكثر أوقاتها كما لا قدر له الخ ... ونجد كذلك الرحالة البكرى ـ فى أواسط القرن الخامس الهجرى يقول فى مسالكه واصفا لبونة : وهى ذات ثمر وزرع ، ... الى أن يقول : « وبغربى هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتين ، وهو مستنزه حسن ... » الخ ... كما نجد مثل ذلك عند الادريسى حيث نراه يقول : « وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها ، وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح والشعير فى أوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا ... » وهكذا نجد هذه الاوصاف عند كل من تعرض لبونة من الجغرافيين أو غيرهم ، فكلهم يصفها بالخصب وخفض العيش ، ويسميها اليون الافريقى : « عناية لكثرة وجود شجر العناب فيها » وهذا ما يشرح لنا وجه تسميتها عند الفينيقيين باسم (هبو أو ابو) وهو الاب فى العربية والاب من الابان ، والنون زائدة كما ذكرنا فلم يبق الا الاب ، ويستأنس لهذا ورود كلمة (الاب) فى اللغة السومرية على انه اسم للاله (دلبات)اله الزراعة والحرب.

والفينيقيون هم أمة متشعبة عن الفرع الكنعانى السامى ، ولغتهم هى لغة سامية أخت اللغة العربية ، بل قال علماء اللغات هى لهجة من اللهجات العربية القديمة ، واشبه اللغات بها اليوم هى لغة أهل جزيرة مالطة ، وقد خضعت مالطة كغيرها من جزر هذا البحر الابيض المتوسط للعرب ردحا من الزمن .

ولما حل الفينيقيون بهذا الشمال الافريقى أقبل عليهم السكان لما وجدوا فيهم من الارتباط بهم لغة وجنسا ، فكنعان هو الجذع الذى يجتمع فيه نسب البربر والفينيقيون . ومن هذا الاتصال الحاصل بين الفينيقيين والبربر تأكدت الصلة السامية وتمهدت الطريق للعروبة والعربية بهذا الوطن منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة .

وأصبح اسم المدينة ينطق به الرومان هكذا : (هيبونا) ومنه جاءت التسمية ببونة ، وجاء بعدهم الوندال فاحتلوها سنة 430 م ، ثم بعد قرن احتلها البيزنطيون ، ثم جاء دور

الفتح العربى الاسلامى ، فنزل العرب بهذا الشمال فى أوائل القرن الاول للهجـــرة ، واحتل جيش الفتح العربى مدينة بونة القديمة على يد القائد الامير حسان بن النعمان سنة 78هـ/697م ، ولم نجد لها فيما اطلعنا عليه من تاريخها الاسلامى ذكرا حتى القرن الرابع الهجرى ، حيث نجد نصوصا تاريخية تنص على تاريخ تأسيس بونة الحديثـــة وانها بنيت فى أواسط القرن الرابع أى نحو سنة 350هـ/961م ، أى فى آخـــر عصر الفاطميين ، وما سورت الا بعد الخمسين وأربعمائة ، أى في عهـــد ملـــوك بنى زيرى الصنهاجيين ، وذكرها ابن حوقل فى المسالك ... الذى وضعه سنة 360هـ/971م . فقال : « كان لها عامل مستقل » .

ويذكر البكرى مدينة بونة القديمة ـ هبونة ـ فيقول : « تسمى اليوم مدينة زاوى ، ولها مساجد وأسواق وحمام ، وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال » . وفى سنة 548هـ/1353م احتلها روجى الثانى الصقلى النورماندى ، ولم نجد فى هذه المصـــادر التى بين أيدينا ذكرا لمسجد خاص أو جامع معين بهذه المدينة يرجع تاريخه الى هـــذه العصور الاسلامية الاولى ، سوى ما ذكره البكرى ومثله صاحب الاستبصار من قولهما : ولها مساجد ، أو ما ذكره كلاهما على سبيل التعجب والاستغراب من حال مسجد كان هناك بأعلى جبل « زغوغ » أو « ايدوغ » وهو الجبل المطل على المدينة ، فكلاهما وصف هذا المسجد ـ الذى هو بأعلى الجبل كما ذكرنا ـ وصفاه بأنه مسجد قديم قالوا ورغم كون مدينة بونة هى كثيرة الثلج والبرد ، فمن العجائب انه لا ينزل عليه شىء مـــن ذلك الثلج ، فاذا عم الجبل كله رأيت المسجد فى وسطه كأنه شامة . ! ... ؟

وهو كما يفهم من النص ان موقع المسجد كان خارج المدينة ، وهو قطعا ليس مـــن مساجد داخل المدينة وليس هو بمسجد سيدى أبى مروان ، وعليه فالى أى عصر يرجع تاريخ جامع سيدى بومروان ؟ ... وكيف حتى نسبها البكرى الى زاوى ، حيث قال : « تسمى اليوم مدينة زاوى » ؟ ... ومن هـــذا زاوى ؟ ... وما معنى قولهم بنيت أواسط القرن الرابع ؟ ... وقولهم : انها ما سورت الا بعد الخمسين وأربعمائة ؟ ...

أما عن نسبة المدينة الى زاوى ، فأرى انه لا يعلم فى تاريخ ولاة الجزائر من اسمـــه زاوى غير زاوى ولد زيرى بن مناد الصنهاجى مؤسس الدولة الزيريـــة التى خلفت

الفاطميين حينما غادروا الشمال الافريقى متوجهين نحو المشرق ، فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، ونحن نعلم ان زاوى هذا قد فارق المغرب وانتقل الى الاندلس منذ سنة 391هـ/1001م ، وحكم هنالك مملكة غرناطة من سنة 403هـ الى سنة 410هـ (1012 ـ 1019م) حيث تغلب على قرطبة فكيف حتى نسبت اليه مدينة بونه هذه ؟ ...

والجواب عن ذلك هو انه قد ثبت تاريخيا حصول زاوى هذا على عودة الى الوطن أيام نشوب فتنة البربر بالاندلس سنة 410هـ/1019م وأنه نزل يومئذ على المعز ابن باديس حفيد أخيه بلكين بالقيروان ، فأكرمه المعز ـ كما يقول ابن خلدون ـ ولقيه باحسن البر والتجلة وأنزله أرفع المنازل من الدولة ، وقدمه على الاعمام والقرابة ، وأسكنه بقصره ، وكانت مدينة بونة اذ ذاك تعتبر من المدن التى هى تقوم على خط الحدود والتخوم بين المملكتين الصنهاجيتين الشرقية والغربية ـ أى مملكة القيروان شرقا والقلعة أو بجاية غربا ـ وقد ذكر لنا هذا أبو الفداء فى تقويمه عند ذكره لوضعية مدينة بونة فى جغرافيته نقلا عن أبى سعيد ، قال : « ان بونة على آخر سلطنة بجاية وأول سلطنة افريقية » فأفادنا بذلك وان مدينتنا هذه كانت تعتبر جغرافيا من التخوم الشمالية المشتركة بين حكومتى أبناء العم الزيريين الصنهاجيين ، والنزاع يومئذ قائم بين الحكومتين المتزاحمتين حول الاستيلاء على هذا الموقع من الحدود ، فليس ببعيد أن يتفق الطرفان على اقطاع المدينة لهذه الشخصية الصنهاجية الملكية شخصية زاوى ، وقد رجع الى وطنه بعد ما ملك الاندلس ، والزمن زمن اقطاع ، وكل ذلك تفاديا من النزاع القائم بين أفراد الاسرة الواحدة الملكة حول هذه البقعة ، فهذا هو الاحتمال الذى نستطيع أن نفسر به قول البكرى : « وتسمى اليوم مدينة زاوى » وفى قوله (اليوم) اشعار منه الى انه يريد بذلك عصرا متأخرا ، ولا يغرب عنكم ان عودة زاوى من الاندلس الى المغرب كانت سنة 410هـ/1019م ، وتبييض البكرى لكتابه « المسالك » كان سنة 460هـ/1068م فلا جرم ان هذه النسبة الى زاوى وقعت أثناء هذه الفترة من الزمن ، ولذلك عبر عنها البكرى بقوله : (وتسمى اليوم) .

وأما عن معنى قولهم عن المدينة بنيت فى أواسط القرن الرابع ، وانها سورت بعد الخمسين وأربعمائة ، فان ذلك يرجع الى الظروف التى وقع فيها تغيير فى المدينة بسبب

الغزو الاجنبى ، فلقد غزاها كل من حكومتى « بيزا » وجنوه الاطاليتين ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى كما غزاها روجى أو روجار ملك النورماندين واحتلها سنة 548هـ/1103م ، فكان ذلك لزاما لتجديد المدينة وانشاء أسوارها لرد هجمات العدو فى هذا التاريخ • ثم تناولتها الايدى بعد ذلك فاحتلها الموحدون وامتلكها ابن غانية ، وسقطت بيد الحفصيين كما تنازعتها كل من حكومات تونس وبجاية وقسنطينة من الحفصيين ، وكل ذلك جناه عليها موقعها الجغرافى حيث كانت رابضة على التخوم ، وهكذا الى أن وقعت بيد الاتراك حكومة برباروس فى اواسط القرن العاشر الهجرى ـ 16م ـ •

ومع هذا كله فما زلنا لا نعلم عن تاريخ هذه المؤسسة الدينية الكبرى : جامع سيدى بومروان شيئا ؟ !

فقد تواترت الاخبار على أن هذا المسجد أسس على عهد الدولة الزيرية الصنهاجية المتمثلة فى حكومتى القيروان والقلعة الحمادية أو بجاية ، والذى أشرف على بنائه وتأسيسه هو رجل علم وصلاح وكفاح ، وذلك هو أبو الليث البونى من عائلة محترمة هناك تعرف فى الوسط البونى بدار النيار ، ولا تزال بقية من أحفاد أحفادها الى عصرنا هذا وتمثل هذه المؤسسة فى تصميمها مسجدا ورباطا ، والرباط هذا هو ملاصق للمسجد من جهته البحرية ، واستمر هذا الرباط قائما الى حادثة انفجار السفينة فى فصل الشتاء من سنة 1965م • وانتشرت سمعة أبى الليث هذا بكونه هو القائم ببناء المسجد حتى صار اسمه مثلا يضرب ، وكلمة سائرة فى الاوساط البونية ـ العنابية ـ فانهم يقولون : (البنية لابى الليث ، والشنعة لابى مروان) وهم يقصدون بالشنعة الشهرة والسمعة ، حيث لا يعرف هذا المسجد الجامع فى الوسط العنابى الا بجامع أبى مروان •

وليس لدينا من المصادر التاريخية التى تعرضت لتاريخ بنائه سوى ما حققه علماء الآثار بالنظر الى مقارنته بغيره من المؤسسات الاسلامية وما دل عليه طرازه وشكله وهندسته المعمارية ووضعية ما احتوى عليه من السوارى الرومانية المجلوبة اليه والمستعملة فى تشييده وكيفية تجمعها حول محرابه وتحديد أقواسه وعقوده وحناياه وهيكل أبوابه وزخرفة قبته المفقودة اليوم ونقش بعض سواريه ، وتصميم الدهاليز

الموجودة تحت المسجد الى غير ذلك ، فنظروا الى هذا كله واستنتجوا نتيجتهم العلمية التى تقضى بعودة المسجد فى تاريخه الى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، أى الى تقاليد فن الهندسة المعمارية أيام دولة بنى الاغلب وبنى عبيد وبنى زيرى الصنهاجيين أو آخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين .

ومما يؤكد لنا هذا ما جاء فى تقييد كتبه أحد علماء بونة وهو الشيخ أحمد بن قاسم البونى المتوفى سنة 1139هـ/1726م ، فانه ذكر فى تقييده تاريخ انشاء المسجد فقال : انه بنى على يد أبى الليث سنة 425هـ/1033م ، وكانت وفاة أبى الليث سنة 450هـ/1058م ، أى بعد ربع قرن من بناء المسجد ، وهذا التاريخ قريب جدا من تاريخ فتح عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر لمدينة فاس باسم الدولة الاموية بالاندلس وما أحدثه هذا من تغيير فى قبة العنزة بالقرويين كما تقدمت الاشارة اليه ، فمن المحتمل ان يكون انشاء قبة جامع سيدى بومروان وقبة العنزة من فصيلة واحدة ، وفى عصر واحد ، وكذلك مثلهما قبة بين القهاوى - الباقية الى اليوم بسوسة ، ولكن لم يبلغها عن المروانيين انهم تقدموا الى الجانب الشرقى من هذا الشمال الافريقى حتى نستطيع أن نجزم بأن قبة بونة وقبة سوسة هما أثر من آثار دولة الامويين أو المروانيين بالمغرب ، ثم لا ندرى ما كانت صلاحية قبة (بين القهاوى) بسوسة ، بسبب ما طرأ على ما حولها من الانشاء والتعمير فتغير الوضع وحال ذلك بيننا وبين معرفة الحقيقة من انشاء هذه القبة ؟ .

بقيت لنا ملاحظة واحدة حول تاريخ المسجد الذى نقل على الشيخ أحمد بن قاسم البونى حيث جعله سنة 425هـ/1033م ، والحالة ان التاريخ يحدثنا عن هذه السنة نفسها بأنه وقع فيها اعتداء عظيم على مدينة بونة من طرف الجنويز وأحلافهم أهل بيزا الايطاليين فوقع فى المدينة تحطيم وتخريب كبير ، فكيف يمكن الجمع بين البناء والتشييد مع التحطيم والتخريب ؟ .

أقول لا مانع - ان صح هذا التاريخ - من أن يكون هذا التخريب حدث فى أول السنة أو فى وسطها ثم أعقبه تشييد الجامع المذكور ؟ ... ولا سيما انه لم يرد ضبط ذلك بالاشهر ، لا فى التخريب ولا فى التحطيم ولا فى التشييد ، وكذلك نستطيع

أن نفهم هذا من قول المؤرخين ما سورت المدينة الا بعد الخمسين وأربعمائة للهجرة ، فهل هذا يكفي للتحقيق من هذا التاريخ في بناء المسجد ؟ .

ثم من هو هذا بو مروان أو سيدي بو مروان الذي ينسب اليه هذا المسجد ؟ واشتهر به ؟ لقد عرفنا فيما مر بنا من الحديث وان بناء هذا المسجد وتشييده كان على يد ذلك الرجل العظيم أبو الليث البوني سنة 425هـ/1033م ، ولكن اسمه كما رأينا انغمر واختفى أمام شهرة أبي مروان ، حتى أصبح ذلك مثلا يضرب بين الناس ، فانهم يقولون : « البنية لابي الليث ، والشنعة لابي مروان » فمن هو بو مروان ؟

بو مروان هذا ذكرته كتب التراجم بوصفه رجل علم وصلاح وعقل ولسان وحفظ وبيان ، فهو بو مروان عبد الملك البوني ، ومنهم من سماه أبا عبد الملك مروان بن محمد نشأ بالاندلس فسكن قرطبة واشتغل بعلوم الشريعة وتخرج على يده جمع من العلماء ، وانتقل الى بونة وعمر هذا المسجد بعلمه ودروسه ، ولما توفي دفن برباط المسجد المتصل به ، وكانت وفاته رحمه الله سنة 439هـ/1047م ، وكان من بين مؤلفاته التي كان معول الناس عليها شرحه على موطأ الامام مالك بن أنس ، وقد ترجمنا له في كتابنا : تاريخ الجزائر العام بما فيه الكفاية . وشكـرا .



ابو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابه الدليل والبرهان

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ ـ الجزائر

في وسط بحبوحة من الرخاء ونعيم الحياة الثقافية الروحية التي عم أريجهما ربوع أرض الجزائر أيام حكومة الدولة الرستمية بتيهرت (160 ـ 296 هـ ، 776 ـ 909 م) وفي جو البحث العلمي الهادىء والاستغراق في التفكير الفلسفي اللاهوتي العميق مع النشاط في الدرس الحثيث لعلوم الدين الاثيرة التي جعلت من أئمة هذه الدولة ينغضون رؤوسهم سخرية من صروف الدهر وطوارقه حتى كأن هذا أمر لا تتحرك به الخواطر ولا مجال للفكر فيه ، في هذا الجو الهادىء المفعم دعة واطمئنانا .

وقع الهجوم على البلاد من طرف الشيعة العبيديين أو قل الشيعة الفاطميين بزعامة عبد الله الشيعي (296هـ/909م) فسقطت الجزائر الرستمية بيد الشيعة من دون قتال ولا حرب الامر الذي أدى الى انتقال أكثر السكان الى أرض الجنوب

الى الصحراء وكان فيهم العلماء وأقطاب السياسة والفكر ـ وكانوا اباضية المذهب يكرهون الشيعة الى حد انهم كانوا لا يعتبرونهم من الناس ، بل هم عندهم من قبيل النسناس ـ كما ذكر ذلك أبو يعقوب يوسف الورجلانى فى دليله ، ففروا لذلك من هؤلاء وارتحلوا الى الصحراء بالجنوب الشرقى من القطر الجزائرى فسكنوا تلك الارجاء الجميلة الهادئة الثرية بنخيلها اليانعة وتمورها الزاهية الواقعة بجنوب مدينة (تقرت) وشرقى (غرداية) وتلك هى واحة بنى (وارجلان) أو (وارجلن) كما كتبها البكرى (460هـ) فى مسالكه ، وقال : هى سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى (اغرم ان يكامن) أى حصن العهود، وجاء بعده الادريسى فوضع جغرافيته سنة 548هـ، فكتب اسم هذه الناحية هكذا : (وارقلان) أى بالقاف لا بالجيم ، وقال : هى مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر يضربونه فى بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية اباضية • وذكرها الدرجينى فى طبقاته وهو من أهل بلاد الجريد القريبة من وارجلان ومن علماء الاباضية فى القرن السابع الهجرى وممن أخذ عن علمائها مثل أبى سهل يحيى بن ابراهيم الوارجلانى ، فكتبها هكذا : (وارجلان) •

وذكرها ياقوت (626هـ) فى معجمه الجغرافى الجامع وكتبها هكذا : (ورجلان) وضبطها قائلا : بفتح الواو وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون • قال : هى كورة بين افريقية وبلاد الجريد ضاربة فى البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانة ، واسم مدينة هذه الكورة (فجوهة) ؛ والكورة فى اصطلاح أهل الجغرافيا هى عبارة عن الصقع المشتمل على قرى ومحال كثيرة •

وجاء ذكرها فى تاريخ ابن خلدون مكررا مكتوبا بالكاف هكذا : (واركلا) آخرها لام ألف لا نون ومشكولة بقلم ابن خلدون نفسه بالحركات مكسورة الراء ؛ والعجب من المرحوم ابن تاويت الطنجى كيف غاب عنه شكل ابن خلدون لحرف الراء وترك الكلمة مشكولة فيما نشره من كتاب التعريف بابن خلدون بسكون الراء ، وهو نفسه نبه على كسرها • وقد يكون هذا خطأ مطبعيا ؟ •

وزار هذه المدينة الرحالة العياشى سنة 1059 هـ/1649 م فذكر ان بها مسجدا للاباضية صلى فيه صلاة المغرب ، وكتب اسم المدينة كذلك بالكاف مثل ابن خلدون وآخرها لام الف (واركلا) غير انه زاد فى ضبط مخرج حرف الكاف هنا بجعل ثلاث نقط من أسفل الحرف اشارة منه الى اختلاف النطق والمخرج بين كاف (واركلا)

والكاف المعهودة • ونحن نراه فى ذلك مقلدا لرسم ابن خلدون لحرف القاف المعقودة فى كتابة اسم (بلكين) بالخصوص حيث قال : فأضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة فى أسفل أو بنقطة القاق واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء فى لغة البربر • وهذا ما يعبر عنه بالقاف المعقودة ، والقاف المعقودة هى الصيغة التى نسمعها فى النطق بحرف الجيم عند المصريين أو حرف القاف من لهجة أهل البادية فى الجزائر Elguef وهى مستعملة كذلك عند عرب المشرق ، وقد كنا كتبنا فى هذا الموضوع بحثا نشر بمجلة (الشهاب) ج 7 م 7 ربيع الاول 1350 هـ/جوليت 1931 م ، فليرجع اليه من شاء • كما ورد اسم هذه المدينة فى قصيدة ميمية لابى حمو الزيانى الثانى سلطان دولة بنى عبد الواد بتلمسان (971 هـ/1389 م) مكتوبا بالجيم هكذا : (ورجلان) فقال :

وجئت لـ (ورجلان) وجزت مصابها ولا مخبر غير الصلاد الاعاجم

وكذلك كان يكتبها مترجمنا أبو يعقوب يوسف الورجلانى ، فقد جاء فى كتابه الدليل يحكى قصة وقعت له قوله : (وأنا فى ورجلان سدراته...) ج 3 ص 100 . ولعل القاعدة فى كتابة امثال هذه الالفاظ ترجع الى قولهم : كل ما يجلجل يكلكل ويقلقل ويقلقل ـ بالقاف المعقودة ـ

ففى هذه الكورة أو الصقع (واركلا) أو (وارجلان) أسس هؤلاء اللاجئون من تيهرت مدنا وقرى وقصورا ومنها مدينة (الكريمة) ولا وجود لها اليوم ، ومدينة (سدراته) عاصمتهم الجديدة ذات الحضارة العظيمة التى قضى عليها يحيى بن اسحاق الميورقى (626هـ/1229م) والتى لا يزال البحث والتنقيب من علماء الآثار يجريان للكشف عن آثارها فى أعمال الحفريات ، ومن ذلك الآثار هذه التحف الفنية والقطع الجميلة التى نشاهدها ونراها اليوم مصفوفة على رفوف متحف الآثار فى حديقة الحرية بالعاصمة والتى يرجع تاريخها الى الستينات من القرن الرابع الهجرى ، (790 م) وعندما نزح عنها أهلها بسبب حملة الميورقى هذا وسكنوا أرض الشبكة من بلاد بنى (مصاب) مزاب حال محلهم كثير من الزنوج ونشأت بتلك الواحات مملكة زنجية •

ثم أن باشا الجزائر صالح رايس « هاجم واحات الجنوب (959 هـ/1552 م) فأدخل واحة بنى وارجلان ضمن المملكة الجزائرية فكان بهذا يعد هو مؤسس (وارقلا) الحالية ، واستمرت الناحية خاضعة للاتراك الى أيام الاحتلال الفرنسى فاستقلت الى أن احتلها قائد من قواد أرض الجنوب الوهرانى باسم الدولة الفرنسية ، ثم ثار أهلها واخرجوا ممثلى السلطة ، وأخيرا احتلتها الجنود الفرنسية (1289 هـ/1872 م) » الى ان من الله علينا بالاستقلال 1382 هـ/1962 م ، فرحم الله الشهداء .

ففى هذه البلدة الطيبة وعلى أديم هذه البقعة الزكية (واركلا) ولد أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم بن مياد الوارجلانى حوالى سنة 500 للهجرة ـ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ؟.. وفيها نشأ وتربى وبها تادب وتعلم ما كان يجول فى فلك ذلك العصر من معارف وفنون وآداب ... فروى عن مشائخ بلده مثل الشيخ أبى عمار التناوتى وأبى سليمان أيوب بن اسماعيل وأبى زكرياء وغيرهم علم من تقده ممن سلف من علماء اباضية وغيرهم كأبى هارون موسى الجلالى وابن ماطوس وميمون الشروسى وابن الاشج التاهرتى وابى الطيب محمد بن أبى بردة الشافعى وأبى عبد الله محمد ابن بكر النفوسى وولده أحمد الخ ...

وكأن أبا يعقوب هذا لم يكتف بما حصل عليه من العلم فى بلده اذ نراه يعقد رحلة الى بلاد الاندلس وهى يومئذ كعبة الدنيا لازدهار أنواع الثقافة واصناف المعرفة بها ورقى أهلها ، وكان فيما دخله من بلادها مدينة قرطبة تلك المدينة العظيمة التى أنبتت أمثال يوسف بن عبد البر القرطبى حافظ المغرب ومحمد بن أحمد القرطبى المفسر ، الى غير هؤلاء ممن نشأ بها من علماء وعالمات فقد ذكروا انه كان بربضها الشرقى فقط مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، ومنهن عائشة بنت أحمد القرطبية التى لم يكن فى زمنها من حرائر الاندلس من يعادلها فهما وعلما وأدبا وشعرا ؛ اذا قلنا هذا كان بقرطبة فى ربضها الشرقى فقط ، وفى ناحية منها فقط ، فكيف بجميع جهاتها ؟ وقد بلغت مساجدها الفاوستمائة مسجد ...

الى هذه المدينة الزاهرة أرتحل أبو يعقوب وعن علمائها تخرج واكتمل معلوماته فى الطبيعيات والرياضيات علاوة على ما كان قد حصل عليه من علوم الدين واللغة

يقسميها من معقول ومنقول وامتاز من بين اقرانه بالذكاء والفطنة والفهم حتى صار يقارن بالجاحظ .

ثم عاد الى وطنه لافادة قومه بما حمله اليهم مما لم يكن عندهم من ثقافة أو علم عملا بقوله تبارك وتعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . (التوبة آية 122) وهكذا مكث أبو يعقوب بين أهله وقومه وفى بلده ووطنه يعـــلم ويدرس وهـــو دائما فى تطلع واشتياق الى الاستزادة من العلم (وقل رب زدنى علما) فعزم على الرحلة فى طلب العلـــم ثانيا ، والى أين هذه المرة ؟.. الى المشرق ! ذلك ليجمع الى ما حصله من العلم بالمغرب مـــا يكتشفه ويستفيده بالمشرق وكان الامر كذلك فلم يكتف بما عنده فارتحل الى هناك ، ولاشك انه قصد بغداد ، وهى يومئذ كقرطبة فى المغرب أو تفوقها ثقافة وحضـــارة وعمرانا ، ولا سيما فى ذلك العصر الزاهر قبل أن يغزوها جيش التتار فانها كانـــت عروس الاقطار الاسلامية وكفاها فخرا ان كانت تمثل عصر الاسلام الذهبى .

ثم عاد منها أبو يعقوب الى بلده مترعا علما وحكمة وأدبا فكان كما وصفه أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخى فى كتابه السير المطبوع بمصر 1301 هـ ، نقلا عن طبقات الدرجينى : فقال انه « بحر العلم الزاخر ، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر ، كان فى علوم القرآن غاية ، وفى علوم اللسان من النحو واللغة والتصريف آية ، وفى علوم الحديث ونقل الاخبار والسنن والآثار والفروع والاحكام والمواريث بل وعلـــوم الاقدمين فى جميع ذلك علامة) .

وانقطع أبو يعقوب فى بيته سبع سنين دأبا لايلو على شىء سوى الدرس والتأليف فكان لا يجده زائره ـ كما ذكره الشماخى : « الا ناسخا أو للاقلام باريا ، أو للدراسة فاعلا ، أو للحبر طابخا ، أو للدواوين مقـــابلا ، أو للكتب مسفرا ، الا ان قـــام لاداء الفرض ... » وهو الى ذلك شغوف بالاسفار فعقد رحلات عجيبة الى السودان وأواسط افريقيا فبلغ مجاهلها حتى انه اقترب من خط الاستواء كما يذكر ذلك هو عن نفسه فى كتابه الدليل ... ج 3 ص 216 فانه قال : « وقد وصلت أنا بنفسى الى قريب من خط الاستواء وليس بينى وبينه الا مسيرة شهر وكاد أن يستوى الليل والنهار فيـــه

أبدا ، وانما وصلنا الى قريب منه ، وأطول يوم السنة انما يفضل أقصر يوم منه بساعة واحدة فالنهار الطويل ثلاث عشرة ساعة ، والنهار القصير احدى عشر ساعة ولياليها كذلك ... وقال عن سكان تلك الناحية بانهم : « يخافون البيضان من النـــاس ويحسبونهم ملائكة نزلت من السماء يهـــزم الابيض الواحد من الناس عشرة آلاف منهم ؟!» وليس عندهم الا عبادة الاصنام ...

ولابى يعقوب هذا رحلة الى الحجاز ولعلها كانت فى رحلته الى الشرق ، نظم فيها قصيدة تحتوى على 350 بيتا جمع فيها كثيرا من فنون العلم ومسائله ، وهى الـــتى يقول فيها :

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجـــلان بفتيان صـدق مـــن وجـوه العشائـر

وله تفسير للقرآن الكريم يقع فى سبعين جزءا ضاعت كلها ما عدا جزء واحد منها ظفر به أبو الفضل أبو القاسم بن ابراهيم البرادى من علماء الاباضية فى القرن التاسع الهجرى وهو الجزء الاول من هذا التفسير العجيب وجده فى بلاد ريغ من أرض الجزائر الجنوبية فوصفه فى كتابه الجواهر المنتقاة فى اتمام ما أخل به كتاب الطبقات ط مصر 1302 هـ قال : « رأيت منه فى بلاد ريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه ، حررت انه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر فيه تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران ، وحررت انه فسر القرآن فى ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر فى لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه ... » يقال انه يوجد هذا الجزء باحدى خزائن روما عاصمة ايطاليا ؟.. :

وصاحب التفسير هذا هو واضع كتاب الدليل المشار اليه فى عنوان هذا البحث والكلام عليه هو الجزء المتمم الفائدة من موضوع مقالنا هذا ، ويسمى (كتاب الدليـــل والبرهان ، أو كتاب الدليل لاهل العقول لباغى السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق) هكذا هو مرقوم على ظهر الكتاب فى كل جزء من أجزائه الثلاثة المطبوعة طبعة حجرية بمصر سنة 1306 هـ فى مجلد واحد .

والكتاب فى حد ذاته كتاب جليل النفع كثير الفائدة جامع لفنون من العلم فهـــو يبحث بحثا فلسفيا فى الالهيات والطبيعيات والرياضيات والفقهيات وأصول الاديان

وفى العقائد والمنطق واللغة وذكر الخلاف بين الفقهاء والاصوليين واختلاف عقـائد الطوائف والفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، والفرقة الناجية منها وغير الناجية وساق فى ذلك آراء العلماء وأهل المذاهب الفلسفية مع الاشارة الى أهم الاحداث التاريخية التى أدت الى انشاء المذاهب الكلامية وتكوين الاحزاب السياسية التى كان لها الاثر الفعال فى تطوير التفكير فى أصول الدين وأصول الفقه واستنباط الاحكام الشرعية والعرفية من ذلك كمسألة الخلافة والامامة وما يتعلق بالحاكم والمحكوم ومتى يكـون الربط بينهما وكيف ينفصم ، كما انه تعرض لمعركة أو واقعـة صفين الشهيرة (37 هـ/657 م) وموقف كل من على بن أبى طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما منها ، وشأنهما فى أمر التحكم وتعرض لقضية استشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه وتناول الكلام عن الملوك والرؤساء وما يتعلق بالمحاربين والموالين وحكـام الجور وأعمالهم فى الاموال وعمارة الارضين وتطرق الى مسألة الاجتهاد والتقليد ، وبحث فى البدعة وأحكامها وأقسام العلوم وأصنافها وأحوال الآخرة ومسألة الجبر والاختيار والايمان والكفر ومسألة خلق القرآن والوحى ، كما انه تطرق الى ذكر بعض الوقائع والاحداث الجزئية الخاصة التى كانت باعثا مباشرا فى نهضة الفقهاء الى البحث والاجتهاد لتوضيح بعض الاحكام الغامضة وتقريرها ، كما انه تعرض فيه لرسائل اخـوان الصفاء الفلسفية فشرح ولخص الاهم منها بكلام موجز مفيد ٠ كما أنه أورد فى كتابه هذا بعض رسائل لكبار اقطاب المذهب الاباضى تتعلق بمباحث فى العقائد وأصـول الدين وفيها أسئلة وأجوبة حول ذلك ، منها رسالة عبد الوهاب بن محمد الانصارى ـ من ناحية غانة ـ الى أبى عمار عبد الكافى التناوتى يسأله فيها عن مسائل فى العقائد فأجاب عنها المؤلف لوفات أبى عمار ؛ ورسالة أخرى للمؤلف نفسه أجاب بها الشيخ محمد بن الشيخ النفوسى الابدلانى عن مسائل تتعلق بتفسير القرآن وبالكتب المنزلة وقصة موسى والخضر وعن شيء من قصص الانبياء الخ ٠٠٠

وجل هذه المسائل التى أوردها المؤلف ولا سيما منها ما يتصل بأصول الديـن والعقيدة ساقها بطريق الجدل والمناظرة ونظر اليها بمنظار مذهبـه الاباضى وناقشها

مناقشة مركزة على ضوء هذا المذهب ، ولا غرابة فى ذلك فان الرجل كان من مشاهير الجدليين وجلة أهل النظر .

تلكم هى مجمل مباحث كتاب الدليل ومهات مسائله التى بحث فيها هذا العلامة الموسوعى الكبير وفيه غير ذلك من مسائل أخرى استطرد فيها المؤلف مواضيع أخرى لاشتات من غوامض العلم ومتفرقاته وعسانا نخصص له مقالا أو بحثا مفصلا نتعرض لمسائله ان شاء الله بالشرح والتحليل .

والكتاب فى جملته وتفصيله مفيد جدا فانه اشبه شئ بموسوعة فلسفية عقائدية دينية مصغرة جاء معبرا أحسن تعبير عن أفكار صاحبه مظهرا لمستواه الثقافى الشامل، ونستطيع أن نقول عنه انه من الكتب الجليلة فى الجدل ولا يستغنى عنه باحث ولا دارس يريد الاطلاع والكشف عن الحقيقة لواقع البحث العلمى فى الجزائر فى ذلك العصر الغابر ، وكان لاهميته ان اشتغل الغربيون بدراسته وترجمته ، فترجم بعضه الى الفرنسية بقلم ى. س. علوش I. S. Allouche ونشر بمجلة « هيسبيريس » Hespéris 1936 م .

ويذكر لابى يعقوب هذا من المؤلفات والكتب كتاب خاص فى الفلسفة بعنوان : (مرج البحرين) على انه مؤلف مستقل بذاته ؛ وفى الحقيقة ما هو الا عنوان لقسم من أقسام كتاب الدليل المذكور ومكانه منه هو الجزء الثانى منه يبتدىء من صفحة 85 الى آخر الجزء ، وهو مفتتح بالبسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يجىء ذكر العنوان هكذا : (تعلقة فى المنطق ، كتاب مرج البحرين فى المنطق بحر الالفاظ والكلم وبحر المعانى والحكم) نعم ! قد يكون حقا هو كتاب مستقل والمؤلف نفسه أدمجه فى كتابه الدليل ، وقد يكون غيره من تلامذته أو اتباعه هو الذى الحقه بالدليل ، وجعله خاتمة للجزء الثانى منه ، وأنا ارجح هذا نظرا الى ما نجده فى الجزء الثالث من الدليل صفحة 157 من خط فاصل وبعده صراحة بداية لكتاب مفتتح بالبسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم جاء قوله : (قال الشيخ يوسف بن ابراهيم الورجلانى رحمه الله الخ ...) ففى هذا دليل على ان الكتاب زيد فيه وأضيفت اليه

أشياء أخرى وان كانت هي من عمل المؤلف ، غير انها دائما هي ليست من صميم كتاب الدليل ، والا فما معنى ذكر الترحم على الشيخ هنا ؟ .. فهذا لا يكون الا من صنع غيره.

وكذلك نجد في صفحة 229 من الجزء الثالث هذه العبارة : (تم الموجود من الام بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام على محمد وءاله وسلم تسليما) مع خط فاصل ثم تليه البسلمة والصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام وكلمة افتتاحية : (رب يسر يا كريم) ثم الشروع في موضوع جديد ، فكل ذلك يدفعنا الى الشك في كتاب (مرج البحرين) هل هو من صميم كتاب الدليل أو هو تأليف مستقل عنه ، وان كنا لا نشك في كونه من تآليف أبي يعقوب ...

هناك مؤلف آخر في أصول الفقه منسوب اليه ذكره اصحاب التراجم وهو (كتاب العدل والانصاف) ، نعم هذا كتاب مستقل اشتهر ذكره بين العلماء واشتغلوا به فمنهم من شرحه ، ومنهم من اختصره ، ومنهم من اقتصر على مقدمته فشرحها وعلق عليها ومنهم غير ذلك . عرفنا من بينهم أبا العباس أحمد الشماخي فهو ممن عني باختصاره في مقدمة مفيدة وشرحها بشرح وجيز جدا كما ذكر ذلك المرحوم الشيخ أبو اسحاق طفيش فقال انه رغم اختصاره فانه على جانب كبير من النفاسة والتحقيق .

كما ان لابي يعقوب غيرما تقدم من الكتب مؤلفا آخر خدم به الحديث الشريف ذلك هو ترتيبه لمسند الربيع بن حبيب فقد كان هذا المسند مشوسا فنسقه ورتبه وهو مطبوع بالقاهرة في أربعة أجزاء 1349 هـ ويذكر له كتاب آخر في التاريخ يحمل عنوان : فتوح المغرب أو المغرب في تاريخ المغرب ، وله ديوان شعر اطلع عليه الدرجيني بيد الفقيه أبي العباس أحمد مرارا .

ولا يفوتني هنا أن أنبه على ان هناك شخصية أخرى اباضية علمية بارزة اشتركت مع مترجمنا هذا في النسبة فعرفت بالورجلاني أيضا ، وذاك هو الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني المتوفى سنة 471 هـ/1078 م وهو صاحب كتاب سير الائمة واخبارهم وهو مطبوع بالجزائر مترجما الى الفرنسية بقلم المستشرق ايميل ماسكوراي Emile Masqueray وهو كما علمت غير الورجلاني أبي يعقوب صاحب كتاب الدليل المتوفى الى رحمة الله سنة 570 هـ/1175 م .

مـــراجـــع البحـــث

ابن تاويت محمد الطنجي التعريف بابن خلدون ط القاهرة 1951 م

ابن خلدون ـ عبد الرحمن المقدمة ط بولاق 1274 هـ

ابن خلدون ـ عبد الرحمن تاريخ ـ العبر ط بولاق 1284 هـ

ابن خلدون ـ يحيى بغية الرواد ط الجزائر 1911 م

البرادى ـ أبو الفضل الجواهر المنتقاة ط القاهرة 1302 هـ

البكرى ـ عبد الله المسالك والممالك ط الجزائر 1857 م

أبو زكرياء ـ يحيى الورجلانى سيرة الائمة ط باريس 1878 م

أبو يعقوب يوسف الورجلانى الدليل والبرهان ط القاهرة 1306 هـ

أحمد توفيق المدنى كتاب الجزائر ط الجزائر 1350 هـ

الادريسى ـ محمد بن محمد نزهة المشتاق ط لندن 1866 م

الدرجينى ـ أبو العباس أحمد طبقات المشائخ بالمغرب . ط . قسنطينة بدون تاريخ .

الزركلى ـ خير الدين الاعلام ط ثانية ج 9

الشماخي ـ أحمد بن سعيد كتاب السير ط القاهرة 1301 هـ

الشماخي ـ أحمد بن سعيد أصول الديانات ط القاهرة 1304 هـ

عبد الرحمن الجيلالى تاريخ الجزائر العام ج 1 ط 3 الجزائر 1971م

عبد الوهاب بن منصور البصائر عدد 313 (1953 م)

على يحيى معمر الاباضية فى موكب التاريخ ط القاهرة 1964

علوش ى. س. هيسبيريس Hespéris 1936 م

العياشي ـ عبد الله بن محمد الرحلة ط فاس 1316 هـ

ياقوت الحموى معجم البلدان ج 5 ط بيروت 1957 م

Emile Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria - Alger 1878.

شخصـــيات لامعـــة مـــن الاوراس

عبد الرحمن الجيلالى
مـؤرخ جـزائرى



الاوراس علم لسلسلة أعلام راسية شاهقة ، واطواد سامقة باذخة ، وقنن عالية الذرى شـــامخة ، واغوار ومغارات ذات مضائق ومعاطف وشعاب ملتوية سحيقة ، وتلك هى ما يعبر عنه الجغرافيـون باسـم الاطلس الصحراوى القائم بجنـوب ولاية قسـنطينة من ارض الجزائر ، وتشتمل هذه السلسلة الصخرية الهائله على طائفة من شوامخ الجبال ذات الروعة والجمال ، فتخترق كامل القطر الجزائرى من اقصاه الى اقصاه بحيث تكون هذه الجبال مثل جبل احمر خدو ، وجبل كاف المحمل ، وجبل عيدل ... نقطة اتصال بين جبال الحضنة وبين جبال الجنوب ؛ وهى تشكل فى وضعيتها الطبيعية شكلا رباعيا طوله من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب نحو 65 ميلا وتغطى فى جنوب اقليم قسنطينة مساحة قدرها 3600 ميلا ، وتعد هذه الجبال هى اضـخم واعلى كتلة جبلية جزائرية فى هذه البلاد ، بحيث يرتفع اعلاها المعروف باسم (قمة الشلية) 2328 مترا ، وقاعدة هذه الولاية اليوم هى مدينة (باتنة) التى ينعقد فيها هذه السنة (1398 هـ / 1978 م) الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى .

ففى القديم كانت تسمى هذه الجبال او قل الاعلام ، باسم « اوريس » او « اورايوس اوروس » ، وهذا الاسم كما نراه هو قريب جدا مما نسميه به اليوم وينطق بـه الناس (اوراس) وذكره البكرى فى القرن الخامس باسمه الحاضر : (اوراس) ، قال : « وهو مسيرة سبعة أيام ، وفيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة ٠٠ الخ ٠٠٠ ، وكذلك هو مسمى بنفس هذا الاسم عند الادريسى ـ وسط القرن السادس ، فهو يقول : « وجبل أوراس قطعة يقال انها متصلة من جبل درن المغرب وهو كاللاّم منحنى الاطراف ، وطوله نحو من 12 يوما » ٠ وهكذا ذكره بهذا الاسم ياقوت الحموى (626 هـ) فى معجمه وابن خلـــدون (808 هـ) فى تاريخه ٠

وليس عندنا اليوم لكلمة « أوراس » هذه معنى معروف ، والراجح انها تكون كلمة بربرية لها معناها عند قدماء البربر ، اما كلمـــة « الاطلس » التى كانت معروفة عند اليونان فالظاهر انها محرفة عن كلمة « ادرار » أو « ادرارن » البربرية والتى معناها : الجبـــل ٠

وبينما كان علماء التاريخ والجغرافيا على هـــذا الراي اذا بصاحب الرحلة ـ نزهة الانظار ٠٠٠ المعروفة بالرحلة الورثيلانية (آخر القرن الثانى عشر) يقول : ان هـــذا الجبل كان يسمى « جبل الرس » هكذا بالسين وبالصاد ، وزاد الى ذلك فقال بانه هو موطن خالد بن سنان ، ناقلا ذلك عن الخفاجى شارح الشفاء ؛ وقال عن خالد هذا بانه نبى ورسول أرسل بجبل الرس الملقب الآن : أوراس ٠ وعبارته كما يلى : « ٠٠٠ عام مشينا لزيارة النبى سيدى خالد عليه السلام على القول بنبوته (1) وقد شهر غير واحد من المتاخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن أوراس » ٠

على ان الذى نعرفه من خلال كتب اللغة والتفسير لمعنى كلمة الرس : انه الأثـــر القليل الموجود فى الشىء ٠ يقال سمعت رس الخبر ، وعندى رس حديث ، وفى جسمى رس من حمى ، أى أثر ٠ كما جاء أيضا فى معانى الرس انها البئر ، والمعدن ، أو الجب ، وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية ان الرس هو النهر المشهور الذى عرفه القدماء باسم

1) راجع ما جاء حول هذا الموضوع فى كتابنا : تاريخ الجزائر العـــام ، ج 1 ، ص 161 و 285 ، ط 3 الجزائر 1971 م ٠

« أراكسيس » وكل هذا كما ترى لا يمت بصلة الى ما نحـــن فيه من الكلام على جبال أوراس بالجـــزائر ؛ اللهم الا اذا أريد به ـ عند الورتيلانى معنى البئر التى يقال انها موجودة بالأوراس ونعنى بها : « بئر الكاهنة » ، اذ كل بئر رس ؟ او يكون المراد بـه معنى المعدن ، فيحتمل ؟٠٠ اذ ليس هنالك شك فى وفرة ما بهذه الجبـــال والصخور الشاهقة المشمخرة من مغادن ٠٠٠

وورد فى « الرس » انه علم على مواطن وامكنة متعددة مفترقة ، وليس فيها إشارة الى مكان واحد منها انه يوجـــد بأرض المغرب ، بل ولا فى القارة الافريقية بأسرها : فليت شعرى من أين لصاحب نزهة الانظار ان جبل الرس هو الملقب الآن « أوراس » ؟٠٠

يتكون سكان هذا الجبل من عناصر مختلفة بالاضافة الى سكانه الاصـــليين وهم البربر ؛ فلقد انضم اليهم فى أحقاب متقدمة سلائل من غزاة الرومان والروم البزنطيين والوندال ؛ وفى أيام الفتح الاسلامى كانت تسكنه قبائل من زناتة ، (اوربة وجراوة) ، ثم حل به قبائل هوارة ولواته لا سيما فى أيام اشتداد الحرب بين حسان بن النعمان وجيوش الكاهنــــة ؛ على ان اغارة الهلاليين (442 هـ/ 1050 م) قد غيرت من موقف الشعوب بهذا الجبل ، فجعلت من بنى دريد وهم فرع من الاثبج يسكنون التلال الشمالية منه ؛ ـ والأثبج من الهلاليين وهم أوفر عددا واكثر بطونا ، كما عند ابن خلدون ٠ ثم تقدموا نحو الجنوب فسكنوا هذه الأطواد الشامخة من جبال اوراس ونزلوا بتلك التلال والهضاب والاعضاد المحيطة بها ٠

والسبب فى نزوح قبائل هوارة البربرية الى هذا الجبل بعد ما كان موطنها الاصلى هو اقليم طرابلس والجزء الذى يجاوره من اقليم برقة فهو كما يقول ابن خلدون : انه لما ذهب عنهم ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات ، وقد صاروا عبيدا للمغارم فى كل ناحية وقع منهم هذا الافتـــراق فى الاودية بسبب القلة فانصرفوا لرعى الغنم وسكنوا بهذه الجبال ونزلوا بتلك السفوح وما حولها من المدن والقرى وما احاط بها من البلاد ، مثل مدينة باغاية ، وطبنة ، وخنشـــلة ، ومنعة ، والريس ، ولامباسييس ، اولامبيس ـ لمبيز ، ونقاوس ، وبلزمة وتيمقادى ، الى حدود بسكرة وتهودة ٠٠٠ فامتزج هنالك يومئذ العنصران امتزاج الماء بالماء فتبربر العرب وتعرب البربر واصطبغ كل

منهما بصيغة الآخر ، وعرف الجميع حينئذ باسم الشـــاوية ـ جمع شاوى اى راعى الغنم ، ثم أصبح هذا النعت أو الوصف اسم جنس على عدة جماعات تقطن أرض هـذا المغرب العربى ، أهمها هؤلاء شاوية أوراس ـ بالقطر الجزائرى ، وشاوية (تامسنا) بأرض المغرب الأقصى • ومن ثم انتهى الامر باطلاق اسم الشاوية على بربر زناتة وهوارة وكل من امتزج بهم من العرب أو مساكنيهم فى مواطنهم هذه ، وهم اليوم منقسمون الى احدى عشرة عشيرة متكونة من نحو 36 دوار أو تزيد ، تختلف كثافة السكان بها بين مكان وآخر • فمن هذه الجبال التى قال عنها الشاعر الثورى : من جبالنا طلع صوت الاحرار، ينادينا للاستقلال •

ففى هذا الاقليم من القطر الجزائرى ؛ ـ اقليم جبـــل اوراس الاطلس الصحراوى الواقع الى الشرق من مدينة بسكرة ، وفى عصور مختلفة من التاريخ الاسلامى لمع فى ميدان الثقافة والعلم جمع من ابناء الجزائر الاوراسيين ، ازدان بهم تاريخ الجـــزائر وطفحت بذكر اسمائهم كتب التراجم والسير ؛ وها نحن اليوم بمناسبة انعقاد الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى بقاعدة الاوراس ـ باتنة ، نلقى بنظرة تاريخية خاطفة على حياة ثلة من رجال الفكر الاسلامى بهذه الناحية من أرض الجزائر للتدليل على طيبة هذه التربة المباركة وسير الحركة العقلية بها •

ففى أواسط القرن الثالث من خير القرون نجد عالما أوراسيا يلمع اسمه ويتردد ذكره فى بلاط ملوك وامراء بنى الأغلب ـ الدولة التى ملكت تونس والجـــزائر (184 ـ 296 هـ / 800ـ909 م) ذلك هو اسحاق بن عبد الملك الملشونى ـ وملشون قرية من احدى قرى المدن الكثيرة المطل عليها جبل أوراس ؛ فعن هذا العالم الاوراسى كان أمراء الدولة يتلقون دروسهم فى الأدب والفقه والتاريخ وأخبار الامم ••• وعنه وعن والده كان يحمل العلـــم •

قال أبو العرب : كان أبو القاسم بن شبلون الفقيه رضى الله عنه يروى فيما كان يرويه ان الامام سحنون بن سعد دخل على الامير محمد بن الاغلب أول يوم من شـــهر رمضان ، فوجده خاليا بنفسه ، فقال له : اراك أيها الامير خاليا ، فقال نعم ، انفردنا فى هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل ، فقال سحنون : فأيـن

أنت ايها الامير من اسحاق الملشونى يحدثك بأخبار الامم السالفة والأعوام الماضية ؛ فأمر محمد بن الأغلب باحضاره ، فكان يحضر عند محمد بن الأغلب فى كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان . قال أبو العرب : وسمعت بعض المشائخ ممن يروى البرىء من الأخبار يحدث عن اسحاق بن عبد الملك الملشونى انه قال : لم يدخل افريقيا نبى قط ، وأول من دخلها بالايمان بعض حواريى عيسى بن مريم عليه السلام . وهذه منه فائدة جليلة تنير لنا الطريق حول البحث عن وجود (خالد بن سنان) على القول بنبوته ـ بهذه البلاد .

وفى حديث للبكرى يذكر فيه وصف جبل أوراس وما اودع الله فيه من خصائص وما احاط به من البلاد ... وكان فيما ذكره منها ان ذكر مدينة باغاية ـ وهى باغاى ، الموجودة حاليا بشمال خنشلة ، فقال : هى مدينة جليلة أولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح ، وهى على مقربة من جبل اوراس . ففى نفس هذه المدينة ولد العالم المحدث المقرىء أبو العباس احمد بن محمد بن عبد الله الربعى الباغائى سنة 345 هـ/956 م ودخل الاندلس سنة 376 هـ/986 م وقدم للاقراء بالمسجد الجامع فى قرطبة ، واستأدبه أمير الاندلس المنصور ابن ابى عامر لابنه عبد الرحمن ، ثم عتب عليه فأقصاه ، ثم رقاه المؤيد بالله هشام بن الحكم فى دولته الثانية الى خطة الشورى بقرطبة مكان أبى عمر الاشبيلى الفقيه ؛ وكان كما ذكره ياقوت : من أهل العلم والفهم والذكاء ، وكان لا نظير له فى علوم القرآن والفقه على مذهب مالك ، روى بمصر عن ابى الطيب بن غلبون وابى بكر الادفوى وتوفى لاحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة 401 هـ/16 جوان 1011 م .

وفيما بين القرن الرابع وأوائل الخامس نجد طائفة من سراة العلماء والادباء كلهم يحمل لقب « الطبنى » أى الانتساب الى مدينة طبنة ، وطبنة هذه هى من أهم المراكز الحيوية باقليم الزاب يومئذ ، بل هى عاصمة الزاب ، وثيقة الاتصال بالاوراس وقريبة منه جدا حيث ان خرائبها على بعد ثلاثة أميام جنوبى « بريكة » .

كان فيمن اشتهر بهذا البلد أسرة بيت ابى مضر زيادة الله بن على الطبنى فكان هذا البيت من ألمع وأنبه بيوتات هذه المدينة فى العلم والرئاسة ؛ ولم يقتصر حسن صيت

اعضاء هذه الاسرة على بلادهم فقط ، بل تعداها الى خارج الوطن ، ففى بلاد مصر نجد اسم الطبنى ذائعا ، وفى الاندلس كذلك أيضا نلقاه شائعا ، وبأرض الحجاز مستفيضا . وكان أبو مضر هذا مشتهرا بعلم الحديث والأدب ، كما اشتهر كذلك ابناؤه الثلاثة بثقافة واسعة : أبو مروان عبد الملك ، وأبو الحسن عبد الرحمن ، وعبد العزيز ؛ وكان أجلهث علما وأدبا هو أبو مروان (457 هـ/1064 م) . قال الصفدى : انه امام فى اللغة له رواية وسماع ، رحل الى المشرق وحدث عن ابراهيم بن الافليل ؛ وهو من بيت جلالة ورئاسة ومن أهل الحديث والأدب .

كما ذكره ابن بسام فى الذخيرة أيضا فقال : كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام ، وحملة الوية الاقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر ، اراهم طرؤوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتشار شمل الطاعة ، وأناخوا فى ظلها ، ولحقوا بسروات أهلها ، وسمع ـ أبو مروان من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز ؛ ولما عاد من المشرق الى قرطبة واجتمع حوله الناس فى مجلس الاملاء انشد :

انى اذا حضرتنى ألف محبرة	تقول حدثنى طورا وأخبرنى
يا حبذا ألسن الأقلام ناطقة	« هذى المكارم لا قعبان من لبن »

قال ابن بسام : وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أول من بنى بيت شرفهم ورفع بالأندلس صوته بنباهة سلفهم .

ومن أهل طبنة أيضا ابو عبد الله محمد بن حسين الطبنى علا صيته فى الأندلس أيام سنة 323 هـ/935 م 0 وكان شاعرا عظيما ، قال ابن شكوال : لم يصل الى الأندلس أشعر منه ، ومنهم أحمد بن الحسن الطبنى (390 هـ/1000 م) وابراهيم الطبنى ، وأبو الفضل عطية بن على الطبنى (532 هـ/1137 م) وهو القائل :

قالوا التحى وانكسفت شمسه	وما دروا عذر عذاريه
مرآة صدغيه جلاها الصبى	فلاح منها فى خديه

ومن نبغاء الادباء بالاوراس فى القرن السابع الأديب الكبير والشاعر المفلق محمد بن أحمد الاريسى المعروف بالجزائرى ـ وهذا اذا حققنا انه من بلدة الريس الاوراسية ، والا فهو على كل حال جزائرى من بلد جبال أوراس .

كان يسلك فى شعره كما يقول الغبرينى سلوك المتنبى وينحو نحوه ، فلقد كان حسن النظم والنثر مليح الكتابة حسن الوراقة فى البطاقة ، سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف ، ولأجل ذلك حسن نظمه ، وكان مليح التوشيح ، ان طال فى شعره أعرب ، وان اقتصر واقتصد أعجب ، وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر ، ومنه قـوله :

يا من على جـوده المعهـود أتكل	ويا ملاذى اذا ضـاقت بى الحيـل
غرقت فى بحـر آثامى فخذ بيدى	وامنـن بعفو فانى خائف وجـل

وكان فى علمه نظير العالم المؤرخ ابى عبد الله محمد بن الحسن القلعى شيخ الغبرينى . تولى رئاسة « كتبة الديوان ببجاية » وتوفى سنة 673 هـ/1274 م .

ومن الشخصيات العالمة اللامعة بالاوراس فى أواسط القرن الثامن : الشيخ أحمد بن العباس النقاوسى المنسوب الى مدينة نقاوس غربى مدينة باتنة "عروس الاوراس ، والقرية من طبنة ، كان رحمه الله مشاركا فى علوم التفسير والفقه والحديث والأصول واللغة والمنطق والبيان ... لقيه أبو النقاء خالد بن عيسى البلوى الأندلسى فترجم له فى رحلته وقال :

كان حافظا مجيدا ، وحافلا مجيدا ، وناقلا سديدا ، وناقدا شديدا ، وعارفا مديدا ، ومدرسا مفيدا ، له طبع حل فيه الذكاء والنبل ، وقل من كرمه الطل والوبل ، رحل من تلمسان قبل الحصار ، وتلاقى ريحها بالاعصار ، فدخل تونس مشمرا عن الجد ، وقائدا بالجد ، فطلع فى آفاقها كوكبا ، وسار فى ساحاتها كبكبا ، ولم يزل يفحص عن الكمال ، ويستسقى من عذبة منالها الزلال ، حتى بلغ المنتهى ، وخول ما اشتهى ، فهو الآن أحد مدرسيها الامام ، وأوحد من برع فى علمى البيان والكلام ، وأوجد الناس للدر اذا خاض بحر العلوم بسوابح الاقلام ، أديب العصر ونحويه وبيانيه وحكميه ومنطقيه ... الى الاحاطة بالتفسير والحديث ، مع المطالعة والمذاكرة فى القديم والحديث ، وكذا الفروع والاصول ... الى ان قال : قرأت عليه تاليفه المسمى : « الروض الأريض فى علم القريض » ، وتاليفه فى الأدب ؛ و « حديقة الناظر فى تلخيص المثل السائر » فى

البيان ؛ و « شرح المصباح » لابن مالك ؛ و « ايضاح السبيل الى القصد الجليل فى علم الخليل » وهو شرح على عروض ابن الحاجب ؛ وله تآليف غيرها عرف قدرها واشتهر ذكرها ؛ توفى سنة 765 هـ /1364 م ·

وهذا نقاوسى آخر أيضا ، من أهل القرن التاسع ، يسمى محمد بن محمد النقاوسى ، أخذ علمه أولا عن والده قاضى نقاوس وعن علماء بلده ، ثم ارتحل الى مدينة قسنطينة ثم تونس ودخل مصر فاخذ عن الشمنى والكافيجى والسخاوى وأضرابهم من علماء القاهرة ··· وتولى قضاء العسكر لحفيد المولى مسعود ، ثم عاد الى بلده نقاوس ، وهاجر فسكن مصر وانتقل منها الى الحجاز فجاور الحرمين الشريفين وجلس هنالك للاقراء والتدريس ·

وكان من مشايخ الامام عبد الرحمن الثعالبى الذين أخذ عنهم العلم ببجاية الشيخ أحمد النقاوسى ، قال الثعالبى : هو شيخنا الامام المحقق الجامع بين علمى المعقول والمنقول ، ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنية ···

ويحيى الشاوى غنى بنسبته هذه الى التعريف بنسبه ، فهو ابو زكرياء يحيى بن محمد الشاوى المولود بمدينة مليانة (1030 هـ/1621 م) ، من مشائخه الجزائريين الشيخ سعيد قدوره شارح سلم الاخضرى فى المنطق ·

حج الشاوى سنة 1074 هـ/1663 م ونزل القاهرة فتصدر للتدريس بالأزهر ، ورحل الى تركيا ثم عاد بعدها الى القاهرة وحج للمرة الثانية (1096 هـ/1684 م) وتوفى بالقاهرة ومن تآليفه شرح التسهيل » لابن مالك ، وله شروح وحواش ومصنفات فى النحو والاعراب والتوحيد الخ ··· ومن تلامذته : محمد أمين المحبى صاحب « خلاصة الاثر » (مطبوع) والشيخ على النورى صاحب كتاب « غيث النفع » فى القراءات والروايات السبع ، (مطبوع) ·

ومن اعيان علماء الاوراس فى القرن الحادى والثانى عشر العالم الفاضل المدرس الشيخ عثمان الاوراسى ، أخذ عن علماء بلده ثم ارتحل الى تونس فاخذ عن الشيخ محمد المغراوى ، وحميدة المفتى ، وعلى شعيب ، ومحمد بن عمران وابى القاسم بن سليمان وغيرهم ··· ومثله فى ذلك الشيخ على الاوراسى ···

وبما ان مدينة بسكرة تقوم على السفح الجنوبى من جبل اوراس ، واوراس يقوم الى الشرق من مدينة بسكرة ويطل عليها كما يقول ابن خلدون ، فهى معتبرة من أهم المدن المرتبطة بالأوراس والمتصلة به اتصالا وثيقا ، لا سيما وانها كانت طيلة هذه العصور التى مررن بها تضم بين جدرانها طائفة من كبار العلماء الذين اخترق ذكرهم الآفاق ، مثل الشيخ عبد الرحمن الاخضرى البسكرى الطائر الصيت ٠ وابى القاسم بن جبارة البسكرى ، وابى زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، والشاعر المكثر عبد الله بن عمر البسكرى ، والشيخ احمد بن الفاكهة اللياني فى آخرين ٠٠٠ وعليه فلا أقل من ان نشير ولو بايجاز الى بعض علمائها المحققين ومن كان منهم من اهل الاجتهاد الراسخين ٠

فهذا ابو القاسم يوسف بن على بن جبارة البسكرى ولد سنة (403 هـ/1012 م) وشد رحله فى طلب العلم وتخصص فى علوم اللغة والنحو والقراءات فطاف البلاد شرقا وغربا ، فدخل بغداد ونيسابور واصبهان وغيرها من حواضر العلم يومئذ ولقى بها جمهورا من جلة العلماء ؛ قال : « فجملة من لاقيت فى هذا العلم 365 شيخا ـ بعدد ايام السنة ، من آخر المغرب الى باب فرغانة ، يمينا وشمالا ، جبلا وبحرا ، ولو علمت ان احدا تقدم على فى هذه الطريقة فى جميع بلاد الاسلام لقصدته » ؛ وكان فيمن اخذ عنهم من كبار علماء المشرق الاستاذ ابو نعيم احمد بن عبد الله الاصبهانى ، صاحب الحلية ، والاستاذ ابو القاسم القشيرى صاحب الرسالة الصوفية المشهورة ، وكان هذا يراجعه ويحاوره فى مسائل من النحو والقراءات مراجعة مستفيد ، حيث كان لمترجمنا هذا استقلال فى آرائه واختيارات وترجيحات اختص بها دون غيره من أهل التقليد ، فكان مجتهد متخصصا فى فنه ـ القراءات والنحو ، قال ابن الجزرى : لا أعلم احدا فى هذه الأمة رحل فى القراءات رحلته ٠

استدعاه الوزير نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلجوقى للتدريس بمدرسته التى أسسها فى نيسابور ، مثل ما استدعى لها امام الحرمين الجوينى بل اسسها من اجله ، وبها قرأ وتعلم الامام الغزالى وعلم بها ، فانتصب يومئذ شيخنا ابن جبارة البسكرى لنشر علمه بين جدران هذه الجامعة الطائرة الصيت فى مدينة نيسابور التى يقول عنها الحموى (626 هـ/1229 م) هى مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، معدن

الفضلاء ، ومنبع العلماء ، لم ار فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ... وهناك وضع الشيخ ابن جبارة البسكرى كتابه «الكامل» وهو معلمة كبرى فى فن القراءات ضمنه خمسين قراءة بالفين ومائتين وتسعين طريقا · قال يصفه : « الفت هذا الكتاب فجعلته جامعا للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت به مصنفاتى كالوجيز والهادى » · وعلق امام القراء ابن الجزرى على كلمة المؤلف هذه فقال : كذا ترى همم السادات فى الطلب ·

ويبدو ان هذه المدارس النظامية ـ المنسوبة لنظام الملك كانت رسمية تحت رعاية الحكومة ، بدليل ما أشار اليه بعض المؤرخين بأن مدرسا صدر له التعيين بها ولكنه لم يؤذن له بالتدريس الى ان جاءت موافقة الخليفة على تعيينه ·

ومن أدباء بسكرة وفقهائها فى القرن الثامن : عبد الله بن عمر البسكرى ، كان فقيها أديبا شاعرا ، ارتحل الى المشرق فحج واستقر بالمدينة المنورة ملازما للحافظ المحدث المؤرخ الشيخ عبد الله بن محمد المطرى ، وكثيرا ما كان المطرى نفسه ينشد قصائد عبد الله البسكرى هذا ويرددها من حفظه اعجابا بصاحبها · توفى البسكرى الشاعر سنة 765 هـ/1364 م ·

واما ابن مزنى الذى أشرنا اليه فيما سلف فهو العالم المقرىء المؤرخ ابو زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، المولود فى المحرم سنة 781 هـ/1379 م ، فنشأ فى بيت علم وامارة ، والى هذه الاسرة كان مرجع التصرف والحكم بناحية الحضنة والزاب ، انصرف ابو زيان الى الاشتغال بالعلم ولقاء العلماء ، فاخذ عن جماعة من بنى وطنه ومن علماء تونس مثل الامام ابن عرفة ، وعبد الرحمن التوزرى ، وابى فارس عبد العزيز بن يحيى الغسانى البرجى ، ومحمد بن على بن ابراهيم الخطيب ، وعيسى بن احمد الغبرينى فى آخرين ...

ثم انتقل الى مصر فنزل بها سنة 803 هـ/1400 م وكان بها يومئذ وحيد افريقيا العلامة ابن خلدون وقد جمعتهما أواصر العهد القديم ببسكرة ، فاكرمه واسكنه بخانقاه ومدرسة الشيخونية ، وبها اسمع ابن مزنى صحيح البخارى ولازم الامام ابن حجر ... وهناك عكف على وضع كتابه الكبير للرواة ، لم يكمله ، قال ابن حجر : انه لو اتمه لكان مائة مجلد ، فانه جمع منه فى مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت حد ، ومات فتفرقت

مسودته شذر مذر ، ولعل أكثرها عمل بطائن مجلدات ؟!!٠٠ وكان رحمه الله جماعة للكتب ضابطا متقنا حريصا على جمع الفوائد والشوارد ٠ وأصيب فى آخر عمره ببصره فانتقل من الشيخونية الى مدرسة خانقاه الظاهر برقوق ـ بالقاهرة ، وعاجلته المنيـــة فتوفى سنة 823 هـ/1420 م 0 اثنى عليه المقريزى فى كتابه درر العقود ، واثبت بانه كان يتردد عليه ، وقال : رحمه الله ماذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة

وأما العلامة الأخضرى فهو أشهر من نار على علم واسمه عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الشهير بالاخضرى ، ورغم شهرته بهذه النسبة نراه ينكرها فى شرحه على سلمه فى المنطق ، فيقول : « ان هذا نعت لنسبنا على ما اشتهر فى السنة الناس ، وليس كذلك ، بل المتواتر عن أعالى أسلافنا واسلافهم ان نسبنا للعباس بن مرداس السلمى (الصحابى الجليل) » وامه رحمها الله اسمها (حدة) من قرية تيفلفال ـ من صميم الاوراس ـ ولد عبد الرحمن سنة 910 هـ/1504 م وكان ابوه رجلا صالحا وعالما جليلا فاخذ عنه ولده النجيب وعن من لقيه من مشائخ بلده ٠٠٠ وامتاز بالنبوغ المبكر ، ولازم الدرس الى ان برع فى أكثر الفنون العربية والعلوم الاسلامية ، والف فيها مصنفاته العديدة النافعة المفيدة ، فكتب فى الفقه والتوحيد والمنطق والنحو والبيان والفرائض والحساب والفلك والتصوف الخ ٠٠٠ نظما ونثرا ، وفيها ما هو مطبوع ٠٠ وانتشرت كتبه فانتفع بها الناس شرقا وغربا وترجم بعضها الى لغات اوروبا ، ومنها الفرنسية ، واعتقد انه ليس هناك اليوم أحد من أفراد العلم والادب ـ أو أقول معظمهم ـ بالجزائر وتونس والمغرب ومصر ٠٠٠ الا ولمصنفات الشيخ عليه فضل ومنة ٠ توفى رحمه الله سنة 983 هـ/1575 م ودفن بزاوية قرية (بنطيوس) جنوبى غرب مدينة بســـكرة ، وضريحه مشهور بها ٠

مراجع البحث

اعلام الجزائر : عادل نويهض ، ط بيروت ، 1971 م

بغية الوعـــاة : جلال الدين السيوطى ، ط ، القاهرة ، 1326 هـ

تاريخ الجزائر العام · عبد الرحمن الجيلالى ، ط 3 ، الجزائر 1971 م

تعريف الخلف ··· : أبو القاسم الحفناوى ، ط الجزائر 1906 م

دائرة المعارف الاسلامية : النسخة العربية ، ط مصر ، 1971 م

الذخــيرة ··· : ابن بســـام ط بيروت ، 1975 م

ذيل بشائر أهل الايمان : حسين خوجة ، ط تونس 1908 م

شجرة النور الزكية : محمد مخلوف ، ط تونس ، 1349 هـ

طبقات علماء افريقية : ابو العرب محمد التميمى ، ط باريس ، 1915 م

العبـــــر ··· : عبد الرحمن ابن خلدون ، ط بولاق 1274 هـ

عنوان الدراية ··· : أحمد الغبرينى ، ط الجزائر 1910 م

المسالك والممالك : عبد الله البكرى ، ط الجزائر 1857 م

نزهــة الانظـــار ··· : الحسين الورثيلانى ، ط الجزائر ، 1108 م

نزهــة المشتاق ··· : الشريف الادريسى ، ط ليدن ، 1864 م

نيل الابتـــهاج : أحمد بابا التنبكتى ، ط القاهرة ، 1329 هـ

هـؤلاء التـوارك الملثمـين

عبد الرحمن الجيـلالى
مؤرخ ـ الجزائر

هم أولئك الذين وقـع بشأنهم اجماع معظم مؤرخى هذا الشمال الافريقى بأنهم منحدرون من سلالة الجـذر المازيغى المغربى الذى سكن اسلافه ـ منذ احقاب طوال ـ هذا الوطن الممتد من صحراء ليبيا الى المحيط الاطلسى ، ومـن البحـر الابيض المتوسط الى حـوض السينيغال والنيجر ، فهم الذين عرفوا باسم البربر واشتهروا بـه فى التاريخ ٠

وكان فيما اجمع عليه هؤلاء المؤرخون أيضا ان أصل البربر يرجع الى جذمين اثنين ، هما البرانس والبتر ، ومن البرانس انحدرت قبيلة صنهاجة العتيدة ٠ ويقال ان اسمها هذا ـ صنهاجة ، أخذ من كلمة (صناك) بالصاد المشم بالزاى، والكاف القريبة المخرج من الجيم (زناك) ٠ وفى لهجة بربرية ينطق بها (ايصناكى) و (ايزناكى) ، وفى حال اطلاقها على القبيلة يقال فيها (الزناكة) ، فلما عربه العرب قالوا (صنهاج)، وهـو اسم الجد الاعلى الذى عرف به هذا الشعب : صنهاج بن برنس ٠٠٠ ولا تـزال بعض

القبائل والعشائر المنبثة هنا وهناك بأرض المغرب هذه تدعى بهذا الاسم : (صنهاجة) الذى يطلق على اسم البطن الجامع الذى تنتمى اليه كل قبائله وبطونه ٠

وليس من غرضنا هنا تتبع ولا استقصاء ما قيل عن أصل هذا الشعب أو ما ذكروه عن مرجع جذره وأرومته ، ٠٠٠ هل هو عربى أم بربرى أم غير ذلك ٠٠ وهل هو سامى أم حامى ، أو هو من أصل هندى أو روبى ، أو هو مزيج من كلتا السلالتين أو السلالات الثلاث التقت هنا على اديم أرض هذه الاوطان المغربية من هذا الشمال الافريقى ، أو غير ذلك مما قيل ٠٠٠ فان هذا كله لم يكن مما نرمى اليه فى هذه العجالة الموجزة ، اذ أن لهذا البحث مجالات فسيحة وفسيحة جدا ، يتيه فيها الباحث الحاذق والدليل الخريت ، والى هذا الخلاف الواسع الواقع فى نسب هذا الشعب يشير الشاعر الاندلسى ابن خفاجة بقوله فى مدح الامير أبى يحيى ابراهيم :

تنميهم الدنيا الى صنهاجة — والدين ينميهم الى الانصار

شادت يد العلياء فى عرصاتهم — أعلى منار فى أعز ديار

فتاريخهم كما نرى عريق جدا فى غضون السلالات البشرية العديدة ، وكل هذا كما ذكرنا لا يهمنا منه اليوم شيء ، وحسبنا ان صنهاجة هى قبيلة مغربية منتشرة بأرض المغارب الثلاث : الاقصى ، والادنى ، وفى القلب وهى (الجزائر) أرض المغرب الاوسط . وكان من أهم القبائل والبطون المنحدرة من الجذر الصنهاجى قبيلة (لمتونة) فى الشمال و (قدالة) فى الجنوب بالقرب من نهر السينيغال ، و (مسوفة) فى الوسط ، وهؤلاء هم الملثمون ، ومنهم ملوك دولة المرابطين بالمغرب الاسلامى والاندلس (454 ـ 541 هـ 1062 ـ 1146 م) ٠

وقد اختص الملثمون بسكنى الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس بليبيا الى البحر المحيط وبلاد السودان التى كان من ضمنها أرض الجزائر ٠ وعندما ذكر ابن خلدون أرض مالى قال : « وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين » ٠٠٠ وفى حديثه عن سجلماسة قال : « ٠٠٠ وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة ، وهم شعوب كثيرة ، ما بين كزولة ، ولمتونة ، ومسراتة ، ولمطة ، وريكة ٠٠٠ » ٠

ويقول البكرى : « وبنى لمتونة ضواعن رحالة فى الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين فى شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ويصيفون فى موضع يسمى أمطلوس ... » .

ولمتونة هى من كبريات قبائل الملثمين بالصحراء الكبرى ، وهم الذين يسميهم الكتاب الاوروبيون : الرعاة الكبار أو الجمالين الرحالة الكبار،وذلك تمييزا لهم عن الرعاة الصغار رعاة البقر والغنم . وكانت لهم الرئاسة بهذه الاوطان الصحراوية ، واستوثق لهم ملك ضخم فى الاسلام (أواسط القرن الخامس الهجرى ـ النصف الاول من القرن الحادى عشر الميلادى) توارثه منهم ملوك ورؤساء مذكورون دوخوا البلاد الصحراوية وما يجاورها من بلاد السودان وحملوا أهلها على الاسلام ، قال ابن أبى زرع :

« أول من ملك الصحراء من لمتونة (تيلوتان) فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان ، وكان يركب فى مائة ألف نجيب ، وتوفى سنة 222 هـ/836 م ».وكان الرئيس الاعلى عندهم يدعى بلقب (آمنوقال) أو (امينوقالين) بمعنى أمير البلاد ، واستمر هذا اللقب يدعى به الحاكم المطلق الاعلى عندهم الى سنة 1060 هـ/1650 م . حيث تطورت الاحوال السياسية وتغيرت الظروف ...

ومن بين القبائل التى عمها الاسلام فى تلك المنطقة الصحراوية . قبيلة (تاركة) أو (تريجة) بجيم أو قاف معقودة كما ينطق بها أهل البادية عندنا بارض الجزائر (1) ويأتى الانتساب الى هذه القبيلة على صيغة (تاركى) والجمع تواركة و (توارك) وتأول بعضهم اسم التوارك الى انهم تركوا الوثنية الى الاسلام ، وقيل العكس ، وذلك عند أول عهدهم بالاسلام،والاسم الاخير هذا التوارك ، هو الذى حرفه بعض تراجمة المشرق فقالوا (طوارق) . وهم القبائل الملثمون الساكنون ببلادهم التى سماها انا ابن خلدون (هكارة) وهى المعروفة اليوم باسم (الهكار) بالجيم أو الكاف المنطوق بها قافا معقودة . ويقول ابن خلدون فى أصل هذه الكلمة انها منقلبة عن (هوارة) قلبت العجمة واوها كافا .

(1) راجع بحثنا حول حرف القاف المعقودة المنشور بمجلة الشهاب . م 7 . ج 7 ص 446 قسنطينة 1350 هـ/1931 م .

وجاء فى وصف حال هؤلاء الملثمين وموقع بلادهم من كلام ابن خلدون قوله :

« وهذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفز وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ، أبعدوا فى المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فاصحروا على الارياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتصموا منها بالبان الانعام ولحومها انتباذا عن العمران ، واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الامم » .

ويبدو لنا من فحوى كلام ابن خلدون هذا ان نزول هؤلاء الملثمين بهذه المغازات الصحراوية الجنوبية انما كان بدافع الفرار من العدو المهاجم فى الشمال، وخوفا من الهزيمة على أيدى هؤلاء الزاحفين من الاجانب على الساحل الشمالى من أرض افريقيا ؟ ولكننا نحن اذا نظرنا الى الطباع التى فطر عليها هؤلاء الملثمون وذكروا بها فى التاريخ وشوهدوا عليها فى العصر الحديث كدنا ان لا نصدق بهذه النظرية ! ؟ . فها هو العالم ابن حوقل، وهو ذلك التاجر الرحالة الذى لابسهم وعرفهم قبل ابن خلدون بخمسة قرون يصفهم لنا بقوله : « فيهم البسالة والجرأة والفروسية على الابل والخفة والجرى والشدة ...» ويقول بأن فيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم ... ويقول : ولهم خلق تام وحول وجلد عام فى نسائهم وفى رجالهم ...

كما يشهد لهم التاريخ الحاضر بالبطولة النادرة فى حروبهم الثورية المتتابعة المتكررة ضد الاستعمار الفرنسى (1881 ، 1889 ، 1895 ، 1896 ، 1917 م) فواجهوا المدافع والاسلحة العصرية بأسلحتهم التقليدية والتي هي من صنع أيديهم مثل الرماح والحراب والسيوف الطويلة والخناجر القصيرة ، وحموا أنفسهم بدروع من جلود الضباء ولم يفروا أو يتقهقروا أمام العدو قيد انملة عن موطنهم هذا ، وظلوا كذلك الي عهدنا هذا عهد التحرير، فهم بحق كما وصفهم الواصفون : أسود الصحراء ، فكيف يتصور ممن هذا شأنه وهذه سجاياه يفر أو يرتحل عن بلاده ويتركها للعدو الزاحف ؟

ولكننا نقول انهم سكنوا بهذه الارض منذ عهد بعيد قبل الغزو الاجنبى بعصور مديدة عريقة وموغلة فى القدم بما يرجع ربما الى ما قبل التاريخ بدهور ...

وبلاد (الهكار ، أو الهجار) بالقاف المعقودة هى نجد كثير الارتفاع يقع فى أرض الجنوب بصحراء الجزائر ما بين درجة 14 و 30 عرضا شمالا ، وبين 5 غربا و 10 شرقا طولا ، بها جبـال هائلة تظهر قممها الرهيبة بأشكال مخيفة غريبة يـرتفع بعضها الى 3000 مترا كقمة (طهت) بمرتفعات (تاكور) الى الشمال مـن مدينة (تامنراست) ، وهى فى شكلها الطبيعى تظهر ماثلة كقلاع منيعة شاهقة لا يمكن اختراقها • كانت فيما مضى منطقة فلقانية ، وطول البلاد يبلغ 480 كيلومترا تقريبا ، وعرضها 320 كيلومترا ، وهذا المبلغ من مساحتها اليوم هو ما كان عليه الحال منذ أيام ابن خلدون حيث نـراه هو نفسه يقول : « ••• ومضى هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجزا بينهم وبين الرمال التى هى تخوم بـلاد البربر من المغربين وافريقية ، وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط فى المغـرب الى سـاحـل النيـــل بالمشـرق » •

والواقع ان الاغلب من هذه المنطقة الصحراوية لم يسبق اكتشافه حتى اليوم ، اللهم الا بواسطة رجال اطلعوا على هذه الجهة من طائرات تمر فوقها •

ومناخ بلاد الهجار ـ الهكار جاف كثيف الحرارة ، حيث الارض هناك حرة لا تنبت زرعا كما قال ابن خلدون ولا عشبا بالجملة ، فهى كارض الحجاز وجنوب اليمن ••• قال:« ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء يفقدون الحبوب والادم جملة ، وانما غذاؤهم وأقواتهم الالبان واللحوم ••• » وهذا فى القديم ، اما اليوم فلا يوجد تارقى الا ويستعمل الحبوب والتمور بل ان بعض الـزرع بدأت فعلا بزراعة بعض المحاصيل فى مجارى المياه في الوديان هناك جماعات تستخدم الرى فى الزراعة •

وتنزل بهذه الارض امطار ينمو بها النبات الذى يفى بحاجة السكان وتجرى به انهار وأودية أهمها نهر (ايغيغار) ووادى (طاغيت) و [illegible]ى (تافساست) •

واهم قرى هذه الناحية هى (تمنغست) ـ تامنراست،عاصمة ولاية المنطقة وادارة الحكم بتلك السهوب التى يسكنها هؤلاء التوارك الملثمين اليوم ، لا سيما منهم فريق

(ايموشاغ) أو (ايموشاق) ، كما هم منتشرون أيضا فى النيجر وغينيا ونيجيريا وتشـــاد ٠

وسبق لنا ان أوردنا رأى ابن خلدون فى أصل تسمية هذه المنطقة باسم (الهجار) أو بلاد (الهكار) حيث قال : ان أصلها (هوارة) قلبت العجمة واوه كافا ٠٠٠ ولنا فى ذلك رأى ولا ندرى اسبقنا اليه غيرنا من الباحثين ام لا ؟ ٠٠٠ وقد حان الوقت لندلى به تاركين القول الفصل فيه للبحث العلمى والنقد المنهجى الصحيح ٠

فانى أرى من الجائز القريب والمحتمل لفظا ومعنى ان المنقلب من الحروف فى كلمة (الهكار) أو (الهجار) هو حرف الهاء لا الواو ولا الكاف كما قال ابن خلدون ، فنقول ان اصلها (حجار) وهى الاحجار، فالهاء منقلبة أو مقلوبة عن حرف الحاء ، وذلك نظرا الى وضعية هذه الناحية من كثافة جبالها الحجرية وعظمة صخورها الضخمة ومرتفعاتها من الحجارة الصلبة والادوات المصنوعة هناك من الحجارة ،أو من قولهـم (الحجار) بتشديد الجيم،وهو قاطع الحجارة،فسميت المنطقة هذه أولا بالحجار ، ثم غيرتها الالسن وحولتها الى قولهم الهجار ـ الهكـار ـ الهقـار بقاف معقـدة أليس هذا بممكن قريب ومعقول ؟٠٠ لا سيما وان باب القلب والابدال هو باب واسع فى اللغـة ومعروف ٠٠٠ فانهم قالوا فى كلمة (مدحه) مدهه ، ومدهته امدهه مدهاء يعنى مدحته أمدحه مدحا ٠ كما يقال فى كدحه : كدهه ، وفى حبش : هبش ، فانه قلما نجد حرفا الا وقد جاء فيه البدل ولو نادرا كما قال أبو الحسن ابن الضائع اللغوى الاندلسى المشهـــور ٠

وكذلك اذا نظرنا الى موقع هذه البلاد وحاجة أهلها الى المرافق الاساسية فى حياتهم اليومية المتكررة ، نرى أهم ما يعول عليه هؤلاء الملثمين من التوارك سواء ذلك فى ضعنهم واقامتهم وفى أسفارهم وحال تنقلاتهم ، وفى طعامهم وأغذيتهم،وفى ملابسهم ومساكنهم وخيامهم وما الى ذلك من حال معاشهم،فكل ذلك مرجعه عندهم الى البعير ، نعم البعير الذى هو سفينة الصحراء ، فهو أكثر استعمالا وانتشارا بينهم من بين غيره من بقية سائر الحيوان الداجن أو غيره،فالجمل هو الصحراء ، والصحراء هى الجمل ، فهم حقا الرعاة الكبار ٠ ونرى الجمل اذا خلى عنه صاحبه أو تركه للمرعى أو تغافل عنه لحاجته

أو استغنى عنه في وقت ما ، ربما نفر البعير أو ند وسار فى أرض الله يبتغى الكلأ والمرعى ، فكان لزاما على صاحبه ان يعقله ويشده بحبل ، أو تدرى أيها القارىء الكريم كيف يسمى هذا العقال أو الحبل الذى يعقل به البعير ؟ ان لهذا الحبل اسما خاصا يتميز به ما بين الحبال ، ذلك هو ما يسميه العرب « الهجار » بكسر الهاء وحينئذ تكون الهاء هنا أصلية . والهجار هو حبل يشد فى رسغ رجل البعير ثم يشد الى حقـوه ، وان كان موصولا شد الى الحقب ويقصر ليلا يقدر البعير على العدو ، فيقال اذا شد بعيره بالهجار ، ويقال للجمل المشدود بهذا الهجار : (المهجور) كما يسمى الحبل الـذى يجعل فى عنق البعير المثنى فى خطمه بالهجار أيضا ۰ وشبه الداخل الى هذا الموضع الهجـار بالبعير الذى فعل بـه ذلك ثم غلـب على اسم الموضع . ويقال حجر البعير ـ بتشديد الجيم ـ اذا وسم حول عينيه بميسم مستدير ۰ كما استعملت العرب هـذه المادة نفسها لاطلاقها على الناقة اذا شبت شبابا حسنا فتقول فيها : أهجرت الناقة وناقة هاجرة ومهجرة أى اذا فاقت غيرها فى الشحم والسير ، والهجر ـ بكسر الهاء ـ للفائق والفائقة من النوق والجمال ، والهجير ما يبس من الحمض وهو ما ملح وأمر من النبات وهى كفاكهة الابل ۰۰۰ وبما أن أكثر مـا يشاهد فى الصحراء الكبرى ومـا يستعمل فيها من الحيوان هو البعير وما يتصل بالبعير سمى هذا الوطن ببلد (الهجار) ؟

وكذلك مما يحتمله لفظ (الهجار) من المعانى ـ ودائما مـع مراعاة المكان هذا هو مـا هي عليه تلك الناحية الصحراوية من اشتداد الحـر، ووقدات القيظ لا سيما فى فصل الصيف حيث تبلغ درجة الحرارة بها فى الشمال : 50 درجة مائوية ، وفى حالة التوسط : ما بين 35 و 36 درجة ، ومنطقة (الهجار) معروفة بهذا وموصوفة بـه من قديم ۰

وفى اللغة يقال : هجر النهار ـ بتشديد الجيم ـ اذا اشتد حره ، والهاجرة والهجير شدة الحر ، وتطلق هذه الكلمة على نصف النهار فى القيض خاصة عند زوال الشمس ، ويقال له وقت الهجر ـ بفتح الهاء ـ وأهجر القوم وتهجروا اذا ساروا فى الهاجرة ، وأهجروا اذا دخلوا فى وقت الهاجرة : ومنها جاء تعبير العامة عن شدة الحر بقولهم

(الهقارة) بالقاف المعقودة ، وكأن هذه الناحية شبهت لشدة حرها بالهاجرة ، وكل هذه المعانى موجودة فى الصحراء موطن التوارك الملثمين ٠

أو يكون ذلك راجع فى الاشتقاق الى أصل المادة نفسها وهو الهجـــرة بمعناها المعروف وهو التنقل والترحل والخروج من أرض الى أرض ومن مكان الى مكان آخر ، وهذا مقبول اذا اعتبرنا ما هو عليه حال هؤلاء التوارك من الرحلة المستمرة المفعولة التى أكسبتهم صفة (الرحل) ، وحينئذ نضطر الى اعتقاد القول بالرأى الذى قيل عنهم وانهم من المهاجرين الاولين الذين استوطنوا هذه المنطقة الصحراوية فنزلوا بها وسكنوها منذ عصور فسميت بلادهم هذه (بلد الهجار) أى المهاجرين على غير قياس ، كما تستعمل كلمة الهجر فى كل محل تسكنه وتنتقل عنه ، فيجوز أن يكون أصلـه الهجران كأنهم هجروا ديارهم وانتقلوا عنها الى هذه المنطقة ، أو من قولهم (هجر القوم) ـ بتشديد الجيم ـ بمعنى بكروا وبادروا الى كل شيء ٠٠٠ ولا يخفى انما تحسن الرحلة فى بلاد الصحراء وفى أرضها القاحلة فى وقت البكور قبل الشروق اتقاء للحر واللهيب ، وذلك ما جعل المكان هذا يعرف بالهكار ـ الهجار ٠

كما انه لنا ان نرد هذه التسمية الى ما ورد من اسماء البلاد العربية التى جـــاء اسمها مشتقا من هذه المادة : هـ٠ ج٠ ر٠ فمثلا ذلك البلد المشهور باليمن (هجر) ، و (الهجران) بفتح الهاء والجيم ، وهما قريتان متقاربتان فى رأس جبل حصين قـــرب حضرموت ، ولفظ (الهجر) نفسه هو فى لغة حمير والعرب العاربة معناه القرية كما هو فى لغة اليمن أيضا ، فكل ذلك قريب ، فان صح هذا كان تسمية بلاد التوارك الملثمين بالهجار تسمية عربية أصيلة ، وكانت نسبة الملثمين الى العرب صحيحة ، ولكن من أى طبقة هم من طبقات العرب الثلاث ؟ ٠٠٠ أهم من العرب البائدة ؟ ٠٠٠ أم هم من العرب العاربة ؟ ٠٠٠ أم هم من العرب المستعربة ؟ ٠٠٠ ذلك ما يرجـع البحث فيه الى المختصين بدراسة التاريخ القديم المتعمقين فى البحث عـن تاريـخ السلالات البشرية فى العالم ٠

واذا التفتنا الى ما نريد ان نعرفه عن الحضارة والمدنية بهذه المنطقة من الصحراء الكبرى فاننا نجد أمامنا لونا من ألوان الحضارة متجليا فيما اكتشفه علماء الآثار فى

عصرنا الحديث هذا من آثار قيّمة تعتبر وثائق تاريخية تكفى للتدليل على حضارة هذا الشعب وتفننه ، ومن ذلك ما ظهر للباحثين بناحية (تاسيلى) شمال شرقى الهقار واطلع عليه الجمهور ، من تلك الرسوم والصور العجيبة المنقوشة على الصخور هناك ، وهى ذات أشكال مختلفة،وألوان زاهية،وتخطيط محكم،فى وضع أنيق وصنع عجيب ، يرجع تاريخها الى نحو ما يقرب من 8000 سنة مضت على هذه التحفة أو التحف الفنية، وهى لا تزال الى يومنا هذا مزهوة بألوانها البراقة ومظهرها الخلاب ، وذلك رغم مر الدهور وتطاول عوارض الطبيعة عليها وعمل يد البشر بتصرفها فيها كيف شاءت !٠٠ ورغم هذا كله فهى باقية الى الآن ٠ ولقد نشرنا صورا شمسية منها فى كتابنا (تاريخ الجزائر العام) ج 1 ٠ ص 62 ـ 63 ٠ ط 3 الجزائر 1971 ٠

وفى مجال التصنيع نجد هؤلاء الملثمين اشتهروا بامتيازهم فى صنع الدرق لرد عادية العدو فى الحرب ، ولا سيما منها (الدرق اللمطية) الذائعة الصيت،والتى يضرب بها المثل فى المتانة والصلابة والجودة وحسن الصنع ، وهى منسوبة الى لمطة ، ولمطة هى من احدى قبائل الملثمين ، كانوا يتخذون جلود الوحوش بعد ما ينقعونها فى اللبن والحليب سنة كاملة لتزيد قوة وقساوة ، فيصنعون منها درقا بحيث اذا ضربت بالسيف الحاد القاطع نبا عنها ولا يؤثر فيها ٠ وقد كانت الدرقة فى صدر الاسلام الاول تصنع من الخشب ثم يلصق عليها جلدة مساوية لها ٠

اما لغة القبيل هذا فهى المعروفة ما بين لهجات البربر بلغة (تماشغت) أو (تمازغت) أو (طماشق) وهى تقرب من لهجة قدماء المصريين التى لا تزال منطوقا بها فى بلاد النوبة (1) ٠ وهى مستعملة هنالك فى بعض الكنائس القبطية بمصر ، وترجع فى اشتقاقها وتركيبها الى اللغة الحامية القديمة التى تمت بصلة الى اللغة السامية ، ويتحدث بها فى شمال السينيغال كما تتحدث بها فئتا كيل ايوليمدين وكيل أهجار ، وكلتاهما من التوارك ٠

كما ان لمحادثاتهم بينهم لهجات أربعا هى خاصة بهم يصعب على غيرهم النطق بها ، حتى ان الكاتب الرومانى القديم (فلينوس) قال فى حديثه عن لغة البربر عموما : « يتعذر على حناجر غير البربر ان تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم » ٠

(1) منطقة ممتدة على شاطىء النيل جنوب اسوان حتى دنقلة بأرض السودان ٠



27

وكان لهؤلاء الملثمين ابجدية قديمة جدا وهى خاصة بهم ، يكتبونها بحروف منفصلة صائتة بعضها مستنبط من الحرف الحميرى والخط المصرى القديم ، وهو ما يعرف بالخط اللوبى ، وبعضها استنبطوه من تلقاء أنفسهم ٠

وأشكال هذه الحروف يختلف باختلاف القبائل وهى فى جملتها متقاربة فى الشكل ومتشابهة فى الصورة ، ولا يزال هذا الخط موجودا الى يومنا هذا منقوشا على بعض الآثار العتيقة القائمة على مشاهد قبور وصخور يوجد بعضها بشرق قسنطينة وبغيرها ٠ كما توجد بعض نماذج منه بمتاحف عواصم القطر الجزائرى وهو ما يسمى بخط (تيفيناغ) أو (تافيناغ) ٠

ولهذا الخط ضوابط يسمونها (تيدباكين) والكل يسمى (أقامك) ٠ ويمكن كتابة هذا الخط من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين ، ومن أعلى الى أسفل ومن اسفل الى أعلى ، وقد خصصنا لهذا الخط فى كتابنا (تاريخ الجزائر العام) ج 1 ٠ ص 55 ط أولى الجزائر 1953 م ، وفى ط ثانية ج 1 ٠ ص 62 بيروت 1965 م ، وفى طبعة ثالثة ج 1 ٠ ص 61 الجزائر 1971 م ، جدولا مقارنا بثلاثة خطوط : تيفيناغ ، فينيقى ، عربى ٠ فانظره هناك ٠

وكان تعليم القراءة والكتابة والشعر والموسيقى عند التوارك هو من مواهب النساء ، فهن اللائى كن يشتغلن بتعليم ابنائهن وبناتهن ٠ وهذا يرجع الى ما تتمتع به المرأة التاركية من المقام الرفيع والمكانة الراسخة فى المجتمع التاركي ٠

وهذا وحده مظهر عظيم وشاهد ناطق بتقدم سكان هذه المنطقة الصحراوية الجزائرية وضربها بسهم صائب فى ميدان الرقى والحضارة التى نراها تقارب حضارة وادى النيل العتيقة ٠

ومما يحتفظ به هؤلاء التوارك كميزة خاصة يمتازون بها بين ما يجاورهم من البربر انقسامهم على أنفسهم الى قسمين اثنين ، أو نقول الى جماعتين كبيرتين : توارك الشمال ، وتوارك الجنوب ، يجتمعون فى ثمان فرق ، فتوارك الشمال هم المعروفون باسم (أزجر تاسيلى) Tassili والهجار الذين يقطنون الجبال المعروفة بنفس هذا الاسم ٠

وتوارك الجنوب وهم (ايو لميدن كل دناك) وهؤلاء امتزجوا بعناصر من السودان ، وعددهم جميعا يبلغ نحو 300.000 نسمة (1950 م) وطبقة السادة فيهم تـدعى (ايهقارن) وطبقة الشعب تسمى (ايمراد) ، ولا يزالون كلهم محتفظين فى سلوكهم العام بأساليب حياتهم التقليدية وعوائدهم الموروثة مهما اختلفت عن تلك التقاليد التى هى عليها غيرهم من قبائل البربر فرحا وترحا ، فهم على سبيل العموم منزوون عن المجتمع لا يخالطون ولا يختلطون ، وحتى فى زيهم وملابسهم فيهم شذوذ ٠

ومن تقاليدهم المشهورة والخاصة بهم ما يستعمله الذكور من اللثام المسمى عندهم بـ (تاقيلموس) الذى هو فى نفس الوقت يشمل اللثام والعمامة ولهم فى وضعه كيفية خاصة،وفى طوله وعرضه مقياس خاص ٠ فهو ادارة دور من العمامة يصعد بـه المتعمم من تحت الذقن فيجعله على فمه ، أو يصعد به الى أصل الفم وهو النقاب ، وقد يبلغ به أحيانا الى أن لا يظهر منه الا العينان ، وذلك هو ما يسمى بالاحتجـار أو (العجار) كما هو معروف فى لغة عامة أهل مدينة الجزائر ٠

وهذا اللثام بهذه الصفة لا يتزيا به الا طبقة النبلاء منهم،فلا يستعمله العبيد ولا الخدم ، وان كان قد تم القضاء على الرق فيما بينهم بصفة رسمية نتيجة لثورتهـم سنة 1916 ـ 1917 م ٠ فيغطون به وجوههم من أسفل العينين وحتى الجبهة والانف ولا يترك اللثام الا جزءا ضيقا جدا للعينين وقسما صغيرا للانف هى كل الاجـزاء الوحيدة التى يمكن ان يراها الانسان من وجه التاركى ، وتترك نوعية القماش وطريقة نسجه وخياطته مجالا واسعا للتنفس ، بل وتحتفظ بدرجة كبيرة من الشفافية ٠ وهم يتخذونه بلون ثيابهم الطويلة ذات اللون الازرق القاتم ٠ وفى منطقة (الايار) لا يشرع التاركى فى وضع اللثام ولبسه الا اذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فعندئذ تقام احتفالات طقوسية لوضع اللثام أول مرة ، وتصحبها وليمة كبرى يقدم فيها الطعام والغناء والرقص ٠ وهم يقولون لا يصبح الرجل طاهرا وتقيا الا اذا لبس اللثام ٠

ولا يسمح التاركى اطلاقا لاحد بالاطلاع على وجهه بتاتا،وحتى لاهله واقـرب اصدقائه ولو هو مستقر فى بيته أو قيامه مع اقربائه وذويه ، لا ينزعه ليل نهار حتى

في المنام ، وحتى فى اثناء تناوله للطعام ، فعند ذلك يرفع التاركى القسم الاسفل من اللثام الذى يسمى (ايماوال) ليأكل برفع يده الى فمه ، ثم اذا احتاج فيما بعد الى ربط اللثام فانه ينتحى جانبا فى دغل من الادغال ليخفى ملامح وجهه حتى على أفراد أسرته ٠ وهم يتعرفون على بعضهم بعض بسهولة ، قال ابن حوقل :

« ولم ير لاحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يتلثمون وهم أطفال وينشئون على ذلك » ٠ ومن هنا جاءت تسميتهم بالملثمين تسمية منطبقة عليهم تماما ، فهى تسمية طبيعية ٠

وهذا شيء نراه يخالف على طول الخط تقاليد الامم والشعوب على اختلاف أجناسها واديانها وتباين اذواقها ومشاربها ، فما رأينا ـ فيما نعلم ان هناك من ذكر ان فى الشعوب من يتزيا بهذا الزى الا هؤلاء ، فياترى ما وجه ذلك ؟٠٠ وما هو السبب الحامل لهم على تغطية وجوههم على هذه الصفة ؟ ٠٠ وما الباعث لهم على هذا ؟ ٠٠ واذا قلنا حملهم على ذلك اتقاء مهاب الرياح والزوابع الرملية التى لا تخلو منها الصحراء ، قلنا فكيف بالجنس اللطيف عندهم لا يستعمله ، فكيف بحالهن اذا اشتدت زوابع الرمال وتصاعدت الحرارة واضطربت الرياح ؟ ! ٠٠٠ فهن دائما سوافر لا يتلثمن ولا يتنقبن أصلا ، فما هو السبب والعلة فى ذلك ياترى ؟ ٠٠ هذا هو السؤال الذى نطرحه اليوم على شيخنا التاريخ ليوضح لنا ذلك ويكشف لنا عن السر فيه ، قال ابن الاثير فى استمرارية حديثه عن ولاية يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين (454 ـ 541 هـ/1062 ـ 1146 م) :

« ٠٠٠ وخرجت قبيلة لمتونة ـ أى بعد تمهيد مراكش ، وضيقوا حينئذ لثامهم ، وكانوا قبل ان يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد كما يفعل العرب ، والغالب على الوانهم السمرة ، فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام ٠

« وقيل كان سبب اللثام لهم ان طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوهم فخالفهم العدو الى بيوتهم ولم يكن بها الا المشائخ والصبيان والنساء ، فلما تحقق المشائخ انه العدو أمروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ، ويضيقنه ، حتى لا يعرفن، ويلبسن

السلاح ، ففعلن ذلك ، وتقدم المشائخ والصبيان أمامهم واستدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا ، فقال : هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت ، والرأى ان نسوق النعم ونمضى ، فان اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم ، فبينما هم فى النعم من المرعى اذ أقبل رجال الحى فبقى العدو بينهم وبين النساء ، فقتلوا من العدو فاكثروا ، وكان من قتل النساء أكثر ، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه ، فلا يعرف الشيخ من الشاب ، فلا يزيلونه ليلا ولا نهارا ٠ ومما قيل فى اللثام :

قوم لهم درك العلى فى حمير وان انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

وهكذا نرى تلميذه ابن خلكان يروى لنا القصة بعينها فى تاريخه وفيات الاعيان، مع التعليق عليها بشىء من التوضيح والشرح فيقول وهو فى سياق فى حديثه عن دولة المرابطين :

« ٠٠٠ وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ، فلذلك سموهم الملثمين ، وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، وسبب ذلك على ما قيل : ان حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد . تفعله الخواص منهم ، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم ، وقيل ان سببه ان قوما من اعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا س بيوتهم فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشائخهم ان يبعثوا النساء فى زى الرجال الى ناحية ويقعدوا هم فى البيوت ملثمين فى زى النساء ، فاذا أتاهم العدو وظنوهم النساء فيخرجون عليهم ، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ، فلزموا اللثام تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو » ٠ وهكذا استمر العمل عندهم حتى أصبح اللثام لديهم (موضة) La mode أو عادة غير شعورية ٠

اما ابن خلدون فانه اقتصر فى تفسيره لهذه الظاهرة عند التوارك بانهم : « اتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الامم » ٠ ومثله فعل القلقشندى فى صبحه اذ قال : « واتخذوا اللثام شعارا يميز بينهم وبين غيرهم من الامم »

اما ابن حوقل فانه جاءنا بتعليل آخر غريب يخالف تماما ما رواه ابن الاثير وابن خلكان ، بل نقول فاجأنا بشيء لم يخطر لنا على بال ٠٠٠ فانه يقول : « ٠٠٠ ولم ير لاحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك لانهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك ، ويزعمون ان الفم سوأة تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه اذ ما يخرج عندهم هو انتن مما يخرج من العورة » ٠ وكذلك نجد هذا التعليل نفسه عند شيخ الربوة فى نخبة الدهر ٠٠٠

ويرد ذلك بعضهم الى انه يستعمل وقاية سحرية لدرء العين وغيرها مما يتقى شره ، وهناك من يزعم من كتاب الغرب أن ذلك يرجع الى ما يكمن فى صدور التوارك وفى قرارة أنفسهم من نزعة ارستقراطية عريقة فيهم منذ قديم،ومهما يكن من شيء فان اللثام هو النمط الحضارى الذى يميز التوارك عن غيرهم ٠

ولقد تعرض الفقهاء الى هذا اللثام ومثله النقاب من حيث التزين به فى حالة الصلاة ، وحتى فى خارج الصلاة أيضا ، فقالوا فى النقاب هو بالنسبة للمرأة فى حالة الصلاة مكروه ، ولا سيما اذا كان يبلغ للعيون ، لانه كما قالوا : هو من الغلو فى الدين ٠ ولكنهم نراهم قد تسامحوا مع الرجل اذا كان هو من قوم عادتهم ذلك ، وذكروا أهل (مسوقة) فقالوا بما أن النقاب من دأبهم ومن عادتهم لا يتركونه أصلا ، فلا يكره لهم الانتقاب اذا كان في غير صلاة ، وأما فيها فيكره وان اعتيد استعماله خارج الصلاة ، وشددوا في اللثام وهو ما يصل لآخر الشفة السفلى فقالوا بكراهته للرجل مطلقا فى الصلاة وخارجها ٠

وعلى ذكر اللثام هذا نسوق قصة حدثت زمن نزول جيوش الملثمين ببجاية (581 هـ/1185 م) بقيادة على بن غانية ، وكان قاضيها فى التاريخ الشيخ أبو على المسيلي ، فاكرهه أمير الجيش ابن غانية هو ومن كان حاضرا معه من أهل بجاية على البيعة،فتوقف القاضى ولم يبايع ، ذلك لما كان فى عنقه من مبايعة الموحدين ٠٠٠ فاكرهه ابن غانية على مبايعته . فقال القاضى : نحن لا نبايع من لا نعرف هل رجل أم امرأة ؟٠٠ وحينئذ سفر ابن غانية عن وجهه وكشف نقابه للحاضرين ٠ وهنا يقول الغبرينى فى

بيان منزلة الشيخ عند القوم : وهذا هو منتهى ما بلغ توقفه ، وهو أمر كبير عند مطالبته بالبيعة ، ولولا علو منصب الفقيه ابن علي رضى الله عنه ما ساعده (ابن غانية) عليه ٠

وفيما يعود الى تاريخ العقيدة الاسلامية والتدين بالاسلام عند هؤلاء الملثمين ، نرى فيما تذهب اليه بعض الروايات ان فتوحات عقبة بن نافع الفهرى فى دورته الثانية (62 هـ/682 م) بلغت الى مدينة (نول)،وهى كما عند البكرى والادريسى مدينة كبيرة عامرة كانت لبني (كدالة) على ساحل المحيط الاطلسى ، هى آخر مدن الاسلام وأول العمران من الصحراء ، وكانت بعض قبائل الملثمين تنزل هذه البلاد ، فقاومت عقبة أول الامر دفاعا عن كيانها ، ولكنه هزم مسوقة واخضع الملثمين لسلطان الاسلام ، وهذا ما نجده عند ابن أبى زرع حينما تحدث فى (الانيس المطرب ٠٠٠) عن مدينة (تاتكلاتين) القريبة من موضع (بغارة) السودانية غربا ، قال : « ٠٠٠ يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببنى وارث ، وهم قوم صالحون على السنة والجماعة ، واسلموا على يد عقبة ابن نافع الفهرى أيام فتحه للمغرب ، وهم يجاهدون السودان الذين هم على غير الاسلام ٠٠٠»وقال :

« ٠٠٠ وكثيرهم على السنة والجماعة يجاهدون السودان »٠ وهذا ما نرى ابن خلدون قد وافق عليه فى تاريخه الكبير حيث قال فى سياق سرده لحوادث فتوحات عقبة بالمغرب : « ٠٠٠ ثم أجال الى بلاد السوس فقاتل من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ٠٠٠ » ٠ وبذلك يكون عقبة أول من حمل أهل اللثام على الاسلام ، ثم اتصل بهم بعد ذلك موسى بن نصير (86 هـ/705 م) فدعاهم الى الاسلام مرة أخرى فأقبلوا عليه ودخلوا فيه.هذا بالنسبة الى القرن الاول الهجرى ٠

ولكن ابن خلدون نراه يعود الى ذكر الملثمين فيثبت لنا تاريخا آخر لزمن اسلامهم ، وهو متأخر عما سلف بكثير ، اذ نجده يقول : « ٠٠٠ كان هؤلاء الملثمون فى صحاريهم كما قلناه ، وكانوا على دين المجوسية الى ان ظهر فيهم الاسلام لعهد المائة الثالثة » ؟ ٠

ونحن نعلم ان هذا العهد الذى أشار اليه ابن خلدون ـ المائة الثالثة بالمغرب كان قد شارك فيه كل من دولة الادارسة والاغالبة والرستميين ، فأين هذا من عهد

عقبة ؟ ... فأى التاريخين أحق باليقين ؟ ... وإنما الامر الذى نتحققه بشأن ازدهار الاسلام فى هذه المنطقة الصحراوية النائية ، هو منذ حل بها الفقيه المالكى عبد الله ابن ياسين الجزولى صحبة زعيم قبيلة (كدالة) الامير يحيى بن ابراهيم (430 هـ / 1039 م) ، فمنذ يومئذ أخذت الدعوة للاسلام تنتشر بتلك البقاع من صحراء افريقيا ، وعمها الاسلام . وكان لهؤلاء الملثمين فضل تعميمه ونشره بجنوب صحراء القارة الذى هو يشتمل اليوم على عشر دول اسلامية مجاورة مستقلة .

ولم يقتصر تأثير الفتح على نشر الدين الاسلامى بين هؤلاء الاقوام بل جلب معه اليهم أساليب جديدة فى رعاية الماشية وتكاثرها وفى صنع الاسرجة وفنون العمارة والبناء والالبسة والإدارة والتنظيم،وظهر أثر الاسلام فى كل مناحى الحياة ، وصار الانتساب الى الاب هو القاعدة بعد ما كانت الام هى المرجع فى نسب الاسرة ، وقام الاسلام بدور كبير فى تغيير الانظمة السياسية والاجتماعية .

مصـــادر البحـــث

ابن الاثـير	: الكامل ـ ج 9 ، ط بيروت 1966 م ٠
ابن حوقـل	: صورة الارض ـ بيروت بدون تاريخ ٠
ابن الخطيـب	: أعمال الاعلام ـ الدار البيضاء 1964 م ٠
ابن خلـدون	: كتاب العبر ـ ج 1 ، 6 بولاق 1284 هـ ٠
ابن خلكـان	: وفيات الاعيان ـ ج 2 بولاق 1299 هـ ٠
ابن أبي زرع	: الانيس المطرب ـ ج 2 الرباط 1936 م ٠
أحمد توفيق المدنى	: كتاب الجزائر ـ ط الجزائر 1350 هـ ٠
أحمد توفيق المدنى	: جغرافية القطر الجزائرى ـ الجزائر 1948 م ٠
أحمد شلبى	: موسوعة التاريخ الاسلامى ـ ج 6 القاهرة 1972 م ٠
الادريسى	: نزهة المشتاق ـ ليدن 1864 م ٠
البكـــرى	: المسالك والممالك ـ الجزائر 1857 م ٠
حسن ابراهيم	: انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ـ القاهرة 1963 م ٠
سام وابريل ابشتين	: الصحراء ـ القاهرة 1966 م ٠
سعيد الشرتونى	: اقرب الموارد ـ بيروت 1889 م ٠
عبد الجليل الطاهر	: المجتمع الليبى ـ بيروت 1969 م ٠
عبد الرحمن الجيلالى	: تاريخ الجزائر العام ـ ج 1 ، ط 3 الجزائر 1971 م ٠
عبد الوهاب بن منصور	: قبائل المغرب ـ ج 1 الرباط 1968 م ٠
الغبريـنى	: عنوان الدراية ـ الجزائر 1910 م ٠
الفيروز ابادى	: القاموس المحيط ـ بولاق 1301 هـ ٠
القلقشنـدى	: صبح الاعشى ـ ج 5 ، ط الاميرية بولاق ٠
النـاصرى	: الاستقصا ـ ج 2 الدار البيضاء 1954 م ٠
ياقوت الحموى	: معجم البلدان ـ ج 5 بيروت 1957 م ٠



التجديد والمجددون في الإسلام

الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ - الجزائر -

جاء فى السنه عن ابى هريره رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ·

أخرجه أبو داود فى الملاحم من سننه، والطبرانى فى الاوسط عن أبى هريرة مرفوعا ، وصححه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى المعرفة وفى المدخل · وممن نص على صحته من المتأخرين أبو الفضل العراقى والحافظ ابن حجر ، ونقل الحنفى الاتفاق على صحته ·

لقد غدا من البديهيات الضروية وان العالم أصبح اليوم يمر بضروب من التحول والتغيير السريع مما لم يشهد مثلهما من قبل ، حتى ان القارات الواسعة التى كان يعرفها أسلافنا منفصلة عن بعضها صارت اليوم كوحدة متصلة ملتحمة الاجزاء مرتبطة الحلقات بشتى الروابط المختلفة ، ففى حين وجودك فى افريقيا مثلا فانك ترى وتسمع عن مشاهدة بعينى رأسك ما يجرى حدوثه بقارة أخرى تبعد عنك طبيعيا بآلاف من الكيلوميترات ··· بل وحتى ما يجرى فى الاجرام العلوية من تحرك أو اصطكاك يقع فيما بين الاقمار والشموس والكواكب والافلاك التى تبعد عنك بملايين الكيلو ميترات تراه وتشهده فى وقته، وهذا جزء من التغيير المستمر العام الذى نعنيه · وفى كل يوم تطلع عليك فيه الشمس تفاجئك الصحف والنشريات فى العالم أجمع وما يحمله اليك الاثير بطريق الاذاعة والتلفزة من أخبار الابتكارات والاختراعات الجديدة العجيبة الصنع والابداع مما يحملك على تغيير أفكارك وآرائك وتعديل معلوماتك فيما كنت تعلمه أو تعتقده مسلما صحيحا · وكثيرا ما تنقلب على نفسك مخطأ ومؤنبا · فتصبح ترى خلاف ما كنت تعتقده من قبل ، وكل هذه الاشياء تدخل فى باب التطور والتغيير الذى حدث ويحدث فى العالم ، وكل هذه الاحداث

تتطلب منك بصفتك مسلما ان تعلم حكم شريعتك فيها ··· ومنها مثلا وجود الانسان على سطح القمر ، فكيف يجرى على نفسه أحكام دينه فى عبادته ؟ ··· الى غير هذا من المحدثات العصرية ··· وهذا مما يبعث على تجديد النظر ومراجعة النصوص على ضوء وضعية العصر الحديث ودرسهما دراسة عميقة لحل مشكلات هذه القضايا المتجددة فى كل لحظة وحين ···

وبما أنك ملزم أيها المسلم بحكم الضرورة على مسايرة عصرك وممارسة أو ملابسة هذا الجديد فكان لزاما عليك أن تعلم رأي الدين فى ذلك ، وأنى لك ذلك وليس لديك نصوص تطبقها على الحادثة الجديدة ؟ ··· فكيف يكون العمل اذا وأنت مضطر للتعامل مع الخلق ؟ ··· فمن هنا نرى وجاهة رأي من أبى ورفض القول بغلق باب الاجتهاد فى الدين ، وقال بفتح الباب على مصراعيه (اجتهادا وتجديدا) لكل من حاز شروط الاجتهاد الشرعية كما هي مقررة مفصلة فى مضانها من كتب علم الاصول ·

فالاسلام كما تنص عليه أصوله الاصيلة من كتاب وسنة هو دين عملى صالح لكل زمان ومكان ونظام مرن اجتماعى خالد فيجب اجراء قوانينه وجميع أحكامه وفق مقتضى روح العصر فى اطار مبادى الشريعة العامة وقواعدها الصحيحة التى تدعو الى مصالح الناس ودفع الحرج عنهم حسب ما نطق به القرآن : **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** · (المائدة : 6) ، **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** · (البقرة : 185) وما جاء فى السنة من قوله صلى الله عليه وسلم :

« يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » ، فان لنا فى هذا مجالا واسعا ، والوقت قد حان ، لا سيما وان التطور والتغيير قد لحق كل شىء وأصبحت المدارس فى العالم اليوم تعلم الناس الاستقلال فى التفكير للوصول الى معرفة الاشياء والحكم عليها بأنفسهم بطريق التجربة والقياس ، فالاوضاع نراها كما تراها يا أخى تتغير وتتطور فى كل حين وآن ·· فهنالك دول وحكومات نشأت ، وهناك أمم كانت مستعمرة فاستقلت ، وهناك منظمات وأحزاب سياسية تكونت، وجماعات دولية تأسست ، وهيآت حاكمة استبدت ومذاهب فى العقائد والاجتماع قد بدت ، وقوانين ومعاملات جديدة فشت وتقررت ··· فليس من المعقول أن يبقى الاسلام مكتوف الايدى ينظر الى هذا التطور الشامل لسائر ميادين الحياة كلها بدون أن يتخذ لنفسه موقفا عمليا يثبت فيه وجوده الضرورى كأدات صالحة للسير بهذه الحياة الى النجاة، وانه بحق هو دين التجديد المستمر مع الزمن كيفما كان الحال الى قيام الساعة·

فان فى ضمن الحديث النبوى الورد فى التجديد الامر بالتجديد والحث على ذلك وان كانت صيغته هي من باب صيغة الاخبار بالمغيبات ففيه الى ذلك تشويق

الى الاحراز على هذه المنقبة العظيمة، منقبة التجديد ، وهذا من اعلام النبوة ٠

وفى هذا الصدد جاء فى جريدة الاهرام المصرية (1384/9/27 هـ) سؤال طرح على شيخ الازهر ، يقول السائل :

« الى أي حد يمكن تطور الدين تبعا لتطور المجتمع ؟ » فكان الجواب كالتالى :

« ان للدين الاسلامى أحكاما أساسية وأحكاما تبعية وفرعية ، والاحكام الاساسية تبقى ما بقى الزمن ولا يجوز فيها التغيير ٠ أما الاحكام الفرعية أو التبعية فهذه تخضع لما يثبت فى الكتاب والسنة ، واذا لم يوجد فى الكتاب أو السنة نص جاز الاجتهاد والاخذ بما يحقق مصلحة المجتمع » ٠ فمعنى هذا ان المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية الدلالة فهي قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغيير ٠

وانطلاقا من حديث أبى هريرة هذا أخذ الفقهاء والمؤرخون فى البحث عن المجددين فى الاسلام سلفا وخلفا ، فقالوا انه كان على رأس المائة الاولى من الهجرة عمر بن عبد العزيز ، وعلى رأس المائة الثانية الشافعى ، والثالثة ابن سريج أو الاشعرى ، وذكروا للمائة الرابعة كلا من أبى سهل محمد بن سليمان الصعلوكى والاسفراينى - أو الباقلانى ، والخامسة الغزالى ، والسادسة الفخر الرازى ، والسابعة ابن دقيق العيد ، ٠٠٠ وهكذا نجدهم يعددون أسماء المجددين على رأس المآت طيلة الاربعة عشر قرنا التى عاشها الاسلام ٠

قال بعض شراح هذا الحديث انه لا يلزم أن يكون المبعوث المجدد على رأس المائة رجلا واحدا ، بل قد يتعدد المجددون فى القرن الواحد ، فيكون كل واحد منهم مجددا فى ناحية من نواحى هذا الدين ، بحيث يكون كل واحد منهم عاملا فى ميدان خاص من ميادين الحياة العلمية والعملية والدينية ، فان كلمة (من) هنا فى الحديث هي للجمع لا للمفرد كما قال الذهبى ، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر ، وأقول بأن حمل تأويل هذا الحديث على هذا الوجه هو أولى وأشبه بالحكمة والمعقولية ، ولهذا نرى بعضهم يختلف مع غيره فى ذكر أسماء المجددين وعددهم فى كل قرن ، فمنهم من يضيف أسماء بعض الخلفاء الممتازين كعمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد ، والخليفة المسترشد ، والمقتدر ، والقادر ، والمأمون وغيرهم ٠٠٠ وفى هذا اشارة منهم الى أن الغرض من وجود المجدد هو حدوث جماعة من كبار المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم ويحفظونه عليهم فى أقطار الارض ، وهذا يرجع الى اختلاف أنظار العلماء فى نوعية التجديد والمجددين ٠

وقد يوجد المجدد فى أكثر من مائة سنة وقد يكون فى أقل من ذلك ، فليس

من الضروری تحدید المائـة بالوزن أو الكيل ، أو تكون المائة سنة هجرية أو غيرها، وانما فائدة الحديث بيان الفكرة، والفكرة فی حـد ذاتهـا وجيهـة ، لان التشريع دائما يتغير بتغير الزمـــان والمكان واختـــلاف العـادات والعـرف والتقاليد ٠٠٠ فعن عبد الله بن عمـرو ابن العاص قال : ما كان منذ كانت الدنيا رأس مائة سنة الا كان عند رأس المائة أمـــر ٠

ولا يخفى كيف تطورت افكار أصحاب المذاهب الكلامية ، وقـل مثـل ذلك فى الفقه ، فان لنا فی علم الفقه أمثلـــة كثيرة من هذا النوع ، فقد قال الفقهاء قديما في باب الخيار : انه يسقط حـــق الخيار للشخص ـ المكارى أو المشتـرى اذا رأى غرفة واحدة فى البيت ، لان الغرف كانت متشابهة فى الشكل ، وبعد ذلك اختلفت البيوت والمنازل كما اختلفت الحجر والغرف فيها ، فأصبح لا يسقط حق الرجل فى خيار الرؤية الا اذا رأى الغرف كلها لاختــلاف هندسة الغرف وتغير فن المعمار ٠

وكما يروى عن أبی حنيفة انه كـــان يقول : من غصب ثوبا وصبغه أســـود فقد قلل من قيمته ، وكان أبو يوســـف يقول : من غصب ثوبا وصبغه أســـود فقد زاد قيمته ، والسبب فى ذلك اختلاف الزمان والبيئة ، لان الدولة العباسية اتخذت السواد شعارا رسميا لها ، وكان من خالفهـا يبيض ، أي يلبس البياض فارتفع بذلك سعر الملون باللون الاسود، والعلة عندهم كما يقولون تدور مــــع المعلول وجودا وعدما ٠

وهذا الامام الشافعى نفسه له مذهبان مذهب قديم لما كان فى العراق ، ومذهب جديد لما حضر الى مصر، وما ذلك الا لاختلاف البيئة بين العراق ومصر، فبيئة العراق غير بيئة مصر، وهكذا ٠٠٠ وهذه فى الاحكام بشروطه ٠٠٠

ونظرا الى هذا التغييـر المستمر فى الحياة وجب أن نأخذ فى التشريع الجديد بنظام التجديد السليم، ذلك التجديد الذى يحقق لنا العدالة الحقة ويتحقق معـــه ما جاءت به الشريعة الاسلامية مـــن مباد سامية وأغراض نبيلة ٠

وقد لقيت فكرة التجديد هذه عنـــد القدماء عناية كبرى ، فاهتم بها كبـار العلماء فألفوا فيها كتبا نفيسة ومنظومات مفيدة كما نظمت متون العلوم ، فكـــان منها كتاب (التنبئة ، بمن يبعثـه اللـه على رأس كل مائة) للجلال السيوطى ، كما ان له نظما فى الموضوع تحت اسم (تحفة المهتدين فى بيان أسماء المجددين) وعلى هذا النظم شرح للمراغى الجرجاوى أسماه (بغية المقتدين ومنحة المجدديـن على تحفة المهتدين) ٠ وقبلهما وضـع الحافظ ابن حجر كتابه (الفوائد الجمة، فى من يجدد الدين لهذه الامة) ٠ وفيها يجد القارىء والباحث ذكر أسمـــاء المجددين على رأس المآت خلال هـــذه القرون الاربعة عشـر التى عاشهـــا الاسلام ٠

واذن فان فكرة التجديد هذه هي فكرة قديمة اختمرت فى أذهان العلماء منذ عصر مبكر يرتقى الى زمن خير القرون وهي فكرة تحقق لنا ما أراده الاسلام لنفسه من عالميته وشموله وخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان ٠

وبعد ٠ فماذا يراد من معنى التجديد فى الدين ؟ ٠٠٠

لقد وضع العلماء لتعريف التجديد بمعناه العام جدا فقالوا : هو مرونة العقل لاحلال الاوضاع الجديدة محل الاوضاع القديمة ، أو هو تعديل القديم ليتفق والجديد ٠ اما فى حدود معناه الاصطلاحى الشرعى – وهو الذى نقصده فى مقالنا هذا ، فهو احياء السنة واماتة البدعة ٠ وقالوا فى تعريفهم للمجدد : هو الذى يذب عن السنن وينفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب ، ويعلم الناس أمر دينهم فيحيى ما اندرس ، فالتجديد عندهم حينئذ هو الرجوع الى المعين الاول للاستقاء منه ، وهذا يعلم من تتبع تراجم وأخبار المذكورين فى تعداد المجددين وسيرهم ٠٠٠

وبهذا الاعتبار يجوز لنا أن نضع الى جانب التجديد أو نقول هو من قبيل التجديد، هذه الحركة الاصلاحية الحديثة التى نادى بها ولي الله الدهلوى (1176هـ) فى الهند، ومحمد بن عبد الوهاب (1202هـ) بالحجاز والسلطان المولى سليمان بن محمد بالمغرب الاقصى (1148 هـ) ٠ والشيخ اسماعيل التميمى (1248 هـ) بتونس ، ومحمد بن على السنوسى الجزائرى (1276 هـ) ، وجمال الدين الافغانى (1315 هـ) بالمشرق ، ومحمد عبده (1323 هـ) بمصر ، وعبد الحميد ابن باديس (1359 هـ) بالجزائر ، ويدخل فى مفهوم معنى التجديد مثلا ما قام به الشيخ المراغى (1364هـ) من العمل فى ميدان اصلاح الاسرة وغيرها بمصر ،٠٠ فكل هذا يدخل ضمن مشمول معنى التجديد فى الدين الذى أشار اليه الحديث النبوى الشريف ٠٠٠ كما ينطبق اسم المجددين على هؤلاء فى العصر الحديث ٠

فالتجديد هو كما نرى يحقق لنا استمرار حيوية الاسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ومسايرته للتقدم والرقي على مر الملوان ، فالى التجديد الى التجديد أيتها النخبة الرشيدة ، ولا سيما فى فروع المعاملات المبنية على مصالح كانت تليق بزمن مضي ولا توافق الزمن الحاضر ، فدينكم دين الفطرة ، ومن معانى الفطرة الخلق والابتداع والاختراع ، وان فيما وضعه لنا العلماء من القواعد العامة الهامة فى التشريع **مثل النظر فى المصالح المرسلة ، وفى القياس ، والنظر الى العرف والاستحسان والاستصحاب، وقاعدة الحضر والاباحة،** وأحكام الضرورة ، وقولهم ما ضاق شيء الا واتسع ، كما يقول الشافعى ، الى ما هنالك من مواقف للشريعة جاء فيها فتح باب الذرائع لا سده – وذلك نظرا لما يترتب على سده من الضرر

وعلى فتحه من النفع ، وحيثما كـانت المصلحة فيما لا يعارض النص أو تعاليم الاسلام ومباديه العامة فثم حكم الله ، **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه** (البقرة ، 173) الخ ··· ففي هــذا متسع رحب ومجال فسيح للتجديـد ، فلنسر على ضوء هذه المبادى الاسلامية السامية حتى لا نضطر الى استعـارة أو استيـراد قوانيـن وأحكامـا أجنبية عنـا ودخيـلـة عـلـى ديننـا فنعـود بهـا الى الخضـوع الى سيطـرة الاستعمار بأنفسنا ، **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** ، وفى ذلك اعراض منا عن الشريعة الاسلامية والفقه الاسـلامى الثرى ، **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهـم حرجا ممـا قضيت ويسلمـوا تسليمـا** · (النساء ، 65) ويكفى لمعرفة ما للتشريع الاسلامى من منزلة رفيعـة وفضل عظيم على قوانين وشرائع العالم أجمع ان نسمع لقول حجة الفقه المقارن وعمدة علم الحقوق بأوروبا فى العصر الحاضر، وهو الاستاذ (ادوار لامبير) حيث يقول لتلامذته :

« ان لديكم فى الفقه الاسلامى كنزا مخبوءا ينتظر من يجلوه لعالمنا المعاصر ليهتدى بهديه ، ويسترشـد بمنطقه فى الحيرة المدلهمة التى أعجزت عالمنا الآن على التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وصرفته عن التوفيـق الحكيم بين مصلحة الفرد ومصلحـة المجتمـع » ·

ومليحـة شهدت لها ضراتها
والفضل ما شهدت به الاعداء

وانتهز هذه الفرصة لالفت نظر أولى الامر منا، (هنا عندنا فى الجزائر) الى انه لم يبق لنا من أحكام شريعتنا الاسلامية الغراء داخلا فى حيز التطبيق الا مسائل طفيفة من أحكام الاحوال الشخصية ، أو ما يعبر عنه بقانون الاسرة ـ ولا حول ولا قوة الا بالله ··· **وانا لله وانا اليه راجعون** ! ··· فالله اللـه فى بقيـة الباقية فلا تتركوها لتعبث بها يد التخريب والتشويه ، فكلكم راع وكلكم مسـؤول عن رعيته · (**وقفوهم انهم مسؤولون**) الصافات آية 24 ·

كما أغتنم ثانيا هذه الفرصة السعيدة لاقدم لاخوانى فى الانسانية عامة بمـا فيهم من مسلمين وغيرهم أجمل وأبرك التهانى الحارة بمناسبة حلول هـذا القرن الخامس عشر الهجرى ، ألهمنا الله فيه الى الرشد والصواب ووفقنـا الى ما فيه الخير والصلاح :

حاجة البشرية الى التشريع السماوى

الاستاذ عبد الرحمن الجيلالى

بسم الله الرحمن الرحيم ،

وصل اللهم وبارك على نبينا ومولانا محمد النبى المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات وأزكى التسليم ·

أتقدم بالشكر الى هيئة المركز الثقافى الاسلامى · حيث انها لاحظت فىأخيكم هذا حسن ظنها وانه يلقى محاضرة ، اسمتها محاضرة وجعلت الموضوع دينيا باقتراح منها ، وان شاء الله نكون عند حسن ظنها ·

فنقول بعد البسملة والحمدلة ، كما أشار الاخ الكريم ، مقدم هذه المحاضرة بالعنوان الذى سمعتموه وهو : (حاجة البشرية الى التشريع السماوى) ·

فيقال أيها الاخوة الكرام ، وان العقل البشرى هو أعظم ما منح الانسان فى حياته ، حقا وهو أجل ما تكرمت به الخليقة الالهية (الخلقة الالهية) على هذا النوع البشرى وانه ورد فى فضله، وفى شرفه ومدحه ، من أقوال الحكماء والعلماء والفلاسفة · والانبياء والمرسلين ما ورد من نصوص وثيقة ، وأقوال صحيحة · حتى انهم قالوا فى العقل · هو منبع العلم ومصدره وأنه أساس العلم ، وهو الوسيلة الى سعادة الدنيا والآخرة ·

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابى الدرداء رضى الله تعالى عنه « ازدد عقلا تزدد قربا » · وقالوا « لو صور العقل لاظلمت معه الشمس » · هذا حق وصدق ، نعم هو كذلك ، فالحمد لله على نعمة العقل ، ويكفى فى التنويه بشرفه والتنويه بفضله أن نوه به القرآن الكريم ، وكان العقل هو مناط التكليف من الله جل جلاله · بالخلافة لعبده فى أرضه ، ولكن ما هو العقل ؟ وما هي ما هيته ؟ وما حقيقته ؟ لقد ذهب العلماء فى تعريف العقل مذاهب ، وعرفوه بتعاريف شتى وتتلخص هذه التعاريف وهذه الاقوال فى كلمة جاء بها ، التهامى (وهو صاحب كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » جمع هذه التعارف ، فى تعريف واحد يشتمل على جوهر ما عرف به العقل فقال « العقل غريزة للنفس ، تتمكن بها من ادراك الحقائق ، والتمييز بين الامور

(*) محاضرة القيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالجزائر العاصمة بتاريخ 1979/06/11م.

الحسنة والقبيحة وهي تزداد قــوة بالتجارب ، وتستنبط بها المصالــح والاغراض ويحصل بها الوقوف عــلى العواقب » ٠

ولكن مع هذا كله ومع المدح الذى ورد فى العقل فى التنويه به والتعريف بـه وغير ذلك مما ورد فيه من نصــوص نبوية ، وآيـات قرآنيــة ، وأقــوال فلسفية ، ٠٠٠ الخ ٠

مع هذا كله نجد لهذا العقل ، نجد له حدودا ونهايات ، ينتهى عندهــا ٠ ويقف دونها ، فلا يتجاوزها الى مــا وراء ذلك ٠ بل يلتجىء العقل نفســه الذى قيل فيه ما قيل حتى انه قيــل « لو صور العقل لاظلمت أمامه الشمس» يلتجىء فى التلقين والتعليم ويلتجىء الى الاسترشاد والاستزادة من الغيب ، اذ غير خاف عليكم أيها السادة ، وعلى كل ذوى البصائر وعلى كل منصف سليم التفكير ، غير معاند ولا ممــارى ولا متعصب ، لا يدركها العقل ، ولا يدركها الانسان بعقله ، ولو بلغ ما بلغ مــن شدة الذكاء والفطانة ، هناك أشيــاء لا تدرك لا بالحواس ولا بالتمييــز ولا بالعقل ، وانمــا طريقهــا التعلــم ، والاسترشاد وهناك طريق آخر يســمى بالجوهر وهو غير العقل ، فالعقــل مهما بلغ كما ذكرنا من اتساع الافق ، وهو قليل العناء فى كثيــر من المواطــن المهمة ، كثير العناء المعضلات المدلهمة ، فالعقل ان عرف شيئا غابت عنه أشياء ٠

قل لمن يدعى فى العلــم معرفــة
غلمت شيئا وغابت عنك أشيــاء

أو كما قيل لطالب علم النجم وعلــم الفلك ، ما قيل :

ولابد من شيخ يريك شخوصهــا
والا فنصــف العلم عندك ضائع

لا نكران فحاجة الانسان الى العقــل ضرورية ، لادراكنــا الاشيــاء ولتعقل الاشياء ، غير أننا نراه لا يكتفى بهــذا الادراك لامتــلاك الملكة وللسلامة وليؤمن الخطــأ ٠

فالعقل الملتبس به البدن ، أو البدن المتلبس بالعقل ، اذا نظرنــا اليـه الى صاحب هذا البدن الى الشخص المتلبس بالعقل نجده يجهل حتى مصالح نفسه، ومصالح ذاته وتسيير نفسه وشخصيته، لا يحسن كيف يعالج نفسه ، الا باكتساب ذلك من أهل المعرفة ، لمعالجة الاجسام ، ومعرفة العقاقير من الاطباء ، وهــذا لا يدركه بحواس الانسان ولا يدركــه بعقله ولا بذوقه ولا بتمييزه ، وانما يضطر للسؤال والاستفادة من الغير والاستعانة بالغير ، ان كان أعقل العقلاء ٠ فالعقــل كما نراه مجردا لا يغنى صاحبه ، ولا ينقذه من التهلكة ، بل قد يقع فى التهلكة وهو لا يدرى ، ويكفى لاستدلال عــلى قصور العقل وعدم غنائه بسلوك طريق النجاة أننا نجد هذا الانسان العاقــل يجهل حتى نفسه يجهل ماهيتها يجهــل روحه وحقيقتها ، لا أدرى فاذا كــان الانسان الكامل العاقل ، التام الحواس

والادراك والتمييز نراه حائرا فى معرفة نفسه التى بين جنبيه ، يتخبط أحيانا فى البديهيات ، فلماذا يقع الحبل على الغارب ؟ فاذا بالحبل على الغارب فى الغيبيات ، وفعلا لا نرى أيها السادة والسيدات · أن فى استعمال العقل والاستبداد به لتقويم معيشة الانسان القصيرة فى هذه الحياة الدنيا ، لا يكفى للاستقامة على المنهج القويم ، بل نجد أنفسنا مضطرين الى التعلم والاسترشاد والاستشارة والاستعانة بالغير ممن قضى منهم الازمنة والاعصار فى تقويم الانظار ، وتعديل الافكار ، وتثقيف الاذهان ، ووضع قوانين لحفظها · ومع هذا كله نجد من بين العقلاء ، من يقوم على ما وضع من شريعة العقل فيزعم أنه أرفع من واضعها وأعلم بالمصلحة من غيره · فيذهب بالناس مذهب شهواته ، فتذهب حرمة تلك القوانين وتتهدم عن القوانين الوضعية ، تذهب حرمتها ، وبناؤها ، ويفقد ما قصد بها ولوضعها ·

فها نحن أيها السادة والسيدات لا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا نتخبط فى المشاكل تتجدد وتتعقد فى كل حين وآن ، فلا ندرى ولا نعرف بطريق العقل المجرد ، متى ، ولا كيف الخلاص منها بسلام ؟ فنحن لا نزال فى شوق ملح ، وتلهف الى طمانينة واستقرار نفسانى ، تسكن اليه خواطرنا وتطمئن اليه قلوبنا ذلك لما نجده فيما اذا عولنا على الاعتماد في الاهتداء على العقل البشرى وحده وجدنا أمامنا تفاوتا عظيما ، وأعنى بهذا التفاوت ، ما هو موجود من تفاوت الناس فى الادراك ، وفى العقل وفى التمييز واختلافهم فى النظر والتفسير نظرا لاختلاف الغرائز وما فطر عليه الخلق من تفاوت درجاتهم فى تسليط على قمع الشهوات البهيمية ، وما يجد الانسان مع ذلك من قوة وضعف فى الفهم والادراك أو ما يقارب الفهم والادراك فيوافقه أو يخالفه ·

أيها الاخوة الكرام ــ لقد ثبت فى تاريخ العقيدة الدينية أنها ترجع فى العهد القديم وفى عهدها الاول الى نحو ثمانية آلاف سنة مضت أي منذ شعر هذا الحيوان المفكر بالقوة العاقلة وهو الانسان ، منذ شعر بأنه مغلوب بقوة غيبية هي أرفع من قوته ومغلوب القوة ما أنت منها بغلبتها عليه مما حوله ، وشعر بأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه ربما لا يعرفها حق المعرفة ، ولا تتطرق اليها ارادته ، فذهب هذا الانسان حينئذ الى التفكير ، والى البحث عن هذه القوة التى تسوقه الى مستقبل يجهله ، فتصورها بعضهم فى الحيوانات ولا أدرى لماذا تصورها فى الحيوانات ؟ ربما لكثرة نفعها أو لكثرة ضررها ومنهم من تمثلها فى بعض الكواكب ، فعبدها وهي على ذلك لظهور أثرها ، ومنهم من تصورها فى الانهار والاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها، ومنهم من تمثلت له هذه القوى فى آثار القوى مختلفة فى أنواع متفرقة، تتمثل فى أفراد من كل نوع وتتخالف

بتخالف الانواع فجعل لكل نوع الها ، فكان هناك اله للظلمة ، واله للنور ، واله للمطر ، واله للبحر ، واله للريح ، و ··· الخ ·

ومنهم من قدس الحيوانات كالصقر مثلا والنسر والقط والتمساح والبقر ، كل هذه عبدت على انها آلهة على انها قوة غيبية متسلطة على الانسان فى حياته ، ولا تزال الى يومنا هذا تعبد ، يعبد الحيوان وبالاخص فى الهند الذين لا يزالون يعبدون البقر ، ومنهم من أله الاشخاص وكان العرب فى الجاهلية أنفسهم قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم ، يذكرون الله على ألسنتهم ويسمون أبناءهم - عبد الله - ومنهم والد النبى صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله ، ويسمون تيم الله (والتيم بمعنى المستعبد وهو عائد الى عبد الله) لانهم يقولون عبد الله ، أو تيم الله ، وهم مع ذلك يعبدون الاوثان والاصنام ، ويقولون « لا نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ويقول عنهم القرآن الكريم « **ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله** » وهم فى حال الجاهلية وما يعنون بقولهم « الله » ؟ يعنون من قولهم الله هو من كانت له القدرة على خلق ما ذكرتم ، من خلق السموات والارض ، هو الله ، من سخر الشمس والقمر هو الله ، يعنون صاحب هذه القوة فقط ، فهذا الشعور بهذه القوة الغيبية كاف فى الاستدلال به على ان البشرية فى حاجة الى تشريع سماوى · ولو فرضنا وان هناك من البشر من يصعد بقوة عقله وتدبيره الى أعلى مراتب الملكوت معتمدا على ما أوتى من العقل وحده ، فاننا لا نجده الا مخطئا · مخطىء فى اصابة عين الحقيقة فى كثير من الاشياء وما ذلك الا لعجزه على التسلط والتغلب على القوة الطبيعية الكامنة فى نفسه ، مع ما فى نفسه من نزعات الاهواء عن العقل ، الا ما شذ من الخلق · فمن أجل ذلك وبسببه - أيها الاخوة الكرام - قلنا بحاجة البشرية الى دين سماوى وان العقل البشرى لا يكفى بالاهتداء الى الصواب ، فلابد لمن يأخذ بيده الى كل ما هوضرورى لهذا الانسان البشرى لصاحب العقل له على ما فيه الهناء والسعادة · واذا أسلمنا بأن ما يراه عقل المرء هو وحده حق وعدل ، وهو كاف لاستقامة أحوال الانسان وانتظام شمله ، فانه فضلا عن تفاوت العقول ، وتضارب الافكار ، واختلاف الانظار ، فان الناس لا يرضون بحكم عقل عاقل ، لا يجمعون عليه ، وذلك لاختلاف أهوائهم واختلاف مراتب ادراكهم وغلبة الشهوات عليهم ، واختلاف النظر والغرائز فيهم فتضطرب آراؤهم ، فيما هو الصالح وما هو الاصلح ، ولما ركز ورتب فى الانسان من مزاج الميل الى مواقف الخير وباعث الشر ، فالانسان مفطور على ذلك ، واذا

كان هذا لانسان العالم ، المفكر ، والحكيم العاقل ، لا يزال يغتال الحقوق ويظلم من هو أضعف منه ، ولم يهتد الى الصواب ، فكيف يكون الحال ؟ اذا ألقى الحبل على الغارب ، ووكل أمر هذا الانسان الى نفسه أو الى عقله ، عقله الشهوانى وغريزته الحيوانية ماذا يقع ؟

لا شك وانه يلقى بنفسه الى التهلكة ، ويتدهور فى مهاوى الضلال ورحم الله من قال :

والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفة فلعلة لا يظلم

اذن فالعقل البشرى هو محتاج ضرورة الى نبراس يضىء له الطريق حتى يصل الى غايته سالما من كل الاخطار والآفات · ومن كل العثرات ، وهذا النبراس ما هو ؟ هو الشرائع السماوية التى جاءت بها الرسل عليهم سلام الله ، هو العقل ·

والعقل أيها الاخوة · وان كان يدرى ويعلم بفطرته بعض ما يهديه الى ما فى الحياة من خير أو شر · فانه على كل حال ، لا يدرك ذلك على حقيقته ، ولذلك نراه لا يتفق مع غيره ، فشملته العناية الربانية ، فأرسلت اليه الهداة يرشدونه ويهدونه الى سواء السبيل ، وليس معنى ذلك أيها الاخوة الكرام ان العقل بعيد عن الشرع ، أو هو مخالف للشرع كلا ، ثم ألف كلا · بل هما العقل والشرع متضافران فالعقل كالاساس والشرع كالبناء ، ولكن لا يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولا يثبت بناء ما لم يكن أساس، ولا يخفى أن كل تكليف بشرط العقل ورضي الله عن الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث يقول :

« رأيت العقل عقلين ، فمطبوع ، ومسموع ، ولا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوع ، كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع » واذا تأملنا أيها الاخوة ، خلقة أنواع الحيوان مطلقا الناطق منهم وغير الناطق ، ظهر لنا واضحا جليا ، أن فى الحيوانية ميلا عظيما الى الشر ، أو توقعا للشر أكثر من الخير ، والذى ينبؤنا على ذلك هو ما تظهر عليه الحيوانية أو الحيوان مطلقا فى خلقته الطبيعة من سلاح حاد ، فمن يومه الاول الذى يوجد فيه يولد الحيوان بسلاحه، فصاحب القرن يولد بقرنه ، وصاحب المخلب يظهر بمخالبه الجارحة ، ويظهر بأظافره الفتاكة وأنيابه القواطع ، وذوات منقار بمنقارها الحاد ، وذوات الشوك بشوكها المؤلم · وذوات السم الزعاف تولد كذلك بسمومها القاتلة ، نعم وان كان الاصل فى هذه الاشياء أو هذه الانواع من السلاح انما هي خلقت لدفاع أصحابها عن نفسه ، ولكنه يستعمل سلاحه هذا ، فى ظلم غيره فيتعدى به القوى على الضعيف ، ومن الحيوان هذا الانسان العجيب ، وما أدراك ما الانسان ! فهو ذلك الحيوان الناطق وليس معنى الناطق ، كما يفهم بداهة ،

معنى النطق أو الكـلام ، أو التلفـظ بالكلمات ، لا · فانما نعنى بالناطق هنا، المصطلـح عليـه فى علـم المنـطـق ، والمناطقة اذا قالـوا حيـوان ناطـق ، يعنون به المفكر بالقوة العاقلة فهـذا هو الحيـوان الناطـق فى اصطـلاح المناطقة ، وهو الذى نعنيه ، فهـذا الحيوان الناطق يمتاز عن بقية أنواع الحيوان كله بكونه متعدد السـلاح ، ليس له سلاح واحد كبقية الحيوانات ، بل هو متعدد السلاح ، فهذه يده الـتى يبطش بها وهذا لسانه وهذه سيوفـه وحرابه ، ومدافعه وهذه بنادقه وهـذه أساطيلـه وغواصاتـه وصـواريخـه متفجراته وما فى حكمها من مدمـرات الحصون ومدكدكات القلاع وهذه ··· الـخ · أضف الى ذلك كله نفسه الامارة بالسوء.واذا قارنا بين أسلحة الانسان هذه ، وبين بقية أنواع أسلحة الحيوان الاخرى الطبيعية ، كان سلاح الانسان طبعا هو أشد فتكا وأعظم خسارة ومع هذا كله فلا يزال الانسان مستمرا ، فى استنباط الحيل ليتمتع وان لم ينفـع ، ويغلب عليه ذلك ، حتى انه ليخيل اليه أنه لا ضير عليه ولو انفـرد وحـده بالوجود عمن يطلب مغالبته ، وكلما لاح له النفع لنفسه فتح لفكره بابا من الحيلة، وهيأ له وسيلة لاستعمال القوة ، وعند ذلك يقوم التناهب مقام التواهب ، ويقوم الشقاق محل الوفاق ، ويثور الضابـط لسير الانسان اما الحيلة واما القهر ، فهذا هو شأن الانسان فهو دائما يجرى في حلبة سباق التفكير فى ابتداع وفى اختراع أفتك سلاح ليقضى بـه عـلى غيـره ، وصدق الله العظيم « **قتـل الانسان ما أكفره** » ·

ومهما ذكر الانسان فى القـرآن الا وكان متبوعا بالذم والسخط ، فهل من حكمـة أيهـا الاخـوة الكـرام ؟ كهـذه الحكمـة ، ليدرك هـذا الحيوان المفترس مهلة ، كلا والله · اذن فكـان من المعقول أن يسوسه سائس ويروضه مروض ، فلعل هذا السائس يحد مـن شوكته ويلطف من شدته · أو عـلى الاقل يشذب مـن جبروتـه وطغيانـه ، تطاوله على أبناء جنسه ، فكان هـذا الانسان لهذا محتاجا ، بل فى أكثـر الحاجة الى تشريع سماوى ، فأقام له الدين من أفراد جنسه مرشدين هادين ، وميزهم من بين أفراد المجتمع البشرى ميزهم بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها غيرهم وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخزى الطامع ويذل الجامح ، وليصدم بها عقل العاقل فيرجع الى مستواه ويرجع الى نفسـه هؤلاء هم الذين يطرقون القلوب بقوارع وينبهر لها بشر الجاهل فيرتد عن غيه بأمر الله ، ويدركون المدارك بظواهـر من آياته فيحيطون القول بما لا مندوحة عن الله ، وأولئك هم الانبياء والمرسلون عليهمسلام الله ·اذن فبعثة الانبيـاء صلوات الله عليهم من متممات تكوين الانسان والانسانية · اذ يقول صـلى

الله عليه وسلم « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ·

فبعثة الانبياء والمرسلين من متممات الانسانية ومكارم الاخلاق والبشرية ، والانسان هو فى أهم الحاجة اليهم ، ومنزلة البعثة من النوع البشرى هي بمنزلة العقل من الشخص هي نعمة أتمها الله على عباده لكي لا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل، ولنأخذ بذلك مثالا أيها الاخوة الكرام مثلا هذه العملة المالية النقدية نقول السكة الذهبية والفضية · ففى الشرع الاسلامى الكريم ، المنع البات من اختزانها من غير اعطاء بعضها للفقراء والمساكين ، ومن ذكرهم القرآن الكريم، من غير اعطائها لمن تصرف اليهم من الفقراء والمساكين وما عطف عليهم ممنوع ، لقد منع الشارع من ذلك ، كما يمنع الاسلام من اتخاذ الاوانى من هذه السكة من هذه النقود من هذه العملة أو هذا المعدن ·

فاتخاذ الاوانى من الذهب والفضة للاكل والشرب ممنوع شرعا ، كما يمنع الاسلام بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة بزيادة هذا ممنوع فى الاسلام فاذا قيل لانسان لاتأكل ولا تشرب فى أوانى الذهب ولا فى أوانى الفضة أو لا تتخذ منهما آنية والا تعاقب ، ماذا يقول ؟ · يقول أنا أتصرف فى ملكى ولا ينازعنى فيه أحد ، فكيف أعاقب على التصرف فى ملكى ؟ يقول هذا خارج عن العقل لانه لا يدرك السبب فى ذلك ، واذا قيل له ليس بيع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة بزيادة والا تعاقب ، قال أنا أبيع وأشترى برضى واختيار منى ورضا صاحبى الذى أعامله ولولا البيع والشراء لخربت الدنيا وتعطلت المنافع هذا شىء خارج عن العقل كيف لا أتعامل بالذهب والفضة ، وكلامه هذا صحيح فى بادىء الرأي كما يقال :

على وجه حي مسحة من ملاحة
وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهو لا يدرى يقول هذا خارج عن العقل ، لان العقل غير مدرك لذلك ، والا لماذا وجب العقاب ، فكيف أعاقب ؟ فيحتاج اذن العقل من وجود من يرشده ويدله على السر فى ذلك فيقال له : ان الحكمة التى نجدها فى وجود الذهب والفضة بين أيدينا · هي الحياة بهما ، فهما فى حد ذاتهما حجران ، معدنان ، لا منفعة فى أعيانهما اذ لا يردان حما ولا بردا · ولا يغذيان جسما ، والخلق كله محتاجون اليهما وذلك أن كل انسان يحتاج الى أشياء كثيرة هي مزدرية له فى حياته وفى معاشه ضرورية له فى حياته اليومية وهو محتاج الى مطعمه والى ملبسه والى مسكنه وقد لا يملك ما يحتاج اليه فى حياته ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك مثلا حصانا وهو فى حاجة الى البر (القمح) والذى يملك البر قد يستغنى عنه وهو محتاج الى الفرس ، فلابد حينئذ من معاوضة صاحب الفرس ، فرسه هكذا بكل مقدار ولابد من تقدير العوض اذ لا يعطى

من البر ، بقليل أو بكثير ولا مناسبة بين البر والفرس حتى يقال يعطى له مثل هذا الوزن ، أو الصورة لا مناسبة بينهما ، فلا يدرى ان الفرس كم يساوى بالبر فتتعذر المعاملة بين الناس فى هذا المثال وفى أشباهه . يحتاج الانسان الى متوسط يحكم بينهم بالعدل وكان الواسطة فى ذلك الذهب والفضة ، فكانا هما الحاكمين بين الناس فى جميع المعاملات فيقال هذا الفرس يسوى بما قدره مئة دينار مثلا . وهذا المقدار من البر يسوى بمثله فيقع التبادل بالمقابل بهذا المعدن . وان النازع ما دعى الى التعديل بين الذهب والفضة لانه لا غرر كما قلنا فى اعيانهما وانما خلقا لتتداولهما الايدى ويكونا حاكمين بالعدل ونسبتهما الى جميع الاموال نسبة واحدة .

فالذهب والفضة لا غرض فيهما وهما وسيلتان الى كل غرض ، فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكمة التى خلقا لها أنه يعاقب من طرف من أقامهما حاكمين بين الناس .

لماذا هذا العقاب ؟ لان الاستعمال وقع فى غير محله ووقع من المستعمل خروجا عن الحكمة التى خلق لاجلها بل أبطل الحكمة ، فعلى هذا وهذا هو مناط التكليف والعقاب وكان هذا الانسان المستعمل للذهب والفضة فى غير ما خلقا لهما كان كمن حبس الحاكم أو القاضى الذى يفصل بين الناس ويرفع الخصومات حبسهما فى سجن يمتنع على الحاكم ، الحكم بين الناس بسبب سجنه لان صاحب المال كنزه وادخره فقد ضيع وعطل سير التعامل بين الناس فكأنه سجن الحاكم ، وسجن القاضى فى فصل الخصومات بين الناس فاستحق لذلك العقاب ولا شك ان العقل اذا عرف هذا حكم بأن ادخار الذهب والفضة عن الناس ظلم واستحسن العقوبة عليه لان الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئا هملا ، ولم يخلق شيئا للضياع وكذلك نقول مثلا من اتخذ آنية الذهب والفضة للاكل والشرب فهو ظالم وكان أشر من الذى كنزهما وادخرهما ذلك لان مثال هذا مثال من جعل حاكم أو طبيب البلد جعله جزارا أو بقالا فى أي عمل من الاعمال التى يستطيع أن يقوم بها الناس ، بخلاف الطب مثلا أو الحكم والفصل بين الناس لا يقوم بهما الا المختصين المتخصصين فى ذلك من الاطباء والفقهاء فمن النحاس مثلا أو الرصاص أو الحديد أو الفخار أو الطين أو القصدير أو غير ذلك ، كل هذه الاشياء تنوب عن الذهب والفضة فى تكوين هذه الآنية وفى استعمالها كآنية ، تنوب عن الذهب والفضة وتقوم مقامهما ، ولا تقوم هذه المعادن فى التعامل بين الناس ، يعنى القصدير أو الفخار لا تقوم مقام الذهب والفضة فى الفصل بين الناس فى نوازلهم انما يقوم بذلك الذهب والفضة ، ولا القصدير ولا النحاس ولا الرصاص يكفى للقيام بالمقصود الذى يراد من الذهب والفضة،

ولا شك ان العقل اذا عرف هذا لم يتوقف فى استحسانه ، واستحسان العقوبة عليه ، وكذلك نقول لمن باع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة بزيادة لذاتهما وهما غير مقصودين ، لانه باع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة ، فكأن مقصوده بالذهب والفضة لا غير ، وذلك خلاف للحكمة ، لان من عنده الثوب مثلا وليس عنده ذهب ولا فضة ، وهو محتاج الى طعام فقد لا يقدر أن يشترى طعاما بالثوب ، لانه يملك الثوب، فهو معدول الى بيعه بالذهب والفضة لا يتوصل الى مقصوده ، فانهما كما ترون وسيلتان الى الغير ، لا غرض فى اعيانهما فان من عنده ذهب ، فأراد بيعه بذهب أو فضة ، أو بيع الفضة بالفضة فانه يمنع من ذلك ، لانه يبقى الذهب والفضة مقيدين محبوسين عنده ويكون هذا بمنزلة الذى كنزهما ٠ وبمنزلة من قيد الحاكم كما قلنا ! أو الرسول المبلغ أو الموصل للحاجات فهو ظالم فلا معنى لبيع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة لان اتخاذهما مقصودين ٠

فاذا عرف العقل هذا أو عرف بهذا ، حسنه وحسن العقوبة فيه ، وكذلك نقول لمن يبيع الذهب أو الفضة بزيادة الى أجل ، كبيع عشرة بعشرين الى سنّة أو سنتين ، نقول لهذا ان مبنى الاجتماع البشرى ، وأساس الاديان هو استعمال ما يوجب المحبة ويوجب الالفة بين الناس ليحصل التناصر والتعاون والانسان اذا كان محتاجا ووجد من يسلفه ، فلا شك يتقلد ملة من أسلفه ويعتقد محبته ، ويرى ان نصرته واعانته أمر لازم له ففى منع بيع الذهب والفضة بزيادة الى أجل ابقاء لمنفعة السلف التى هي من أجل المقاصد، ولكن هذا السر ، فى منع لبس الذهب ، والفضة وتحريم اتخاذ الاوانى منهما ، ومنع التعامل بالربا فيهما ٠٠٠ الخ ٠

هذه الاسرار لا يدركها العقل وحده ومن تلقاء نفسه ، الا بالتعليم والكشف عن السر والتقويم والارشاد ، فاذا هدى اليه عرفه ٠

وهذا دليل آخر على شدة حاجة البشرية الى التشريع السماوى ٠ وهذا الذى ذكرناه أيها الاخوة الكرام هو عبارة عن جزئية فقط تبين لنا العقل البشرى وانه لا يكفى وحده فى طريق السعادة البشرية ، وان الشرع لا يخالف العقل ولكن فيه (فى الشرع الشريف) ما يهتدى اليه العقل الا بالتوضيح ، ونحن فى أشد الحاجة الى التوضيح ، والتوضيح جاءنا على يد الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه ، والانسان فى ذلك هو أشبه بالعليل الذى يصيبه الداء فى ناحية من جسمه يسعى فى معالجة ذلك الداء فى نفس المحل الذى وقع فيه الداء (المرض)، فاذا قيل له أن هذا الداء لا يعالج فى مكان كهذا انما يعالج فى عكس ذلك

المكان اذا كان فى أعلاه ربما يعالج فى أسفل الجسد أو فى ظاهره ربما يعالج من الباطن ٠

فالعاقل ربما يستبعد ذلك ويقول كيف ، الداء هنا عن اليمين وأنا أعالجه هنا عن الشمال أو كان فى الاعلى ويعالج من الاسفل أو العكس فهذا يستبعده العقل ولا يدركه فيقول هذا خارج عن العقل ولكن ، اذا عرفه الطبيب ، كيفية انسحاب العروق ومنابت الاعصاب المشتبكة بالبدن ، أذعن ، حينئذ يذعن العليل ، وعرف أن هذا لا يدرك بالعقل، وانما يؤخذ عنه أهله عن طريق التلقين والتعليم وكذلك سر التشريع وأيضا أيها السادة ، فان ما أجمع عليه الباحثون من علماء من موحدين ووثنيين وفلاسفة وغيرهم من الحكماء ، الا ما شذ منهم وهم قليل ، أجمعوا على أن للنفس البشرية بقاء ، تحيا به متى تحيا به ؟ تحيا به حالا وتحيا به بعد مفارقة البدن وانها لا تموت موت فناء ، لانها (النفس) خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية « **وقل رب زدنى علما** » حلقت مستعدة لقبول الاستزادة من العلم والاستزاده هذه من طرق عدة ، وانما الموت المحتوم ، هو كما قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه ، قال« الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء فقط » وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيم تكون عليه النفس بعد مفارقتها للبدن ، وقالوا : ان الانسان حين يموت لا يموت حقيقة ، ولا يتحول الى ماض اطلاقا ، وانما هو يستمر حيا على نحو جلي ، لا نستطيع نحن أن نرى ذلك وليس بامكانياتنا ما يحدد لنا ذلك أو نعرفه به ، ولكنه حي على أية حال» كما أجمع على ذلك العلماء والفلاسفة والحكماء من المسلمين وغيرهم ٠

وقالوا ان هذا العمر قصير ليس هو منتهى الانسان فى الوجود ، فاذا كان ذلك هو منتهى الحياة وكانت حياة الانسان لا تزيد على حياته الدنيا هذه فانها تكون مأساة لا يقبلها الضمير الانسانى ولا يرضى بها بل يثور عليها لانها مأساة مروعة حقا وتدعو الى القنوط وتخلق فى الاحياء منا من أراد الحياة ولو استقرت هذه المأساة فى ضمير ٠

الانسان ما شاد حضارة ولا عمر بناء لانها حياة تدعو الى النهاية والى اليأس وانما الموت ، هو عبارة عن تجرد الجسم لهذه الحياة التى يحياها ، ويتحرك بها أمام أعيننا ، يتجرد منها هذا الجسم ، فينزعها عنه ، كما ينزع ثوبه ، أو كما ينزع الثوب عن البدن فيما يكون حيا باقيا فى طور آخر ، والحياة ثابتة مستمرة ، يبقى حيا وان لم يدركه الانسان « **أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم** » ٠

والحرص على الخلود هو غريزة بشرية أشار اليها القرآن الكريم فى قصة خلق آدم عليه السلام فحكى لنا حكاية ابليس مع آدم اذ قال له « **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » ؟ وقال له « **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** » ٠

فغريزة الخلود هي طبيعة بشرية ، فكان ما كان من آدم وحواء بهذا الاغراء ٠

اذن فغريزة الخلود هي كما حققها الباحثون من العلماء والفلاسفة اسلاميين وغير اسلاميين ، هي طبيعة أو غريزة مركزة فى الانسان ، وأصيلة فى الطبيعة البشرية ،ولا تسمح الشخصية البشرية أو الشخصية الحية بهذه الحياة المحدودة التى تنتهى بالفناء المطلق ، هكذا ٠ نعم ، هكذا اتفقت كلمة العلماء والحكماء على اختلاف مللهم ونحلهم وعقائدهم ، الا ما شذ منهم وهم قليل ولهم على ذلك أدلتهم وبراهينهم المسطرة ، فاذا تحقق هذا فيا ترى من يحدثنا عن هذه الحياة المستمرة الخالدة ٠ الباقية ؟ كيف السلوك اليها ؟ وكيف السعادة بها ؟ ٠

وهذا ما حدثنا عنه أولئك الانبياء والمرسلون الذين جاءت معجزاتهم مصدقة لما جاءوا به من خبر السماء ٠ فكان البشر بذلك فى حاجة الى الرسل ٠

وهذه الفكرة أو العقيدة أو الحاجة الى ارسال الرسل وعقيدة حاجة الانسان الى التشريع السماوى هي عقيدة اسلامية ، قال بوجوبها عقلا عن الله عز وجل جميع الفلاسفة وطائفة المعتزلة معهم ، وبنى قول الفلاسفة هذا ، وهو كون ارسال الرسل للتشريع هو واجب عقلى على الله جل جلاله وعز سلطانه وملكه ، دليلهم فى ذلك ومبنى كلامهم هذا على قاعدة التعليل والطبيعة ، ذلك لانهم يقولون يلزم من وجود الله ، وجود العالم بالتعليل أو بالطبع ، كما يعتقدون ويلزم لوجود العلم ، وجود من يصلحه، فكان ارسال الرسل عندهم واجب على واجد الوجود ٠ أما المعتزلة فيبنون قولهم هذا وان كانوا متفقين مع الفلاسفة وانما مبنى عقيدتهم ٠ وقولهم هذا على غير مبنى الفلاسفة فان مبنى كلام الفلاسفة هو على قاعدة وجود الصلاح والاصلح ، وانهم يقولون النظاميؤدى الى صلاح النوع الانسانى على العموم فى المعاش والمعاد ، لا يتم النظام الا ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ما هو كذلك وهو واجب على الله ، تعالى الله عن ذلك ، فهم يعتقدون الوجوب العقلى ، والفلاسفة مثلهم ٠

أما أهل السنة فيخالفونهم فى ذلك وانكانوا يعتقدون بأن ارسال الرسل هو واجب ، غير أن الواجب هنا عند أهل السنة ، هو واجب لا عقلى ، وليس بواجب وانما هو جائز ، أهل السنة

يخالفونهم فى ذلك ولا يعتقدون الوجوب العقلى وانما هو عندهم من باب الجائز العقلى ، وأهل السنة يقولـــون بأن ارسال الرسل هو جائز عقلا على الله سبحانه وتعالى ، وعلى كل فعقيدة الحاجة الى الشرع وعقيدة ارسال الرسل هي كما فى علم الكلام عقيدة أجمع عليها كل من أهل السنة والمعتزلة والفلاسفة ٠

وكونها من قبيل الجائز العقلى ، أو الواجب العقلى هذا بحث آخر ٠

فتبين لنا ذلـك ان البشرية هي فى حاجة الى التشريع السماوى وماذا فى هذا التشريع السماوى ؟ وماذا فى هذه الشرائع ؟

ماذا فى شرائع الانبياء التى جاءت بها هذه الشرائـع هي عبـارة عـمـا تعلمونه ، عبارة عن تعاليم أخلاقيـة وارشادات ونظم اجتماعيـة ، وتهذيب للارواح وتسلية للنفوس وطهارة لها ٠ فبها يتوصل الانسان الى تنظيم المجتمع البشرى ، والسير به الى حياة أفضل فى الدنيا والفوز بالسعادة الابدية فى الآخرة والنظام المقصود من هذا المجتمع هو عبارة عن تعمير الارض ، والسيـر فى المعاملة مع الغير على مستوى قول الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم :

« لا ضرر ولا ضرار » ٠

نعم نجد الانسان فى نفسه قد وضع نظما وقوانين هي قاصرة على حياته فى هذه الدار ، وهي مختلفة لدى جميع الامم والحكومات متضاربة متناقضة ، وكثير ما يسعى أصحابها فى تعديلهـا وفى تحويلها وتغيير هذا وتقديم هذا ، وتأخير هـذا وحذف هـذا وزيـادة هـذا ٠٠٠ الخ ٠

بيد ان القوانين الدينية والشرائـع السماوية ثابتة ، صالحـة لكل زمـان ومكان ، موافقة لكل السكان ، لا يعتريها النقص ولا خلل ، صالحة لاستمراريـة الحياة ، فى الدارين تنزيل من حكيـم حميـد ٠

فان قيل لنا ، ما دام الامر هكذا لماذا كان النسخ فى الشرائع ؟

قلنا ان ذلك النسخ ، أو هذا النسخ لا يتعدى بعض المظاهر لبعض الاحكام الشرعية المتعلقـة بمصالـح العباد واللطف بهم ، نظرا لتعاقب العصـور وتطور الزمان واختلاف أحوال الامم ، وتفاوت مصالح الناس « **وخلقناكـم أطوارا** » صدق الله العظيم « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** » ٠ **فبهذا اختلفت** الاحكام بحسب اختلاف ذلك كمعالجـة الطبيب فانه قد يأمر بتناول دواء خاص، فى زمن خاص ، فى وقت خاص، ثم يغيره فى وقت آخر حسب ما يقتضيه حـال المريض ، وحسب ما يصلح شانـه متمشيا به من صالح الى أصلح ، ومن نافع الى أنفع ، الى غيـر ذلـك ممـا تقتضيه الحكمة ، وفى الحقيقة ان أمـر التشريع الالهى ، هو عائد الى المشرع جل جلاله ٠ وهو الحاكم المطلق ، الفعال

لما يريد ، فيمكن أن يضع حكما ، ويرفع حكما لا لعلة ، ولا لغرض ، فهو العليم الخبير · ومع ذلك نجد الجوهر واللب واحد بين سائر الشرائع السماوية ، لا يختلف من نوح الى محمد عليهم الصلاة والسلام والى ذلك تشير الآية الكريمة : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك، وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** » ·

وأي نبى لم يأت أمته بخير جم ، وأي نبى لم يأت أمته بالخير الاعم ؟ ما هذا التخالف بين الشرائع فى رأي الانبياء ، ما هو الا بسبب تفاوت الاعصار كما ذكرنا فى المصالح ، من حيث أن كل واحد من الاحكام حق بالاضافة الى أهل زمانه ، مراعا فيه مصالح من خوطب به ، والكل متفق على توحيد الله ، وعلى وصفه جل جلاله بصفات الكمال التى تليق بجلاله ، وجميع الشرائع متفقة على أداء عبادة الله تبارك وتعالى المحتوية على تعظيمه وشكر نعمه التى لا تعد ولا تحصى « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » ·

وجميع الشرائع متفقة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحلى بحلية الادب ، والاخلاق الفاضلة ، والمزايا الكريمة ، كماأننا نجد هذه الشرائع ، تحث الناس عن التخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل ، وجميع الشرائع المبينة على لسان الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه وكل الشرائع تتعلق بنظام حياة الانسان العادلة ، وما ينتظره فى حياته الآجلة، وهي فى الحقيقة هذه الشرائع · فى الحقيقة هي خلاصة ما اتعب به الفلاسفة والحكماء أنفسهم بالبلوغ اليها فأضاعوا أعمارهم ، فى دعوى البحث عن حياة أفضل ، وقد أراحهم الدين من ذلك كله · عن حجة وبرهان ، وبأدلة قاطعة لكل انسان كما يعلم ذلك من درس القرآن ، « **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** » ·

الشهيد عبد الواحد الوانشريسى

955 هـ - 1549 م

عبد الرحمن الجيلالى

الوانشريسى بالنون وشينين معجمتين كما ضبطه ياقوت الحموى أو ونشريس بالسين المهملة فى آخره مع فتح الشين الاولى أو كسرها ، ويمد الواو أو حذف المد ، أو كما ينطق به العامة (وارسنيس) فهو دائما اسم لذلك العلم الشامخ المرتفع من الاطلس التلى بالشمال الغربى من أرض الجزائر المجاهدة ، أو نقول هو ذلك الجبل الباذخ الذى يتراءى لك شمال نهر شلف وجنوب غربى عاصمة الجزائر (دار الجهاد) كما كانت تسمى وتعرف به من قبل ولا تزال • يمتد فيما بين مدينة مليانة شرقا وتلمسان غربا وتبلغ قمته الى مرتفع عال جدا (1985 مترا) وصدق من سماه (عين الدنيا) وهو الاسم الذى يطلق على هذا المكان الى الآن ؛ فهو بحق العين المبصرة التى كان المجاهدون فى حرب التحرير المتحصنون والمحتمون بهذا الجبل يبصرون العدو من هذا المكان على بعد منهم فيقضون عليه ، فكانت لهم هذه العين (عين الدنيا) كعين الزرقاء - زرقاء اليمامة - أو أحد ، وهكذا قل فى التاريخ الماضى ايام توغل الاستعمار فى الوطن : فكانت هناك معركة وانشريس 1846 م وبناحية فليتة وحوض الشلف ، ومعركة خنقة العازر الشهيرة وتخريب معسكر الرحوية (1864 م) الخ •••

وهو الى ذلك موقع جميل ممطر ومنتج يكثر فيه العشب والكلأ علاوة على ما يحويه من كنوز طبيعية وثروة منجمية ثمينة •

ومن أشهر العشائر به : عشيرة بنى وعزان ، وشوشاوا ، وبنى هندل ، وتاملاحت ، وأولاد بو سليمان ، وحرشون وأولاد غالية •••

ولقد كان لهذا الموقع من تراب الجزائر تأثير عظيم فى تطوير الحياة العامة بالجزائر ، سياسيا وعقليا واقتصاديا ، فهو كما أنه كان قلعة حصينة للجهاد بالسيف فهو الى ذلك قلعة ورباط حصين

للمنقطعين للجهاد فى سبيل العلم والمعرفة فكنا لذلك كثيرا ما نجد فى تراجم رجال الثقافة والحصافة والذكاء بالجزائر من ينتسب الى هذا الموقع ، فهذا أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسى الملقب بالبشير ، صاحب ابن تومرت مهدى الموحدين ، وهذا سحنون بن عثمان الميدوى الونشريسى صاحب كتاب : « المحتاج » الذى شرح به نظم السراج فى علم الفلك للشيخ عبد الرحمن الاخضرى - مطبوع - وأبو الربيع سليمان الونشريسى كان يقرىء التفريع لابن الحلاب والمدونة ، وكان يقوم عليهما أتم قيام ، وهذا القاضى أبو على الحسن ابن عثمان بن عطية الونشريسى ، ذكره لسان الدين بن الخطيب فى (نفاضة الجراب) فقال : « كان فقيها عدلا من أهل الحساب والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه ، وكان يقرض الشعر ، له أرجوزة فى الفرائض مبسوطة العبارة مستوفاة المعنى » • قال التنبكتى : وقفت على رجزه فى الفرائض وهو حسن سلس ، وله الى ذلك فتاوى نقل بعضها أحمد بن يحيي الونشريسي فى كتابه المعيار •

وهذا عمه الحسن بن عطية ذكره الاحمر فى فهرسته فقال : شيخنا الفقيه المفتى المدرس القاضى الفرضى الاديب الحاج أبو على بن الشيخ الصالح عطية الونشريسى ، قال : وأجازنى فى الموطأ رواية يحيى ابن يحيى •••

واشهر الجماعة اثنان ، هما أحمد الونشريسى وولده عبد الواحد - الشهيد فالاول هو أحمد بن يحيى الونشريسى حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة ، عرف به المقرى فى مواضع من كتابه نفح الطيب فقال : « هو شيخ شيوخ شيوخنا الامام الكبير المؤلف الشهير عالم المالكية سيدى أحمد الونشريسى صاحب التآليف العديدة كالمعيار والجامع المغرب فى فتاوى افريقيا والاندلس والمغرب ، وهو فى ست مجلدات (طبع فى 12 مجلدا بفاس 1314 هـ) ، قال ولو لم يكن له غيره لكان كافيا ، وله مصنفات كثيرة غيره أكثرها فى مذهب مالك ولم يؤلف فى المذهب مثلها • ذكرها صاحب جذوة الاقتباس ، ولم يطبع منها سوى المعيار وكتاب الولايات - ترجم الى الفرنسية •

وحكى عنه المنجور فى فهرسته فقال : « كان مشاركا فى فنون من العلم الا انه لازم تدريس الفقه ، يقول من لا يعرفه انه لا يحسن غيره • وكان فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضره يقول : لو حضره سيبويه لاخذ النحو من فيه •

كان مسكنه تلمسان فنقمت عليه الحكومة الزيانية بتلمسان أمرا فانتهبت داره ففر الى مدينة فاس فى أوائل شهر المحرم سنة 874 هـ/1469 م ، فأقام بها منكبا على كتاب المدونة وفرعى ابن الحاجب فى فقه المالكية ، تخرج به جماعة هم اساطين الفقه المالكى بالمغرب العربى ، منهم عبد السميع المصمودى، ومحمد بن عبد الجبار الورتديغى ، والقاضى محمد بن الغرديس ، وآخرون ... وتوفى رحمه الله بمدينة فاس يوم الثلاثاء 20 صفر 914 هـ - 1508 م .

والثانى هو ولده الشهيد عبد الواحد ابن أحمد الونشريسى ؛ ولد رحمه الله بعد سنة 880 هـ ، فأخذ عن والده وعن أعيان علماء المغرب الاسلامى فى عصره، كالشيخ ابن غازى ، والهبطى ، والحباك، وابن هارون ، والزقاق ، واضرابهم ... وبرع فى علوم الشريعة والادب ، وكان رائق الخط فصيح العبارة فائق الانشاء لا سيما فى انشاء الخطب ، فانه كان آية فى انشاء الخطب البليغة ، فيكتب بدون تكلف ، وشاعرا أيضا ، متقدما فى الوثائق والمكاتبات عدلا مهيبا ذا سمت وتؤدة وسكون ، قويم الطبع ورفيقه يهتز لسماع الالحان وآلات الطرب مع الورع والدين المتين يقول الحق ويصدع به ولو كان فى ذلك حتفه ، بهذا يصفه علماء التراجم فيما ذكروه به .

اتفق انه كان فى يوم عيد ينتظر مع المصلين خروج السلطان ابى العباس المرينى لصلاة العيد ، فتأخر خروج السلطان حتى حان وقت صلاة الظهر ، فحين خرج السلطان رقى عبد الواحد الونشريسى المنبر فخطب الناس قائلا : أيها الناس !.. عظم الله أجركم فى صلاة العيد !.. ثم أمر المؤذن ان يؤذن لصلاة الظهر ، فصلى بهم الظهر وانصرف ولم يراع فى ذلك سلطانا ولا غيره .

وكان فيما تولاه رحمه الله تعالى من المناصب الشرعية القضاء مدة ثمانية عشر سنة ثم تولى الافتاء بعد وفاة شيخه ابى هارون .

ولما توفى والده (914 هـ/1508 م) قدمته الجماعة ليقوم مقام والده فى التدريس بالمدرسة المصباحية بفاس ، فاقرأ بها التفسير بنقل ابن عطية والسفاقسى ومواضع من الزمخشرى ، ومن الرصاع على المغنى ، والبخارى بشرح ابن حجر مستوفيا له لانه شرط المحبس ، وابن الحاجب بالتوضيح من غير استيفاء مع زيادة طرر أبيه ، وحضر درسه ابن غازى واليسيتنى وعبد الوهاب الزقاق فأثنوا عليه .

وأغلب انتاجه العلمي كان في علم الشريعة والفقه ، فله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي في أربعة اسفار ، وشرح على رسالة ابن ابي زيد القيرواني وفتاوى محررة ، وخطب بليغة ونظم كثيرا في مسائل من الفقه ، كشهادة السماع ، ومفوتات البيوع الفاسدة، وما تفتيه حوالة السوق ، وتعليق على صحيح الامام البخاري لم يكمل . ومواضع الاقالة في البيع ، ونظم قواعد أبيه : ايضاح المصالك مستوفياء وزادها فواعد بأمثلتها وصورا ومثلا انتزعها من مختصر ابن عرفة ولم تتم الزيادة وهي مشروحة بقلم التنبكتي ، وله أزجال وموشحات ...

ولم يزل عبد الواحد رحمه الله سائرا على الخطة الرشيدة قائما بالعدن ناصرا للحق ناشرا للعلم الى ان فاز بالشهادة في سبيل كل ذلك .

لقد كان المغرب الاقصى في أواخر القرن التاسع الهجري ـ أواسط السادس عشر الميلادي ، يمر بأزمة سياسية قاسية اذ كان محل نزاع وخلاف قائم على التنازع على السلطة بين دولة الوطاسيين القائمين يومئذ على الحكم وبين مزاحميهم السعديين ، فاستولى هؤلاء السعديون على مراكش عاصمة الجنوب سنة 935 هـ/1529 م ، وذهبوا ليستولوا على مدينة فاس فاستعصت عليهم ، فضيق الحصار عليها السلطان ابو عبد الله محمد المهدي الشيخ (السعدى) فلم يفلح وعسر عليه الامر ، فبحث عن السبب فقيل له : لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الونشريسي يعنون : الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد ابن أحمد الونشريسي رحمه الله ، فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه ، فقال له الشيخ عبد الواحد : « بيعة هذا السلطان يعني أبا العباس الوطاسي في رقبتي ولا يحل لي خلعها الا لموجب شرعي وهو غير موجود . ولعل الشيخ في ذلك متمسك بما رواه مسلم في صحيحه على النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : من بايع اماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع ، فان جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر .

ويقال ان السلطان السعدى كتب الى أهل فاس يقول لهم : « انى ان دخلت فاسا صلحا ملاتها عدلا ، وان دخلتها عنوة ملاتها قتلا » . قالوا فأجابه الونشريسي بابيات تمثل بها وهي من نظم شاعر اندلسي من طليطلة جاء فيها هذا البيت :

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا

ولا علم الرحمن من قولك الفضلا

ولما بلغ ذلك السلطان حقد على الونشريسي ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه ويأتوا به الى محله محبوسا من غير قتل ، وكان الشيخ فى ذلك الزمن يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشائين وينقل عليه كلام ابن حجر « فتح البارى » ويستوفيه لانه شرط المحبس ـ انظر كيف كان الناس يحترمون الحبس ـ فقال له ابنه : يا أبى انى قد سمعت ان اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة ، فلو تأخرت عن القراءة » فقال له الشيخ : أين وقفنا البارحة ؟٠٠ قال : على كتاب القدر ! قال : فكيف نفر من القدر ؟٠٠ اذا اذهب بنا الى المجلس ٠

وهذا يذكرنا بذلك الموقف الرهيب الذى وقفه قبله سلطان العلماء وبائع الملوك العز بن عبد السلام 660 هـ 1262 م تجاه أمراء وسلاطين دولة المماليك بالمشرق حين صارحهم بانهم ليسوا كلهم بأهل للامارة والملك وانهم عبيد أرقاء لا يصلحون لمزاولة الحكم والامارة بل لابد من عرضهم فى السوق للمزيد ٠٠٠

وذات يوم كان باب الدار الذى يقطنها الشيخ يرتج تحت طرقات عنيفة وسارع ولد الشيخ ففتح الباب وها له ما رأى : كان نائب السلطنة واقفا وسيفه فى يده والشرر يتطاير من عينيه والدم يكاد يتضجر من وجهه ، ومن خلفه كتيبة من جنده وأنصاره ٠

وغاض الدم فى وجه الغلام فارتد فزعا الى أبيه يخبره بما راى ، ويكاد يهتف : انج بنفسك يا أبى ! وفهم الشيخ ما يريد ولده ، فقال له فى تؤدة واطمئنان يا ولدى !! أبوك أقل من ان يقتل فى سبيل الله !!

وظهر الشيخ فى الباب واستقبل نائب السلطنة بكل سكينة ووقار ، وحينما رآه النائب ارتعد وارتعش السيف فى يده فسقط على الارض وبكى النائب ، وسأل الشيخ الدعاء الى آخر القصة ٠٠٠

وهكذا فعل الونشريسى فذهب كعادته الى مجلسه فى جامع القرويين واخذ مجلسه على الكرسى الخاص الذى أسسه السلطان أبو العباس أحمد بن الشيخ الوطاسى 956 هـ/1549 م ليجلس عليه مدرس صحيح البخارى والقى درسه كالعادة وهو فى ذلك يصول ويجول حتى انتهى من درسه وافترق الناس وتهيأ الشيخ للخروج من المسجد من باب

الشماعين فوجيء من طرف الجماعة المهيأة لتمثيل الجريمة فألقت عليه القبض وحاولت اخراجه من الباب المذكور وكان يسمى كذلك بباب الفخاريين وأرادوا حمله فاستمسك الشيخ باحدى عضادتي الباب فضرب احدهم يده فكسرها أو قطعها ؟.. وأجهز الباقون عليه فقتلوه بباب المسجد المذكور يوم 27 ذى الحجة 955 هـ/27 يناير 1549 م فمات رحمه الله شهيدا،وكان أمر الله قدرا مقدورا ، خير الشهداء كما قال صلى الله عليه وسلم : حمزة بن عبد المطلب ، ثم رجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فى ذات الله تعالى فقتله على ذلك . ومن يومئذ عرف هذا الباب من بين أبواب القرويين باسم باب الشهيد كما اشتهر كرسيه هذا باسم كرسى الونشريسى .

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه كما قيل ، فقد ذكر أبو العرب فى كتاب المحن انه لما أراد عبد الملك بن مروان ان يكتب العهد لابنه الوليد ، قيل انه : لا يتم لك هذا الامر الا بابن المسيبة فاكتب له ، فكتب له ان يبايع ، فرد اليه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نبايع لخليفتين ، فان أردتها لابنك ، فاخلع نفسك ، والا فلا . فكتب عبد الملك الى عامل المدينة هشام بن اسماعيل المخزومى : ان لم يبايع فاضربه مائة سوط ، فضربه مائة وحلق رأسه ولحيته وكساه تبانا من شعر ، ونادى عليه ، وطيف به الى الليل ... وكان أيضا قبل ذلك ضربه جابر بن الاسود والى المدينة على البيعة لابن الزبير فضربه ستين سوطا ودعاه هشام بن اسماعيل أيضا الى البيعة للوليد وسليمان بالعهد فلم يفعل ، فضربه ستين سوطا وطاف به فى المدينة فى تبان من شعر ، وقد وقع لمالك وأبى حنيفة شبيه بهذا ...

وصدق الله العظيم : **ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون .**

المـــراجـع

ابن القاضي ـ أحمد بن محمد : درة الحجال .. القسم الثانى ط الرباط 1936 م

التازى ـ عبد الهادى : جامع القرويين ج 1 ، 2 ط بيروت 1973 م

التنبكتى ـ أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ط القاهرة 1329 هـ

الجيلالى ـ عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ، ج 2 ط الجزائر 1955 م

الحجوى ـ محمد بن الحسن : الفكر السامى ، ج4 ط فاس بدون تاريخ

السبكى ـ عبد الوهاب : طبقات الشافعية الكبرى ، ج 5 ط القاهرة 1324 هـ

المقرى ـ أحمد بن محمد : نفح الطيب ، ج 5 ، 7 ط بيروت 1968 م

المقرى ـ أحمد بن محمد : أزهار الرياض ، ج 3 ط القاهرة 1942 م

الناصرى ـ أحمد بن خالد : الاستقصاء ج 5 ط الدار البيضاء 1955 م

نظـرة محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المـــــرأة

عبد الرحمن الجيلالى

لم يكد يصدر قرار مجتمع (ماكون) المنعقد بارض فرانسا سنة 586 م للبحث فى شأن المرأة هل هي انسان أم شيء آخر ؟ أم هي ماذا ؟ ! حتى كان أن قد دوى صوت محمد صلى الله عليه وسلم صارخا فى العالم أجمع : « انما النساء شقائق الرجال » ٠

وفى القرن السابع الميلادى ــ الاول الهجرى ــ عقد مؤتمر عام فى رومـا للبحث كذلك فى شؤون المرأة ٠٠٠ وبعد مناقشة طويلة وجدال عنيف قـــرر المؤتمر انهـا كائـن حي لا نفس له ! وعلى هذا الاساس قـرر المؤتـمـرون حرمانها من أكل اللحم وحتى عـــن الضحك والكلام ! وان ليس للمرأة الحق لان ترث الحياة الآخرة ٠٠٠ بل انهـــا رجس ! ٠٠٠ وبينما الامر كان على هذا فى أوروبا اذ كان صلى الله عليه وسلم ينظر الى المرأة كشيء مقدس تبلغ قدسيته الى حد التعوذ به من الشيطان الرجيم ٠

فانه عليه الصلاة والسلام لقى يومـا فتى من أصحابه فكان هو معاذ بن جبل ، فسأله ، ألك زوجة يا معاذ ؟ ٠٠ فأجابـه معاذ بقوله كلا يا رسول الله ، فقال لـه عليه السلام : انك اذن مـــن اخـــوان الشياطين ! ٠٠٠ وكأنه يعنى بذلك عليـه الصلاة والسلام : انه كان من الواجب عليك يا معاذ أن تتعوذ من الشيطـــان الرجيم بامرأة تتزوجها ، فـالمـرأة هي التعويذة من الشيطان ٠ ومن تزوج كما قال عليه الصلاة والسلام فقد امتلـك شطر دينه ٠٠٠

ومعلوم ان محمدا نشأ صبيا وطفلا يتيما فتولت حضانته فتاة حبشية اسمها بركة وتكنى بأم أيمن ، فعكفت هـــذه الفتاة على تربيته وحضانته حتى بلـغ

الخامسة والعشرين من عمره فكـــان قرير العين بما كان يشعر به فى حال حضانتها له من العطف والحنان والعناية بشؤون الطفولة ، فشعر من ذلك الحين بأول وظيفة من وظائف المرأة فى هـذا الوجود • ثم شاءت العناية الربانية أن تنقل محمدا صلى الله عليه وسلـم الى العيش بالقرب من أشـرف امـرأة فى قريش ، فتزوج خديجة بنت خويلـــد ، وهنا طبعا لم يبق ذلك الشاب الذى هو فى حضانة فتاة مكرمة عنده بل أصبح ذلك الرجل الشاب الذى تحبه امرأة ويحبها • ثم ماتت خديجة رضي الله عنها فشاء أبو بكر أكبر صحابة محمد أن يتشرف بمصاهرته فزوجه ابنتـــه عائشة رضي الله عنها ، ولـــم تكـن عائشة زوجة فقط ، بل وتلميذة أيضا تحفظ وتنقل عنه تعاليم دينه الكريم ، وهذا هو الطور الثالث من أطوار حياة محمد مع المرأة :

بركة الحبشية كحاضنة تسهر عليـه فى طفولته ، وخديجة الكبرى كزوجـة تحوطه وتشجعه فى شبيبته ، وعائشـة الصديقة بنت الصديق تسره زوجـــة وتكون تلميذة له فى كهولته ومساعـدة له فى غزواته وجهاده •

قال أنس : اننى فى وقعة احد رايت زوجة النبى صلى الله عليه وسلم عائشة ومعها أم سليم مشمرتين أرى خلاخيلهما وهما تقفزان قفزا وعلى ظهورهما قرب الماء تفرغانها فى أفواه العطاش ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواههم •

فهذا محمد كما نرى قد اختبر المرأة فى جميع أطوار حياته وامتزجت عاطفته بعاطفتها طفلا وشابا وكهلا ••• وكان لها من التاثير فى حياتـه كلها ما جعلـه يرفع من شأنها ويعلى منزلتها ويعلـن حريتها الى أن جعلها أو كاد يجعلهـــا فى رتبة أو نقول فى صفوف الابـرار المقدسين ، أليس هو القائل : « الجنـة تحت أقدام الامهات » ؟ •• والمرأة من حيث هي امرأة ، فهي بالقوة أو بالفعل أم أو فى حكم الام • فهي على كل حـال مصدر للامومة ، ومن كان حريصا على دخول الجنة فليعلم وان الجنة هي تحت قدم هذه المرأة ـ الام ـ •

وكأن محمدا صلى الله عليه وسلـم أراد بتكريم المرأة ورفع شأنهـــا فى عيون الرجال على هذه الصورة افهامهم ان النهضة الصحيحة انما تقوم عـلى سواعد الجنسين : الرجل والمرأة ، وذلك هو شأن ما شاهده التاريخ عبر العصور وشاهدناه نحن بأنفسنا لا سيما فى حرب التحرير هذه (1954 ـ 1962) •

ولما رأى النســاء العربيــات هـذه النهضة التى نهضها محمد ، وهـــذه المنزلة التى رفع المرأة اليها محمـــد اغتبطن بها وسررن بـه ونشطـن الى الاستزادة من التطلع الى معرفة تعاليمه ومبادئه التى هي نبراس خطته فى الحياة، فكن يعقدن لذلك اجتماعات ويبعثن من

ينوب عنهن من النساء لرفع مطالبهن الى النبى صلى الله عليه وسلم ٠

فرفعنها يوما بواسطة امرأة منتخبة من بينهن وكانت تلك المرأة يومئذ هي أسماء بنت يزيد الانصارية ، وكان يقال لها : خطيبة النساء ٠ فجاءت الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت : انى رسول من ورائى من جماعة النساء وكلهن يقلن بقولى وعلى مثل رأيى ، ثم عرضت عليه مطالب النساء اللواتى ارسلنها ، فاجابها عليه السلام بما اقر عينها ويرضيهن ، وأعلن سروره بحديثها واعجابه بجراءتها والتفت الى من كان حوله من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قائلا : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه المرأة ؟ ٠٠٠

وكان محمد يحب أن لا يستبد أحد على امرأة فى أمر زواجها ، فهو يعطى الحق فى أن تتزوج المرأة من تختاره ويطيب لها العيش معه ، بشرط أن لا يحط هذا الزواج من كرامتها وكرامة أسرتها وعشيرتها ٠ وهذا ما يعبر عنه الفقه الاسلامى فى اختيار الزوج باسم الكفاءة وذلك حرصا منه على سلامة الاسرة وحفظ كيانها ٠ فقال عليه الصلاة والسلام : الايم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، ولما كان الخفر والحياء يغلبان على الابكار بالخصوص قال فى شأن البكر : واذنها صماتها ، وذلك اتماما لصونها وإبقاء لاستحيائها رواه مالك فى الموطا ومسلم وأخرجه الشافعى وأحمد واصحاب السنن كلهم من طريق مالك ٠

وهذا الحديث يدل على شدة تأثر عواطفه وشعوره صلى الله عليه وسلم بحساسية المرأة ٠ ولقد رد زواج الخنساء بنت خذام الانصارية حين زوجها أبوها برجل لا رغبة لها فى التزوج به ، وكانت ثيبا ، فامر عليه السلام أباها بأن يلحقها بهواها ففعل ، وتزوجت بأبى لبابة بن عبد المنذر فأنجبت ولده السائب ٠ فانظر يا هذا نظرة محمد الى المرأة فى القرن السابع الميلادى فى حال ان هذا الحق لم تنله المرأة فى أوروبا الا فى القرن السادس عشر ! ٠

وهذه بريرة وهي جارية حبشية تزوجت بعبد من عبيد المغيرة — مرغمة — فاشفقت عليها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فاشترتها وأعتقتها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن « ملكت فاختارى » فرفضت زواجها بالعبد وأعرضت عنه وقد تمكن حبها من قلبه ، فصار يطوف بسكك المدينة يمشى وراء بريرة ودموعه تنحدر على وجنتيه والناس ينظرون اليه وهي منصرفة عنه كل الانصراف ٠٠٠ فكلمها النبى صلى الله عليه وسلم فى شان زوجها فقالت : أتامرنى أمرا يا رسول الله ؟ ٠٠ فقال لا ٠ وانما أنا شفيع فقالت : اذن لا حاجة لى فيه ٠ فلم يعارضها عليه السلام فى استعمال

حريتها ولم يرغمها على الرضى بزوجها بعد تحررها من الرق على يد عائشة .

كما انه كان عليه الصلاة والسلام يرى أحقية مشاركة المرأة فى الاشتغال بتسيير شؤونها ومصالحها الخاصة بها فأعطاها حق القيام على ثروتها وتعهدها فى استثمارها فلها الحق فى التمتع بالالتزامات المالية مثل التجارة والاقالة والخيار والصرف والشفعة والاجارة والرهن والقسمة والوكالة والكفالة والصلح والشركة والمضاربة والوديعة والوقف وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الشريعة ...

كما أعطاها حق المشاركة للرجال فى المصالح العامة - داخل اطارها الطبيعى الخاص - وكان أهم تلك المصالح يومئذ تأييد الدعوة الاسلامية ومقاومة المعارضين للدعوة والتسابق للخير ، فكان للمرأة المساعى الحسنة فى هذا السبيل .

وقد توفرت طائفة من نساء الصحابة رضي الله عنهم على مرافقة الجيش لمعالجة الجرحى ومداواة المرضى وخدمة المحاربين ، وكانت من بين هذا الرعيل ليلى الغفارية وأم عطية ، وأم سنان ، وكعيبة بنت سعد الاسلمية ، وأم سليم، وأم المؤمنين عائشة ، ورفيدة الاسلمية التى كانت خيمتها ملجأ للعجزة والبائسين ومستشفى عسكريا فى أيام الحرب ، وقد بوب البخارى فى كتاب المغازى بابا ذكر فيه مداواة النساء للجرحى فى الغزو ... هكذا كان أمر المرأة فى صدر الاسلام بينما كانت أول طبيبة أمريكية في العالم هي اليزابيت بلاكول (1821 - 1910 م) .

وأيضا كان فيما نظر فيه عليه السلام من الحقوق الثابتة للمرأة ان أعطاها حق حرمة استجارة المحاربين من المشركين والكفار وهو حق سياسى محض كما نرى فقبل اجارة أم هانى بنت عمه أبى طالب حين استجار بها مشركان محاربان كانا حموين لها ، فاستجارا بها فأجارتهما فغضب لذلك أخوها على بن أبى طالب وعزم على قتلهما وقال لها : أتجيرين المشركين ؟!. فبلغ الامر الى النبى صلى الله عليه وسلم فأجاز استجارتها وقال لها : قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت يا أم هانىء . وأصبح بذلك تأمين المحارب الكافر حقا للمرأة كما هو حق للرجل ، ووقع على ذلك الاجماع ، ولم يكن ليعد صلى الله عيه وسلم ذلك من المرأة تدخلا منها فى السياسة أو فضولا خارجا عن اللياقة ، ولم يقل لها ان هذا ليس من شأنك وانما عليك بالطبخ أو الزينة وتربية الاطفال فقط ، لم يقل هذا .

قالت أم سنان لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم الذهاب الى خيبر جئته فقلت له : أأخرج معك فى سفرك هذا أخرز السقاء وأداوى المريض والجريح وأحافظ على الرجال ؟ . فقال لها : اخرجى على بركة الله فان لك صواحب

سألنني الخروج معي فأذنت لهن فكونى مع زوجتي أم سلمة ٠

ومع ذلك فانه صلى الله عليه وسلم كان في الوقت نفسه يعجبه من المرأة أن لا تنسى أنوثتها وان لا تهجر وظيفتها التي خلقت لها وان لا تغفل عما خصتها الطبيعة والخلقة الالهية به وما خص به الرجل كذلك من الفوارق الكثيرة العديدة ٠٠٠ فلا تنسى أولا وبالذات تربية البنين والبنات وادارة المنزل وان لا تعطل امومتها وزينتها لزوجها ، حتى انه كان يكره أن لا يرى أثر الخضاب في كفي امرأة ، وكان الخضاب أجمل زينة النساء في العصور الماضية ٠

يروى أنه نظر يوما الى يدي أم سنان فرآها عاطلتين عن الخضاب فقال : ما على احداكن أن تغير أظفارها وتعصب يدها ولو بسير ٠ فهنا نراه عليه السلام يحض المرأة على الخضاب وأن يكون في معصمها سوار ولو من جلد ٠

وعرف محمد نفسية المرأة وغرائزها الخاصة بجنسها اللطيف ، فكان يعاملها بمقتضى ما عرفه منها ، فيكثر من تأنيسها والرفق بها والانة القول لها فكثيرا ما كان يخرج معه نساءه عليه السلام فيسافرن معه ، وكن اذا أرادت احداهن الركوب بسط لها ركبته تدوس عليها وتصعد الى هودجها ، واذا كان معها في فلاة سابقها أشواطا للرياضة ولادخال السرور عليها ٠ وأدخل الحبشة يوم العيد الى المسجد لترى زوجته لعبهم بالسيف والترس والحراب ٠

وكان صلى الله عليه وسلم يكرم حاضنته بركة الحبشية ويمازحها أحيانا، فطلبت منه يوما جملا تركبه فقال لها : انا أحملك على ولد الناقة ، فصاحت ! ٠٠ ويلك ما أصنع بولد الناقة ؟ ! ٠٠ وهل يطيق أن يحملني ؟ ٠٠ أريد جملا ٠ فضحك الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا لها : ويحك بركة ! ٠٠ وهل الجمل الا ابن الناقة ؟ ! ٠٠

ورأى في صبيحة يوم نساء مقبلات من عرس ومعهن صبيانهن فوقف عليهن وهتف قائلا : اللهم انتم من أحب الناس الي ، قالها مرتين ٠ وهو القائل عليه السلام : « حبب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» ٠ هكذا قال حبب الي ولم يقل أحببت وفي هذا دليل على أنه مجبور على حب ما ذكر من أصل الخلقة ، فهو بالنسبة له أمر طبيعي وغريزي لا يد له فيه ، وصدق الله العظيم اذ يقول في شأنه : « **وانك لعلى خلق عظيم** » ٠

أخي القارىء ! نعم محمد يحب النساء ، يحبهن بما يترتب على حبهن من كثرة التناسل ، ويحبهن لانهن يساعدن الرجال في النهضات الكبرى كما ساعدته خديجة في نهضته ضد الظلم والطغيان والكفران والشرك وعبادة الاصنام والاوثان ، ويحبهن لمشاركتهن

فى المعارك الحربية كما شاركته فى ذلك عائشة ورفيدة وأم عطية وأم سليم وأم سنان وغيرهن فى تأييد الدعوة الاسلامية، ويحبهن لينشرن الثقافة والعلم بين عالم النسوة وعالم الرجال ان اقتضى الحال كما فعلت عائشة وغيرها من الصحابيات منذ حملن ثقافته العالية وبلغن عنه شريعته ٠

وهكذا ينبغى أن تكون المرأة المسلمة اذا أرادت أن تكون حقا محبة محبوبة حبا طاهرا شريفا فلتقم بواجب الامومة الذى خلقت له أولا وبالذات وبمساعدة النهضات القومية والمشاركة الفعالة فى رد العدوان اذا ما ظهر الخطر على الوطن ، وذلك دائما فى دائرة حدودها الطبيعية والشرعية وتسعى فى نشر الاخلاق الفاضلة والتعاليم السامية الطاهرة بين أبنائها وجميع أفراد أسرتها محافظة على وقارها وعفافها مرتدية بلباس الحشمة والحياء فلا تبرج ولا تفرنج ٠٠٠ وهذا النوع من النساء هو الذى أحبه النبى صلى الله عليه وسلم وحبب اليه وأوصى به فى خطبته الاخيرة فى حجة الوداع اذ قال : فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ٠

هكذا كان نظره صلى الله عليه وسلم الى المرأة ، وهكذا كان يحبها أن تكون ، وذلك منذ أربعة عشر قرنا بينما كانت المرأة عند مدعى التقدم والرقى بأوروبا الى حدود سنة 1882 م محرم من حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة ، بل بلغت الفطنة ولطافة الحس والذكاء عند نابليون - وهو مشرع القانون - فروى عنه انه قال : « لا قيمة للنساء » !! ٠٠٠

وقد اعترف المستشرق الفرنسى « أندرى سرفى » بفضل محمد على المرأة فى التاريخ ، فقال فى كتابه (الاسلام ونفسية المسلمين) : لا يتحدث هذا النبى عن المرأة الا فى لطف وأدب ٠٠٠ كان يجتهد دائما فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها ٠٠٠ لقد كان النساء قبله لا يرثون ، بل كانوا متاعا يورث لاقرب الرجال ، وكأنهم مال أو رقيق ، وعندما جاء الرسول قلب هذه الاوضاع فحرر المرأة وأعطاها حق الارث ٠٠٠ ثم ختم كلمته قائلا :

« لقد حرر محمد المرأة ، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بها فليقرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خيرا ، وليقرأ أحاديثه المختلفة ٠٠٠ ما أصدق هذا القول ! ٠٠ وما أكثر دفاع النبى عن المرأة وحقوقها ٠٠٠

ويقول (م٠ ريفيل) : « اننا لو رجعنا الى زمن هذا النبى لما وجدنا عملا أفاد النساء اكثر مما فعله هذا الرسول ، فالنساء مدينات لنبيهن بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس » ٠

الهجـــرة
و
دار النـــدوة

«تمثيليـة ذات خمسـة فصـول»

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي
مـؤرخ جزائري

الفصـــل الاول

في بادية المدينة ـ يثرب ، ما بين النخيل ، القوم يتسامرون تحت ضياء القمر ... وحولهم الخيام ...

مشهـــد ـ 1 ـ

ذكـــوان ـ **يخاطب الجماعة :** ... ولكنكم انتم كتمتم عنا رحلتكم الى مكة ، واخفيتم عنا لقاءكم بمحمد في العقبة ولم ندر عن محادثتكم معه هنالك شيئا ؟ ... فكيف كان ذلك ؟ ...

ابـــن زرارة ـ انما كنا نترقب الفرصة السانحة والوقت المناسب لنحدثكم عن ذلك ...

ذكـــوان ـ **ساخرا :** ولعلكم كفرتم بدين قومكم وتنكرتم لقوميتكم ووطنيتكم الموروثة أبا عن جد ! ... واتبعتم محمدا ؟ ...

ابـــن زرارة ـ ليس بذاك ، ليس بذاك !.. ولكن ها نحن نقص عليكم الحادثة كما هي ، ثم انظروا فيها ...

ذكـــوان ـ هات يا سعد حدث ! ...

ابـــن زرارة ـ **لابي الهيثم :** تقدم يا أبا الهيثم وانشر بيننا حديث شعب العقبة.

ابـــو الهيثـم ـ أتشرف ! ... لقـــد كان ذلـك أيها الرفقاء في منتصف أيـام التشريق حيث كنا يومئذ نحو السبعين رجلا وأمرأتين ... حتى اذا جاء وقت الموعد المعين بيننا وبين محمد صعدنا لانتظاره.

ذكـــــوان ـ مقاطعا : وهل انتظرتموه طويلا ؟ ...

ابــو الهيثـم ـ لا ، بل جاءنا فى الموعد بالضبط ، ولم يخلف وعده .

ابــن زوارة ـ وكيف يخلف وعده وهو مثال الوفاء والصدق والامانة فى قومه حتى انه عرف بالامين عندهم .

ذكـــــوان ـ وهل جاءكم وحده منفردا ؟ ...

ابــو الهيثـم ـ لا ! ... بل جاء يصاحبه عمه العباس بن عبد المطلب .

ذكـــــوان ـ ساخرا : ... انها لشجاعة ... لماذا لم يحضر وحده بمفرده ؟

ابــو الهيثـم ـ انما كان اجتماعنا ليلا فى الخفاء ... متحمسا ! ثم ما يهمك أنت من ذلك ؟ ... لقد كانت مصاحبة العباس له ليستوثق منا لابن أخيه ولقومه بعد ذلك .

عـــويـــم ـ دعونا من كل هذه المناقشة الفارغة ... ... وحدثونا عـن الغاية والمقصود بالذات من هذا اللقاء ... فبماذا تكلم محمد ؟

ابــو الهيثـم ـ كان أول من تكلم عمه .

ذكـــــوان ـ انما قصدتم محمدا أم عمه ؟ ! ...

ابــو الهيثـم ـ بل محمدا ... ولكن لا تنس ان عمه سيد وعظيم من رؤسـاء قريش ... وزد الى ذلك ان محمدا نفسه لما قدم لنا عمه قال هذا بقية آبائى .

عـــويـــم ـ وكأنه بذلك يريد التحصن لنفسه ... وماذا قال العباس ؟

ابــن زوارة ـ قال لنا يا معشر الخزرج ، ان محمدا مـنا لا نسلمه ولا نخذله ، وهو بيننا فى المكان الذى تعلمونه من رفعة وعز وشرف ، وهـو الآن فى سبيل عقيدته يريد الهجرة اليكم والالتحاق بكم فى يثرب بناء على عهدكم السابق له ، فان كنتم حقا من أنصـاره وحزبه وتدافعون عنه حق الدفاع فها هو لكم ، وان كنتم فى شك أو ريب من أمركم فدعوه لنا من الآن واتركوه بين قومـه وعشيرته فى بلده .

عـــويـــم ـ ملتفتا الى الجماعة : ... وهل العباس مؤمن ومصدق بنبوة ابن أخيه ؟ ...

ابــن زوارة ـ لا ... بل هو ما زال على دين آبائه وقومـه ... على ملـة عبد المطلب .

قهقهة من خصوم محمد

عـويـم ـ لانصار محمد : وبماذا أجبتم محمدا ؟ ٠٠٠

ابـن زرارة ـ لقد وعدناه بالنصرة وعاهدناه على ذلك ٠

عـويـم ـ تبا لـكم ٠٠٠ أهكذا تبرمون أمرا عظيما كهذا عن غير تفكير ولا روية ٠٠٠ فهذا راى فطير ، ولا خير فى الرأى الفطير ! ٠٠٠

البـراء ـ ان مسؤوليته علينا ، لا عليك ٠

عـويـم ـ أنتم وما تحملتم ٠

ذكـوان ـ ولكن الى حد الآن لم نعلم منكم عن محمد شيئا ٠٠٠ فماذا قال محمد ؟ ٠٠٠

البـراء ـ ٠٠٠ كان بعد ما تلى علينا القرآن ٠٠٠ قال : أبايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم ، فقلنا أجل ٠

ابـو الهيثم ـ واعترضتهم انا قبل التعاقد على هذا بأخذ العهد منه أيضا مسبقا.

عـويـم ـ مبتهجا فرحا : ذاك عهدى بك والظن فيك أيها البطل الصنديد ٠

أبـو الهيثم ـ مستمرا فى حديثه : انى خشيت ورب الكعبة اذ ربما يظهر علينا وينتصر ثم يعود الى قومه ٠٠٠ وما يدرينا ؟ ٠٠٠

عـويـم ـ وما فعل محمد وقتئذ ؟ ٠٠٠

أبـو الهيثم ـ تبسم فى وجهى وأكد لى بانه منا ونحن منه ، يحارب من حاربنا ويسالم من سالمنا ٠٠٠ وحينئذ تصافحنا معه متعاهدين على البيعة.

البـراء ـ مفتخرا : وكنت أنا أول من مد له يده ، وقلت بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها عن آبائنا واجدادنا الكرام كابرا عن كابر ٠

لنا فى كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء

ذكـوان ـ ما اطيب قلوبكم واسرعكم الى الايمان ! ٠٠٠ وهل بايعتموه على الحرب أيضا ؟ ٠٠٠

البـراء ـ نعم بايعناه على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا وفى كل موقف كان لنا او علينا ٠٠٠ وان نعلن كلمة الحق حيثما كنا ، كان ذلك لنا أو علينا فلا نخاف فى الله لومة لائم ٠

ذكـــــوان ـ ثم ماذا **ويقوم مستعدا للذهاب** ...

البــــراء ـ ثم افترقنا .

ذكـــــوان ـ سننظر فى الامر ... عموا مساء **يذهب وتذهب معه البقية :** عموا مساء ... عموا مساء ... **ويبقى ابن زرارة والبراء .**

مشهـــد ـ 2 ـ

أسيـــــد ـ **يجىء مغضبا وبيده حربة :** ما جاء بكما الى هنا تعبثان بعقول ابنائنا وضعفائنا ! ... اعتزلا عنا ان كانت لكما حاجة فى الحياة والبقـاء .

البــــراء ـ **مجيبا لاسيد :** أوتجلس فتسمع ؟ ... فاذا لم يرقك أمر كففناه عنك .

أسيـــــد ـ **يجلس .**

البــــراء ـ اسمع مرتلا : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** » .

اسيـــــد ـ **يتهلل وجهه :** كيف تصنعون يا قوم اذا أردتم الدخول فى هذا الدين الجديد ، دين محمد ؟ ...

البــــراء ـ نشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبـده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

اسيـــــد ـ **متأمـلا** : وما هو ملاك هذا الامر وغايته ؟

البــــراء ـ ملاكه وأساسه مكارم الاخلاق وغايته وروحه اخلاص العبـادة لله رب العالمين وحده لا شريك له واطاعة رسوله .

أسيـــــد ـ ما أحسن هذا ... انه وحياتكم لدين الفطرة .

ابـن زرارة ـ **لأسيد** : وما يمنعك يا أسيد ان تسلم وأنت سيد أهل يثرب ، فتزيد بذلك شرفا الى شرفك ، ورفعة الى رفعتك وتترك فى قومك منقبة خالدة خلود هذا الدين الخالد ؟ !

اسيـــــد ـ **فى حالة قيام :** أشهد انه لا يأتى بمثل ما جاء به محمد الا نبى ! ... ولقد تركت ورائى رجلا ان اتبعكما لا يتخلف عنه أحـد ـ **ذاهبا** ـ : وسأرسله اليكما .

ابـــن زرارة ـ على رسلك يا أسيد ... فمن هذا الرجل الذى تعنيه ؟

أسيـــــــد ـ سعد بن معاذ سيد الاوس بلا منازع ! ... **ياخذ حربته ويذهب.**

ابـــن زرارة ـ للبراء وما يدريك يا براء فلعل الله يؤيد هذا الدين على يد رجل فاجر ؟ ... ولعله يسلم ؟ ...

البــــــراء ـ ولان يهدى الله على يدك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ـ **ويلتفت فيرى ابن معاذ مقبـــلا فيقـــول لصاحبه ـ**

ابن زرارة : لقد جاءك سيد الاوس ! ...

ابـــن زرارة ـ فالله المستعان .

مشهـــــد ـ 3 ـ

اسعـد بن معاذ ـ مغضبا ومهددا لابن زرارة ، قائلا : لولا قرابتك منى يا ابن زرارة ما صبرت على اذاك فى مجالسنا هذه .

ابـــن زرارة ـ **مبتسما :** مرحبا بسعد بن معاذ سيد الاوس ... أوما يسمع ؟ ... فان رضيت فذاك ، وان كرهت عزلنا عنك ما تكره .

سعـــــــد ـ أنصفت فقل .

ابـــن زرارة ـ **يتلو مرتلا : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننـا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقـــولوا اشهدوا بـانـا مسلمون » .**

اسعـد بن معاذ ـ بعد أن يطرق : وكيف تصنعون اذا أنتم اسلمتم ؟..

مصعـــــب ـ ان ننبذ ونترك الطواغيت ونتجنب الاصنام والاوثان و ...

البــــــراء ـ **مقاطعا :** نعم ، نعم ، اذ هى جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنا من الله شيئا .

ابـــن زرارة ـ أجل فذاك هو .

اسعـد بن معاذ ـ أشهد كما انى آمنت بالله ... آمنت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا .

الحـاضران ـ اللـه أكبر !... اللـه أكبر !...

اسعـد بن معاذ ـ ينهض فيمشى خطوات يميـنا وشمـالا منـاديا : يـا بنى عبد الاشهد !... يا أهـل يثرب !... أسلموا تسلموا ... فانى

اقسمت وآليت على نفسى بانى لا أكلم اليوم منكم أحدا كائنا من كان رجلا أو امرأة حتى يسلم !...

هنا تسمع أصوات من بعيد : اسلمنا ... اسلمنا يا ابن معاذ ... فنحن على قدمك يا سيد الاوس !

ابــن زرارة ـ **يلتفت مشيرا بعصاه :** ها هم المهاجرون قادمون .

الحـاضران ـ **يلتفتان ليقتبلا المهاجرين :** مرحبا أهلا وسهلا ... فعلى الرحب والسعـة .

مشهـــد ـ 4 ـ

وهم يحملون امتعتهم وازوادهم : السلام عليكم ...

الحـاضرون ـ وعليكم السلام ورحمة اللـه !... مرحبا باخواننا المهاجرين ! مرحبا بصحابة رسول الله !... أهلا وسهلا ... قدمتم خـير مقدم ... مرحبا مرحبا ...

الفصـــل الثـــانى

مشهـــد ـ 1 ـ

منظر مكة وابو سفيان يماشى أبا الحكم فى شوارع مكة متاملا فى أبواب منـازل المهاجرين المغلقة فيتنفس الصعداء قائلا :

وكـل بيـــت وان طالـت ســـلامته
يـــوما ستـدركه النكـباء والحـــوب

ابـو سفيـان ـ أيـن آل بنى مظعون ؟ ... أيـن آل بنى جحش ؟ ... أيـن بنو بكـير ؟ ... لقد فـرق محمد جمعنا وشتت شملنا وقطـع ما بينـنا !.

ابـو الحكـم ـ هون عليك يا أبا سفيان ، أو مثلك يهتم بمحمد ؟ وهو ذلك الرجل المشعوذ الساحر الكذاب ؟!! ...

ابـو سفيـان ـ الا ترى يا أبا الحكم الى ما بلغ اليه هذا الصابىء من التاثير على قومنا وعشيرتنا حتى أقفرت منهم هذه البيوت والديار ... وقد خرج اهلها من مكة وذهبوا مهاجرين الى يثرب .

ابـو الحكـم ـ نعـم فليذهب عنا هؤلاء ضعفاء العقول والاغبياء وليتركوا لـنا بلدنا آمنا مطمئنا .

ابــو سفيــان ـ وقد بلغنى انه ملتحق بهم ٠

ابــو الحكــم ـ وبعد ؟ ٠٠٠ فليذهب !٠٠٠ اليس فى ذلك راحة لنا من هوسه ؟ وهو انتصار لنا أيضا . فيا حبذا لو يفعل ٠

ابــو سفيــان ـ أنا أخشى ان ينعكس علينا الامر !؟

ابــو الحكــم ـ مستحيــل !٠٠٠

ابــو سفيــان ـ انت تقول مستحيل ٠٠٠ أو لا ترى ذلك الاقبال الهائل الــذى وقع على دينه بيثرب ؟٠٠٠

ابــو الحكــم ـ نعم ، وما علينا نحن يا أبا سفيان اذا لم يكن ذلك من أهل مكة ٠٠٠ من قريش ٠

ابــو سفيــان ـ لا اظنك يا أبا الحكم تجهل موقع يثرب من بلادنا ؟

ابــو الحكــم ـ وكيف ذلك ؟٠٠٠

ابــو سفيــان ـ اليست يثرب فى طريقنا الى الشام ؟٠٠٠

ابــو الحكــم ـ نعــم ٠

ابــو سفيــان ـ فاذا تمكن منها محمد وأصحابه فايــن لنا مــن مواصلة رحلتنا صيفا الى هنالك ؟٠٠٠ وكيف بتجارتنا ومصالحنا بتلك الديار ؟

ابــو الحكــم ـ نعم صدقت ، واذا فكيف العمل ؟

أبــو سفيــان ـ أرى اننا اذا لم نسرع نحن بالقضاء عليه قضى علينا هو بسرعة عاجلة !٠٠٠

ابــو الحكــم ـ ما العمل ؟٠٠٠ ما التدبير ؟٠٠٠

ابــو سفيــان ـ لنجمع سادة العرب واشرافها بــدار الندوة حالا ولنتشاور فى الامــر ٠

ابــو الحكــم ـ مرحى ٠٠٠ مرحى ٠٠٠ لا عدمناك يا أبا سفيان ٠٠٠ فما خاب من استشار ٠

ابــو سفيــان ـ البدار البدار ٠٠٠ **يهرول فيصعد شرفا وينادى :** يا صباحاه !٠ يا صباحاه !٠٠

مشهــــد ـ 2 ـ

الجمهــــــور ـ لبيك ٠٠٠ لبيك يا أبا سفيان ٠٠٠ لبيك وسعديك والخيــر فى يديك ، والشر ليس اليك ٠٠٠

أبـو سفيـان ـ **خطيبا :** يا قوم ! لقد علمتم أمر هذا الساحر الكذاب ماذا صنع في مجتمعنا هذا من تشتيت وتفريق ، واني أرى أمــره هذا يزداد كل يوم تمكنا من القلوب وانتشارا في الارض ... ولم يكتف بمقاومة ديننا وتسفيه أحلام شبابنا وتغيير عقائدنا حتى أصبح اليوم يسعى في قطع معاشتنا بالحيلولة بيننا وبين بـلاد الشام التي نستورد منها معاشنا ونكتسب منها ومن غيرها رزقنا وذلك بنزوله واصحابه معه أرض يثرب ،... فقد بلغني وانه سيلتحق بهم هنالك !... فتعالوا نعالـج أمـره هذا قبل ان ينتشر خطـره ، وليتقدم السادة مـن أشراف قريش وسادتها الميامين الى دار الندوة مسرعين .

الجمهــــــور ـ **في ازدحام عظيم :** حـبا وكرامة !.. حبا وكرامة !.. الى دار النــدوة ...

مشهــــد ـ 3 ـ

ابلـيـــس ـ **في دار الندوة يتقدم في هيئة شيخ نجدي .**

أبـو سفيـان ـ من الشيخ ؟..

ابلـيـــس ـ شيخ من أهل نجد حنكته التجارب يرجو المساهمة معكم في هذا الاجتماع الهام ليسمع ما تدبرونه في شأن هذا المارق ، فعسى أن تجدوا عندي رأيا صائبا ونصحا مخلصا .

أبـو سفيـان ـ أجل ، تقدم يا سيخ .

هنا يتقدم الجمع الى دار الندوة ومعهم الشيخ النجدي

أبـو سفيـان ـ **لابي الحكم :** تكلم يا أبا الحكم .

أبـو الحكـم ـ ان محمدا قد كان من أمره ما علمتم ، ولقد اتبعه عمر بن الخطاب وهو رجل عظيم في قريش ، ذو قوة وباس شديد ، كما انه نراه قد اعتز باسلام عمه حمزة ، وانه يتلقى الوفود مـن الناس في المواسم والاسواق ، ولا سيما في موسم الحج فيوسوس لهــم ويعرض عليهم دينه الجديد !.. فواللات والعزى لقد خشيت من نهضة عارمة من قبله تكون علينا فتأتي على الاخضر واليابس ... فأجمعوا فيه رأيا ؟!..

أبـو سفيـان ـ **يقول لامية :** وماذا عندك أنت يا أمية ؟...

أبو البختـرى ـ احبسوه وكبلوه فى الحديد واغلقوا عليه بابا غير طاق واحـد صغير تلقون اليه طعامه وشرابه منه ، وتربصوا بـه ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله كزهير أو النابغة وغيرهما ممن مضى قبلهم .

الشيخ النجدى ـ **صارخا** : لا واللات !... ما هذا لكم برأى يا قوم ! والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم الى أصحابه وأتباعه ، فيكثرون ويحاربونكم حتى يغلبوكم عـلى أمركم **ويلتفت الى أميـة قائلا :** فبئس الرأى الذى رأيتـه يـا أبا البخترى فانظروا فى غيره يا قوم وتشاوروا ...

أبو الاسـود ـ صدق الشيخ ورب الكعبة ، !... ألم تحبسه وعشيرته قريش من قبل فى الشعب ؟... انسيت كـل ذلك يا أمية ؟... ماذا نفعـنا سجنه ؟ ... لا شىء ! ... فالـرأى عنـدى هـو ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فننفيه من بلادنا ثم لا يضرنا ما صنع ، واسترحنا منه جميعا ، ولا نبالى أين ذهـب

شيـبـة ـ **(مقاطعا)** نعم ، نعم ، ثم بعد ذلك نشتغل بأنفسنا فنصلح مـن شأننا وما اختل من أمور حياتنا ومعاشنا وتعود الفتنا كما كانت .

الشيخ النجدى ـ **صارخا :** كلا واللات ما هذا لكم برأى !... **(القوم فى دهش)** ألم تروا الى حسن كلامه ، وحلاوة منطقه ، وقوة حجته ، وغلبته على قلوب الرجال فيما يأتى به ؟... أليس أحد بمكـة عنده شىء يخشى عليه الا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ؟...

هشـام ـ نعم ، نعم ، ثم ماذا ؟ وما العمل اذن ؟...

الشيخ النجدى ـ فواللات لو فعلتم ذلك لنزل صاحبكم على حى من أحياء العـرب فيغلب عليهم بكلامه اللطيف ، وحـديثه الظريف حتى يبايعوه فيعـز ويمتنع ويفشو أمره فى القبائل ثم يسـير بهم فيغزوكم ويفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا غير هذا .

أبـو الحكـم ـ **بعد اطراق وتفكير طويل وتامل :** نعم صدقتم ... وربما افلت من أيدينا والتحق بيثرب ... واللات ان لى فيه لرايا غير هذا ، ما أراكم رأيتموه ولا وقعتم عليه بعد .

ابـو سفيـان ـ وما هو يا أبا الحكم ؟...

ابـو الحكـم ـ الرأى هو ان نأخذ من كل قبيلة شابا قويا يكون من عائلة شريفة فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما بتارا فيقصدون محمدا فيضربونه بسيوفهم هذه ضربة رجـل واحد فيقتلونه ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم.

أميـــــة ـ واذا طلبوا منا الدية ؟...

ابـو الحكـم ـ ذلك ما كنا نبغ ... أديناها لهم فعقلناه واسترحنا .

الشيخ النجدى ـ بخ بخ بخ !... الآن وقعتم فى الصواب ، وهذا هو الرأى الذى لا أرى لكم غيره ، ... هكذا يذهب دمه هدرا ...

الحـاضرون ـ **لابى الحـكم :** أصبت يا أبا الحكم ... أصبت يا أبا الحـكم أصبـت .

مشهـــد ـ 4 ـ

تسمع ضجة من خارج دار الندوة .

ابـو سفيـان ـ **يتحدث مع أبى الحكم :** انظر يا أبا الحكم ما هذه الضجة ؟...

ابـو الحكـم ـ **ينهض ليـرى ما يسمع :** أرى سـادة العرب ورؤساء قـريش يتحاورون بينهم ... **يفكر** ... واظنهم قادمين نحونا وهم فى طرب وانشراح ...

مشهـــد ـ 5 ـ

الجمهور فى دار الندوة .

ابـو الحكـم ـ اهـلا ، آهـلا ومرحبا وسهلا ، مرحبا بابنائنا وفلذات أكبادنا **ثم يقف خطيبا بينهم :** انتم يـا معشر الشباب محـط أملنا فى تخليص ديننا وانقاذ وطننا وقومنا مـن هذه الفوضى والخلاف الذى مزق شملنا وشتت جمعنا ، ويحكم ايها الشباب !

ان دام هذا ولم يحدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

أنتم أيها الابناء الكرام عصمة هذه الامة العربية القرشية التى لم يسجل لها التاريخ انهزاما قط ، ولم يثبت انها وقعت تحت نفوذ أجنبى مطلقا ، فلم يملكها أحد مـن بنى البشر لا أصفـر ولا أحمـر .

الجمهــــور ـ مـرحى ... مـرحى .

ابــو الحكــم - **مستمرا فى خطابه :** ولقد علمتم ما فعـل محمد بآلهتنا وديننا ومعابدنا وانظمتنا وجميع مقومات حياتنا ، فاليكموه ! فاقتلوه فى ضربة رجل واحد ومزقوه شر ممزق !٠٠٠

الجمهــــور - **هتاف :** ٠٠٠ مرحى ٠٠٠

ابــو الحكــم - واليكم السلاح - **يناولهم السيوف** ٠

ابــو سفيــان - فقفوا محيطين بمنزله وانزلوا عليه فى ضربة واحدة عند خروجه يقع لها صريعا ٠

صياح ابتهاج من الشباب ٠

ابــو الحكــم - اياكم ان يفلت من ايديكم الليلة مثلما افلت من يـدى يوم ان احتملت الحجر عازما على فضخ رأسه فى المسجد ٠

امـيــــــة - وكيف أفلت من يدك يا أبا الحكم ؟٠٠٠

الجمهور منصت اليه ٠

ابــو الحكــم - **فى دهش :** لا أدرى واللات ٠٠٠ لقد تقدمت نحـوه يومئذ حـتى اذا اقتربت منه أخذتنى رعشة فعدت مرعوبا وقد يبست يداى على الحجر حتى رميت به من يدى ٠

امـيــــــة - لقد سحرك يا أبا الحكم ٠

ابــو الحكــم - لئن كان قد سحرنى يومئذ وانا وحدى فلا أخاله اليوم يستطيع ذلك معكم جميعا ٠

شيـبــــــة - **يدفعه حب الاطلاع :** ٠٠٠ وما هى مزاعم محمد ؟!٠٠٠

هشــــــام - **بعـد قهقهة وسخرية :** ٠٠٠ يزعم انكم ان آمنتم به وصدقتموه واتبعتموه كنتم ملوك سادة هذه الارض وتنتصرون على ملـك كسرى والروم ويخضع لكم جميع العرب والعجم ٠٠٠ ثم انكم بعد موتكم تبعثون فتكون لكم جنات ونعيم خالدين فيها أبدا ٠٠ وان لم تفعلوه كان له فيكم قتل وذبح ثم تبعثون من بعد موتكم الى نار جهنم فتسجرون ٠

ضحك وقهقهة سخرية من الحاضرين ٠

امـيــــــة - حيــاة ثم مــوت ثم بعـث   حـديث خـرافة يا أم عمـرو

ابــو سفيــان - البدار البدار ٠٠٠ البدار ٠٠٠

بينما القوم فى اندفاع للخروج للعمل من دار الندوة اذا بصارخ يصرخ فيهـم :

الصـــارخ - أيها الملأ من قريش !··· ويحكم قد خيبكم الله ! ان محمدا قد هاجر !

ابـو سفيـان - مغضبا : انى جعلت فيه مائة ناقة لمن يرده علينا أو يقتله !··· اسرعوا !··· بادروا !···

يذهب الجميع غير أبى سفيان وابى الحكم ·

الفصـــل الثـالـث

مشهـــد - 1 -

خيمة أم معبد بالبادية

ام معبـــد - منهمكة فى خدمة الضيوف بخيمتها حريصة على اكرامهم مــع شدة فقرها ···

ابـو بكـــر - يقترب من ام معبد قائلا : يا أم معبد أما لديك ما تشتريه قوتا لحاضرنا ونتخذ منه زادا لسفرنا ؟···

ام معبـــد - بـلى يا سيدى ··· ولكن ليس بيعا ، وانما هـو قرى متواضع بحسب ما ترونه من القحط والجدب النازل اليوم ببلادنا ·

وتسرع فتقدم لهم لبنا ·

صاحب أبو بكر - شكرا يا أم معبد - ويلتفت فـيرى بكسر الخيمة عنـزا مهزولة الجسم فيتساءل : وما هذه الشاة يا أم معبد ؟···

ام معبـــد - هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم فلم تستطع الخروج الى المرعى !

الصـــاحب - وهل بها من لبن ؟···

ام معبـــد - هى اجهد من ذلك !···

الصـــاحب - أتاذنين لى فى حلبها ؟···

ام معبـــد - نعم ، بابى انت وأمى ان رايت بها حلبا فاحلبها ·

الصـــاحب - آتينـى بانـاء ·

ام معبـــد - تناوله الاناء وهى تقول فى نفسها : ماذا عسى أن يعمل هذا ؟

الصـــاحب - يتقدم نحو العنزة فيمسح ضرعها قائلا : بسم اللـه اللهم بارك لها فى شاتها ·

ام معبـــد - تنظر اليه متعجبة قائلة : ماذا عسى ان يفعل ؟···

الصـــاحب - يحلـب ···

أم معبـــد ـ مندهشة : ما اعجب الذى أرى هذا اليوم !!٠٠

أبـو بكـــر ـ لا تعجبنى يا أم معبد ٠

الصـــاحـب ـ يسقى القوم مبتدئا بام معبد ٠

أم معبـــد ـ تشرب حتى تروى : جزيت خيرا ووقيت ضيرا ٠

الصـــاحـب ـ يناول أبا بكر الاناء ٠

أبـو بكـــر ـ لصاحبه : وانت يا رسول الله !٠٠٠

أم معبـــد ـ مأخوذة من سماعها لكلام ابى بكر وقوله : يا رسول الله !٠

الصـــاحـب ـ ساقى القوم آخرهم ٠

أبـو بكـــر ـ يشرب حتى يروى ثم يناول الاناء لباقى الرفقة ٠

الصـــاحـب ـ هـو آخر من يشرب ، ثم يعود الى الشاة فيحلبها للمـرة الثانية ويترك الاناء هكذا مملوء لبنا وينصرف ٠

ابـن اريقـط ـ اما وقد روينا واسترحنا فلنرحل ٠

الصـــاحـب ـ لام معبد : جزاك الله خيرا يا أم معبد ٠

أم معبـــد ـ متمثلة : يا ضيفنا ان زرتنا لوجدتنا

نحن الضيوف وأنت رب المنزل

تنهض الجماعة تريد الرحيل فتشد رحلها للمسير وتنطلق ٠

أم معبـــد ـ على خير طائر ٠٠٠ على خير طائر ٠

مشهـــد ـ 2 ـ

أبـو معبـــد ـ يدخل الخيمة يسوق عنزا عجافا ويلتفت فيرى لبنا فى الانـــاء فيقول مخاطبا لزوجه أم معبد : يا أم معبد ما الخبر ؟ ٠٠٠ ويشير الى ايناء اللبن : وما هذا الذى أراه ؟ ٠٠٠

أم معبـــد ـ لا والله ، الا أنه مرت بنا جماعة مسافرة ومن بينهم رجل مبارك قام الى شاتنا العجفاء هذه ، فمسح ضرعها بيده حتى درت واجترت وجاءت بلبن غزير ، فسقانى فشربت حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا وسمعته يقول : ساقى القوم آخرهم ، فكان هو آخر من شرب ٠

أبـو معبـــد ـ صفى لى هذا الرجل العجيب ٠

ام معبـــد - هو رجل ظاهر الوضاءة ، مليح الوجه ، فى عينيه دعج ، وفـى اشفاره وطف ، أحور ، أكحل ، شديد سواد الشعر ، أزج أفرق الحاجبين وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه وقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، حسن الخلق والخلق ، ربعـــة ، لا تشنوه العين من طول ولا تقتحمه من قصر ، وكانه بين صاحبيه غصن بين غصنين ، فهو انضر الثلاثة منظرا ، واحسنهم قدرا ، وهم يحفان به ، اذا قال استمعوا لقوله ، وان امر تبادروا الى أمـــره •

ابـو معبـــد - ويحك يا أم معبد ! ••• هذا والله صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه ، وقد بذلوا جعلا لمن يرده اليهـــم ، ولو كنت وافقته لالتمست صحبته - **ويندفع نحو باب الخيمة** •••

ام معبـــد - نعم ، هو بلا شك ، اذ قد سمعت رفيقه فى السفـــر يناديه : يا رسول الله •

ابـو معبـــد - ولافعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا ، **يخرج مسرعا** •

مشهـــد - 3 -

ام معبـــد - **فى خيمتها وفى خلمة بيتها** •

جمـــاعـــة - **رجال ونساء وصبيان يدخلون على ام معبد** : أحقا ما يذكر عن زوجك فيما يحدث به الناس الساعة عن الرجل الذى مر بكم ؟

ام معبـــد - نعم هو كذلك •••

احـد الجماعـة - فهذا رجل مبارك حقا ! ••• وصفته هى ما ذكرت يا أم معبد ؟

ام معبـــد - نعـــم •

احـــدهـــم - **مندهلا** : يا أم معبد ما بال وصفك لهذا الرجل جاء هكذا أنتـم اوفى من وصفنا له لو رأيناه نحن الرجال ؟ •••

ام معبـــد - أما علمتم أن المرأة اذا نظرت الى الرجل كان نظرها اشـفى من نظر الرجل الى الرجل ؟ ! •••

النســـوة - بلى ورب البيت ! ••• بلى ورب الكعبة ! •••

الفصـــل الـرابـع

مشهـــد ـ 1 ـ

في دار الندوة ٠

اعــرابـي ـ يدخل : عموا مساء ٠٠٠

امـيـــــة ـ ما وراءك يا عصام ؟ ٠٠٠ ما الخبر ؟ ٠٠٠

الاعــرابـي ـ لقد اطلعت على خبر حول محمد فنقلته اليكم طريا ٠

امـيـــــة ـ لا عدمناك يا أخا العرب ٠٠ وما ذاك ؟ ٠٠٠

الاعــرابـي ـ اخبرني صديقي الآن وقد جاء من قديد بانه سمع بنفسه حديث أم معبد لزوجها في الخيمة حين رجع من الرعي ٠

امـيـــــة ـ ومن أم معبد ؟ ٠٠٠

الاعــرابـي ـ هي عاتكة بنت خالد الخزاعية ، وهي امرأة برزة جلدة تسقي وتطعم بفناء الكعبة ٠

امـيـــــة ـ نعم أعرفها وأعرف فضلها على العرب وأعـرف زوجهـا ذاك الخزاعي ٠٠٠ وما ذاك ؟ ٠٠٠

الاعــرابـي ـ قال محدثي بانه سمع عاتكة هذه أم معبد تقول لزوجها بانـه مر بها ثلاثة رجال من بينهم رجل مبارك ، قالت بعد ما رغبوا منها شراء طعام أو شراب لزادهم ذكرت لهم انه ليس عندها ما يباع او يشترى ٠٠٠ فلمحوا في بيتها شاة مهزولة فاستاذنها أحدهـم في حلبها فقالت هي أجهد من ذلك ٠٠٠ وان رايت بها حلبـا فتقدم ، فتقدم أحدهم للشاة ومسح ضرعها وحلب ما اشبع أهل الخيمة كلهم وشرب هو آخرهم ثم أعاد الحلب فملأ ايناءها لبنا وتركها وخرج مع رفقته ٠

امـيـــــة ـ ويا ترى من تكون هذه الجماعة ؟ ٠٠٠

ابـو سفيـان ـ ولعلهم جماعة مسافرين رفقة ٠

الاعــرابـي ـ لا وربك انه لمحمد في رفقته ٠

ابـو سفيـان ـ ومن أين لك هذا ؟ ٠٠٠

الاعــرابـي ـ حسبما ذكر لي الراوي ان ابا معبد طلب من زوجته وصف هذا الرجل فقالت هو رجل كذا وكذا وذكرت من صفته ما نعرفـه من صفات محمد ٠

ابـو سفيـان ـ وهل علمت ما قال لها زوجها أبو معبد ؟

الاعــرابـي ـ نعم ، قال لها ويحك يا أم معبد ! هذا والله صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه ولو رأيته لاتبعته ٠

ابـو سفيـان ـ تبا له وسحقا ! ٠٠٠ نعم صدقت يكون ذاك هو محمد بعينـه حسب الاوصاف الذي وصفت ٠

الاعــرابـي ـ لا ريب في ذلك ٠

مشهـــد ـ 2 ـ

شيـبـــة ـ يدخل مع هشام ٠

ابـو سفيـان ـ مبادرا لهما : ٠٠٠ ماذا فعلتما ! ٠٠٠ وهل قتلتمـــوه ! ٠٠٠ بشرنا ياشيبة ! ٠٠٠

شيـبـــة ـ انه لم يوجد في بيته ! ٠٠٠ بل ولم يبت فيه البارحة أصلا ٠٠٠ ولقد ظننا انه هو على فراشة ، فاذا بـه هو عـلى بن أبي طالب ملفوفا في برد أخضر ٠

ابـو سفيـان ـ وهلا اجتهدتم في البحث والتنقيب عنه ؟ ٠٠٠

شيـبـــة ـ نعم ، وكيف لا ، لقد انطلقنا جماعات وفرادى نبحث عنه هنا وهناك وبعثنا بالجواسيس الى جميع النواحي والجهات وطلبناه في السهل والجبل ، في اعلا مكة وأسفلها وتتبعنا خطواتــه ومشينا في آثره حتى انقطعت عنا جميع الطرق ولم نترك مكانا الا ودخلناه ، ولا منزلا الا واقتحمناه فطفنا مكة بأطرافها طواف الحجيج بالبيت ونفضناها نفضا حتى استوقفنا الغار ٠

ابـو سفيـان ـ وأي غار تعنى ؟

شيـبـــة ـ غار ثور بأسفل مكة ٠٠٠

ابـو الحكـم ـ سحقا لكم أيها التعساء ! ٠٠٠ فهلا دخلتم الغار ؟ ! ٠٠٠

شيـبـــة ـ كيف كان يتيسر لنا ذلك وقد تدلت فروع شجر الراءة على فوهة الغار فضيقت مدخله ، ولا سبيل لاحد الى اقتحام الغار وهو على ذلـك ! ٠٠٠

أبــو الحكــم - فلو أنكم حاولتم ازالة ذلك الحاجز وغامرتم فاقتحمتوه على كل حــال ؟

شيبــــــة - كيف ؟ ... وقد عشش على بابه حمامتــان وحشيتان وباضتا عنده ، ونسج عليه المنكبوت بكثافة من قبل ميلاد محمد ، فلو دخله محمد أو غيره لتكسر ذلك البيض ولفسخ بيت العنكبوت ... ومع ذلك فقد سألنا رعاة الشاء فى الجبل : هل من أحـد رأيتموه حام حول هذا الغار ؟ ... فكلهم أجاب بانه لم يشهد أحدا قصده .

ابــو جهـــل - فلا عنكبوت ولا شجر الراءة ولا بيض ولا حمام ! ... وانمـا صرفت ابصاركم وقلوبكم وأسماعكم واحاسيسكم كلها عن هـذا الرجل فعمى عليكم الاثر ! ...

هــاتـــف - **يسمع ولا يرى صاحبه : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجـه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنوده لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا واللـه عزيز حكيم » .**

الفصـــل الخـامس

مشهـــد - 1 -

المسلمـــون - **فى تحرق وشوق ينتظرون مقدم النبى :** نرجو ان يقدم اليـوم رسول الله ! ... تعالوا ننتظره ...

يهــــودى - أنتم كل يوم تقولون هذا ؟ ...

ابــن زرارة - نعم نحن والله لنخرج فى أول النهار من كل يوم هكذا كما ترانا نترقب قدومه حتى تحرقنا الشمس فنرجع الى منازلنا وديارنا وما قدم .

البـــــراء - صبرا يا سعد صبرا ...

ابــن زرارة - والله لا استطيع اليوم صبرا ، لقد برح بى الجوى حتى لا استطيع صبرا ... أحببت ان أرى وجه محمد !

أسيـــــد - صدقت والله ... فلقد اتبعناه واحببناه وما رأينا وجهه .

اسعد بن معاذ - لقد فاز برؤيته والتمتع بملقاه اخواننا أصحاب العقبة .

اسيــــــد – هنيئا لهم ثم هنيئا ...

يهـــــودى – أوسمعتم بخروجه وحده ؟ ...

ابـــن زرارة – لقد سمعنا باندفاعه من مكة صحبة رفقة .

البـــــراء – يضع يده على عينيه اتقاء وهج الحر وشعاع الشمس الوهاج ويقول : ان ضياء الشمس وحرارتها قد عم البقاع ولم يبق لنا ظل قائم نستظل به فلندخل بيوتنا وخيامنا ... فما أحسبه آتيا اليوم .

الجميـــــع – ينهضون : نعم فلندخل ... لندخل ... لندخل .

رجـــــل – يقبل من نحو قباء مسرعا : اسمعوا يا قوم !... اسمعوا يا قوم !

الجميـــــع – يتلهف : وما ذاك ؟ ... وما ذاك ؟ ! ... ما وراءك ؟ ...

الـــرجـــل – جئت الآن من قباء وقد رأيت رجلا واقفا على باب بيت وعليه من المهابة والوقار ما حملنى على الترحيب والتبرك به فقصدته ، واذا هو يمسكنى من يدى ويقودنى الى داخل البيت ، قائلا : هذا هو نبيك !

أسيـــــد – ومن هذا الرجل الذى قادك من يدك الى البيت ؟

الـــرجـــل – هو أبو بكر بن أبى قحافة .

اسعـد بن معاذ – وكيف حتى عرفته ؟

الـــرجـــل – عرفته حينما رأيته فى قباء والنبى متهيىء للمسير ، فرأيت هذا الرجل يظلله بردائه وقاية له من حر الشمس ، فسمعت النبى يخاطبه بقوله : شكرا لك يا أبا بكر شكرا ...

اسعـد بن معاذ – هنيئا لك هذا بما فزت به دوننا وتمتعت به قبلنا من رؤية طلعة النبى وصاحبه أبى بكر .

الجميـــــع – فى تهنئة الرجل : هنيئا لك هنيئا ...

اسيــــــد – هلموا أيها الرفقاء الى ثنية من ثنايا هذا الجبل نرقب مجىء محمد.

الجميـــــع – هلموا ... هلموا الى ثنية الوداع علـه يطلع علينا من هناك ؟...

يهـــــودى – وما يكاد ينصرف الجمع من مكانه حتى يظهر .

يصعد الجبل فيرى محدقا بنظره فى الافق وكانه راى شيئا غير عادى فيصرخ قائلا : يا بنى قيلة ! ... يا بنى قيلة ! ... هذا صاحبكم قد حضر ... هذا صاحبكم قد جاء ! ... يذهب .

المسلمـــون ـ يصيحون بصوت واحد : الله أكبر ؟ ··· الله أكبر ! ···
يهرعون جميعا نساء ورجالا وصبيانا لاقتبال النبى وتسمع لهم أصوات تدل على البهجة والسرور ··· جاء نبى الله ! جاء نبى الله ! جاء رسول الله ··· هذا محمد رسول الله ···

مشهـــد ـ 2 ـ

اليهـــودى ـ عائدا مع عمته خالدة : الله أكبر !

خـــالـــدة ـ خيبك الله يا عمى ! ··· والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران حضر ورأيته قادما اليك لما زدت على ذلك ··· أخسأ ! ··

اليهـــودى ـ يا عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران جاء بمثل ما جاء به موسى وما جاء به الانبياء قبله ··· وقد بشر به التوراة والانجيل

خـــالـــدة ـ اذن هو النبى الذى كنا نسمع انه يبعث فى آخر الساعة ·

اليهـــودى ـ نعـم ·

خـــالـــدة ـ مشيرة بيدها : أذاك هو النبى الذى نراه ؟ ! ···

اليهـــودى ـ نعم ، تعالى لنراه يخرجان ···

الجمهـــور ـ هى وراء المنظر ومن بعد يسمع هتافهم : أقبل يا رسول الله ! ··· اقبل الى القوة والمتعة اقبل الى الحمى ، اقبل يا رسول اللـه ! ···

هنا يقـام مهرجان عظيم يحتفل فيه الشباب والشيوخ ، ويظهر فيه بنات ونساء وصبيان وهم فى ابهج زينة وافخر مظهر وكلهم ينشد نشيد الهجرة :

طلـع البـدر علينـا — مـن ثنيـة الـوداع
وجـب الشكـر علينـا — مـا دعـا للـه داع
الخ ··· الخ ··· الخ ···

مصـــادر :

ـ تاريخ الطبرى ، ط : القاهرة 1357 هـ ·
ـ سيرة ابن هشام بشرح السهيلى ، ط القاهرة 1389 هـ ·
ـ السيرة الحلبية ، ط : بولاق 1292 هـ ·
ـ نهاية الارب للنويرى ، ط : دار الكتب ـ القاهرة 1972 م ·

ثالثا: من مقالاته في مجلة الثقافة

من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي رحمه الله، السنة الرابعة عشرة، العدد: 80، جمادى الثانية، رجب 1404 هـ/ مارس، أبريل 1984م، ص: 187-193 (7 صفحات)

من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي (رحمه الله)

عبد الرحمن الجيلالي

لا يضلنا يوم 9 فيفري من كل سنة حتى تتجدد لنا من أخينا العزيز المرحوم الشيخ مبارك الميلي ذكريات 9 فيفري 1945 م (25 صفر 1364 هـ) تمدها حسرات تتبعها زفرات ، فحياته رحمه الله كانت كلها جد وعمل ، وعمر كله درس وتحصيل ، وشباب كله تلق واستفادة ، وكهولة كلها انتاج وافادة ، ونفس كلها ضمير وواجب ، وروح كلها ذكاء وعقل ، وعقل كله رأي وبصيرة ، وبصيرة كلها نور واشراق ، ومجموعة خلال سعيدة وأعمال مفيدة قل أن اجتمعت في رجل من رجال النهضات ، فاذا اجتمعت هيأت لصاحبها مكانه من قيادة الجيل ، ومهدت له مقعده من زعامة النهضة ...

تلكم هي كلمات الأستاذ الرئيس الشيخ محمد البشير الابراهيمي رحمه الله التي عرف بها خلال الشيخ مبارك الميلي في ذكراه الثالثة بعد وفاته . وكفى بها شهادة من عظيم لعظيم .

كان اشراق محيا الميلي رحمه الله على هذا العالم سنة 1316 هـ ـ 1898 م بدوار أولاد مبروك من قرى بلدة الميلية بولاية قسنطينة وبها نشأ وتربى يتيما في حجر جده ثم في كفالة عميه ، ثم اقتضى ما حمله على الانتقال بنفسه الى مدينة ميلة راغبا في الدرس والعلم ، فأتم بهذه البلدة حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد الميلي امام المسجد ومدرسه ، مع ما كان يتلقاه معه الطلبة عن هذا الشيخ من مبادىء العلوم الاسلامية وآداب اللغة العربية وآداب النفس والأخلاق ، وبما أن المبارك كان هجيراه وشعاره دائما في طلب العلم وتحصيل الفهم : (هل من مزيد) فيمم حاضرة قسنطينة ليكرع من ينبوع علامة القطر وامام العصر الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله ، فاتصل بالأستاذ الامام وقربه اليه وكان لديه من أحب وأعز تلامذته الكرام فشجعه الى دروسه الى أن بلغ من العلم ما أهله الى التعليم العالي فبعث به الى تونس ليتلقى عن كبار علماء جامع الزيتونة ما يشفي غليله من التضلع من علوم المعقول والمنقول فأضحى كذلك محل عناية فحول الأساتذة بجامع الزيتونة الذين طالما تفاءلوا به خيرا فلازم الدراسة بجد واجتهاد حتى النهاية بتحصيل شهادة التطويع 1924 م ، ثم عاد الى قسنطينة مملوء الوطاب علما وأدبا فعقد عزمه على تكريس حياته لخدمة العلم والدين والوطن وأول ما عني به يومئذ هو تأسيس مدرسة على النمط العصري ، فكان له ذلك سنة 1925 م فعمل بها مديرا ومدرسا نحو أربعة عشر شهرا ، ثم كان ما أوجب انتقاله من قسنطينة الى مدينة الأغواط فبنى له أهلها مدرسة جديدة وانقطع فيها للتعليم والكتابة والتأليف ، وكانت أيامه بها هي أخصب أيامه في الانتاج الأدبي والاجتماعي والعلمي ، وبهذه المناسبة تخرج على يده جمع عظيم من حملة العلم وأنصار الدين •

وكان الاقبال عليه من أبناء الأغواط وغيرهم عظيما ، وبها ظهر نبوغه وعبقريته في فن التربية والتعليم ••• وعلى يده تأسست الجمعية الخيرية بالأغواط لاسعاف ذوي الحاجة من بني الانسان وعكف هناك بالمسجد على القاء دروس في التفسير والحديث والفقه والسيرة والأخلاق ، وعقد

الى ذلك مجالس للوعظ والتذكير ، تلك المجالس التي كانت فيما بعد نواة لتأليف رسالته الجليلة : رسالة الشرك ومظاهره .

وكثيرا ما كان أثناء ذلك يخرج متجولا في أنحاء الوطن لبث مبادىء الاصلاح الديني والاجتماعي ونشر التعليم بين مختلف الأوساط ، كل ذلك بطريق الارشاد والتوجيه الى العمل على هدى الكتاب والسنة ومحاربة البدعة في الدين والعقيدة والتجافي عن الجهل والكسل والخمول . فكان تارة يخرج الى الجلفة ، وتارة الى بوسعادة ، وتارة الى آفلو ، وتارة الى غيرها من أنحاء الوطن ، ورسالة الشرك ومظاهره المطبوعة أولا بقسنطينة سنة 1356 هـ ـ 1937 م تعطيك نظرة عامة عما كان يحوم حوله في مجالسه الوعظية من مسائل تصحيح العقيدة ودفع التدجيل ومقت الدجالين في الدين ، بهذا ارتأى الشيخ الميلي خدمة قومه ووطنه .

نعم لقد وفق حقا وصدقا فيما اختاره هذا الرجل العظيم لخدمة أمته ، فان أهم ناحية يخدم بها العالم العامل أمته هي تطهير المعتقد مما لصق به من الضلالات والخزعبلات وتجلية عقيدة التوحيد وارجاع قوة الاسلام بنفي العقائد التي هي أجنبية عنه والتي أدخلت الضعف في نفوس أهله حتى أصبحوا بسببها في أسوء حال من حيث أوضاعهم الاجتماعية وحياتهم السياسية والاقتصادية ، فللعقيدة الدينية الدور الأهم في كل ما قام به هذا الشعب الجزائري من أعمال في مختلف الميادين خلال التاريخ من يوم اعتناقه للاسلام ، وذلك لأن للعقيدة الدينية دخلا كبيرا في جميع الحركات والسكنات عند المسلمين قاطبة .
وما كان للعرب تقدم ولا تحرر في أفكارهم وعقائدهم الا بتطهير الاسلام لعقولهم من الأوهام والأباطيل .

ولقد كان لعلم التاريخ فضل علينا عظيم في تعرفنا الى هذه الشخصية البارزة العظيمة ، شخصية الميلي رحمه الله فانه عندما تصدى لجمع المواد التاريخية لوضع كتابه الحافل : تاريخ الجزائر في القديم والحديث كان أن بادر ففاتحنا بالمراسلة وكاتبنا من مدينة الأغواط باحثا

عن مراجع ومصادر تتعلق بتاريخ هذا الوطن المفدى ، وتارة كان يكتب باحثا عن تحقيق نص أو أثر تاريخي قديم يرجع الى ماضي الجزائر المشرق ... ولا زلت محتفظا برسائله هذه المدبجة بقلمه البليغ وكأنها الوشي المحبر ، ومعتزا بها .

وفي أيام العطلة الصيفية وفي المناسبات كالأيام التي كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعقد فيها اجتماعاتها الادارية وهو أمين ماليتها كان ينزل الى العاصمة فيزورنا بمدرسة الشبيبة الاسلامية وكان يديرها يومئذ زميلنا وصديقنا الشاعر الكبير الأستاذ محمد العيد رحمه الله . فكنا نقضي معه أمسيات أيام الصيف ـ خاصة ـ متجولين بأطراف العاصمة وبساحلها الجميل وبين حدائقها ، الغناء ، وكانت هذه الفترة فرصة طيبة نغتنمها جميعا لتبادل أطراف الحديث حول مواضيع شتى ... وأهمها كان حول كتابة ووضع تاريخ لهذا الوطن العزيز ، فكان همنا البحث عن الوثائق يومئذ ، ونجمع كل ما نظفر به من مخطوط أو مطبوع ثم نضعه بيننا للدرس والمناقشة وهكذا تشرفت بالتعرف الى الأستاذ مباشرة ... ولا أزال أراه ـ رحمه الله ـ ظريف الهيئة أغر الطلعة ، حسن المنظر ، مشرق الجبين ، صبيح الوجه تعلوه هيبة ووقار ، يتلألأ في عينيه الوضاءتين نور العلم واشراق الايمان ، ولا أزال أستمع وأستمتع بذلك الحديث العذب يخرجه من أعماق فؤاده وكله اخلاص وصفاء لا لبس فيه ولا مراوغة تراه يفتح لجليسه قلبه بلطيف حديثه الشيق الرشيق ، يغترف منه سامعه ما شاء من علم وأدب ونصح ، مع اصابة في الرأي وحدة في الذهن ، فهو ان قرر مسألة فبقوة وايمان واقناع ، وان جادل فبالتي هي أحسن ، وان خالفك في الرأي فمن غير عناد أو تعصب ، وان حاضر أو سامر فالدر المنثور ، كل ذلك في تواضع محمود وخلق كريم وأريحية فاضلة وشهامة وشمم بلغا درجة الكمال .

ومع كونه رحمه الله شديدا متصلبا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فانه كان الى ذلك حليما بشاشا ، طلق المحيا ، صاحب نكت وملح طريفة ظريفة .

هكذا عرفته رحمه الله .

والله يشهد أنه لم يكن هناك شيء كان أحب الي يومئذ من ملازمته والعمل الى جنبه خدمة للعلم والتاريخ وارضاء لأخ كريم وصديق حميم ٠

وقد كان طيب الله ثراه صبورا دؤوبا على البحث مغال في التحقيق والتدقيق مع مهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص ، وكانت له نظرة صائبة في استجلاء الغوامض وحكم صادق في أسباب الحوادث ونتائجها ، ومهارة في الترتيب والتبويب مع حسن سبك يجعل التاريخ كالسلسلة المفرغة ٠

فلننصت اليه حين يقول رحمه الله في ديباجة تاريخه الحافل :

« انما يكون للتاريخ هذا الأثر في ترقية عقول البشر ما دام على نقل الاثبات معتمدا ، وعن تدليس المغرضين مبتعدا ، خاليا من خرافات أكثر المتقدمين ، وعمليات المتعصبين من المتأخرين » ٠٠٠ فعلى هذه الخطة سار المبارك برد الله ضريحه في تدوين تاريخه الجليل فسلك فيه مسلك التحليل العصري العميق ٠ ولم يكن ليكتفي باستجلاء الحقائق واثباتها مجردة ، بل كان يمعن النظر في الأسباب والنتائج ويثبت أحكاما من عصارة فكره وخلاصة رأيه ونتيجة بحثه واستقرائه ٠

واليكم هذه المقطوعة من كتابه كنموذج لأحكامه الفاصلة في التاريخ ، فتراه يقول في استعراض ملتقى المدنيات الشرقية والغربية ، بأقطار هذا المغرب العربي الكبير ، يقول : ٠٠٠ والقضايا التاريخية ناطقة بانشراح صدور الافريقيين عموما للحضارات الشرقية وسرعة تأثرهم بها ومحاربة المدنيات الغربية وتقززهم منها ، وقد يعثر الباحث في بطون كتب التاريخ على جزئيات لا تؤيد هذا الحكم ، ولكنها نادرة لا تقوى على مضادته أو نقضه ٠

ويقول في تعليل نهاية الحكم الروماني بهذه الديار واندحار جيوشه الجرارة أمام حملة الواندال بسرعة مدهشة بعدما حكمها زهاء ستمائة سنة ، ثم يزول بمثل تلك السرعة العجيبة ، فيقول :

« وعندي أن لا سبب لسرعة احتلال الواندال لهذه البلاد غير مساعدة البربر لهم ، وعلة مساعدتهم هذه ترجع الى أنهم كانوا ينفرون من سلطة رومة ويعشقون الاستقلال ، وقد حاولوا مرارا أن يبلغوا مرادهم من طرد الرومان والاستقلال فلم ينجحوا ، فلما وجدوا في الواندال نصيرا على طرد الرومان أعانوهم مكتفين بهذا الشطر من غايتهم اذ رأوا أنهم عاجزون عن الشطر الآخر وهو الاستقلال فاستبدلوا احتلالا باحتلال وذلك تحقيقا لأحد المقصدين ، وتلك قاعدة ارتكاب أخف الضررين .

وهكذا سار مؤرخنا الكبير في تحرير كتابه : تاريخ الجزائر في القديم والحديث فأصدر منه الجزء الأول والثاني ، انتهى فيه الى آخر دولة بني عبد الواد الزيانية وأدركته المنية فأكمله بعده نجله الكريم صديقنا الأستاذ محمد الميلي بجزء ثالث انتهى به الى آخر الدولة العثمانية التركية وهذا من الوفاء لمقام الأبوة وما خصها الله به من الاجلال والتقدير فرحم الله الأصل وبارك في الفرع ، والبلد الطيب يخرج نباته باذن الله .

وليس لمبارك الميلي من الأعمال الجليلة الا هذا فقط ، بل هناك أعمال عظيمة قام بها نحو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها الى أن قررت الجمعية السكوت في سنة 1939 م ، كما قام بتأسيس جمعيات ومدارس ومساجد ، ونواد بميلة والميلية وقسنطينة والأغواط ، وكثيرا ما كان يقوم بنفسه لمباشرة تسييرها وبعث روح العمل والنشاط بها ، بله ما كان يتنظره من تحرير الفصول والمقالات في شتى المواضيع ، وفيها ما كان يعده للنشر ، وفيها ما كان يعده للدرس .

وهنا لا بد من أن أروي كلمة عن نمط درس الأستاذ وأسلوبه في الالقاء سجلها عنه أحد تلامذته الأبرار الذين كانوا يلوذون به ويتلقون عنه العلم بالجامع الأخضر حين فقد الأستاذ الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وجلس الميلي مكانه ليواصل السير بالطلبة الى ما شاء الله ...

قال الراوي : تراه يأتي فيجلس متربعا وليس بيده مطبـوع ولا مخطوط ، فيملى علينا ، وتأتي طبقة بعدنا فيملى عليها ، واملاؤه كله ارتجالي ، وهذا يصعب على كثير ممن تعاطوا تدريس العلوم بالمعاهد الشمالية ، يملى بالارتجال في النحو والصرف والفقه ومخارج الحروف والمنطق وشرح قصيدة السموأل على هذا المنوال ، ـ قال ـ فتعجبنا وظن البعض منا انه يحفظ ويأتي ، فاذا بنا نراه تمادى على ذلك ففهمنا أن الرجل أعجوبة زمانه ذكاء وذو فكر جبار وعبقرية نادرة قل أن تجد مثلها اليوم في غيره ، وذو ملكة راسخة في جميع الفنون . قال : وهذا أمر عجيب عاينته منه لم أشاهد نظيره في الجـامع الأخضر ولا في الزيتونة .. الخ . ومن هذا نعلم مبلغ غزارة الشيخ الميلي في علمه ومقدرته الكاملة التامة على التعليم .

وماذا عسى أن أجمع في كلمتي المقتضبة هذه مما يدور في خلدي من شتى الأفكار والآراء حول هذه الشخصية الجبارة الفذة وما تجيش به نفسي من عواطف الاجلال والاكبار نحو صـديقي وأخي المرحوم الشيخ مبارك الميلي رحمه الله. كان رجلا أدهش كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان حينما اطلع على الجزء الأول من كتابه تاريخ الجزائر ، فبادر يكتب الى صديق الجميع المرحوم الشيخ الطيب العقبي يقول :

« وأما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن في الجزائر من يفرى هذا الفرى . ولقد أعجبت به كثيرا ، فالميلي وباديس والعقبي والزاهري حملة عرش الأدب الجزائري الأربعة . » تغمد الله الجميـع برحمته وأسكنهم فسيح جنته .

عبد الرحمن الجيلالي

الفهرس العام

ترقيم الصفحات في هذا الفهرس خاص بهذا المجموع لا بأرقامها في المجلات التي نشرت فيها هذه المقالات

أولا: من مقالاته في مجلة (الشهاب)

ثانيا: مقالاته في مجلة (الأصالة)

ثالثا: من مقالاته في مجلة (الثقافة)